
أسرار البيان
في التعبير القرآني
تأليف
فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري

أسرار البيان في التعبير القرآني

فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي

يقول المؤلف: قررت أن أدرس النص القرآني بنفسي فبدأت أُجري موازنات بين كثير من الآيات من حيث التشابه والاختلاف في التعبير، والتقديم والتأخير، والذكر والحذف وما إلى ذلك من أمور لغوية وبلاغية ومعنوية وأفحصها فحصاً دقيقاً فراعني ما رأيت من الدقة في التعبير والإحكام في الفن والعلو في الصنعة .وجدتُ تعبيراً فنياً مقصوداً حُسِبَ لكل كلمة فيه حسابُها بل لكل حرف بل لكل حركة. وكلما أمعنت النظر والتدقيق والموازنة ازددتُ بذاك يقيناً وبصيرة .وانتهيت إلى حقيقة مسلّمة بالنسبة إليّ وهي أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من كلام البشر وأن الخلق أولهم وآخرهم لو اجتمعوا على أن يفعلوا مثل ذلك ما قدروا عليه ولا قاربوا. وأنا لا أطلب من القارئ أن يسلّم بهذه الحقيقة فإن هذا طلبٌ لا مطمع منه لمجرد القول والأدعاء، وإنما الذي أطلبه منه أن يخلع عنهُ جلباب العصبية وينظر بروح علمية مجردة .وأنا لا أشك في أنه سيصل إلى ما وصلتُ إليه. صحيح أن كثيراً من الناس ليس لديهم اطلاع على المسلّمات اللغوية وليس لديهم معرفة بأحكام اللغة وأسرارها ومن الصعب أن يهتديَ هؤلاء إلى أمثال هذه المواطن من غير دليل يأخذ بأيديهم يدلّهم على مواطن الفن والجمال ويُبصّرهم بأسرار التعبير ويوضح لهم ذلك بأمثلة يَعُونَها ويفهمونها .وهذا الكتاب أحسبه من هذا النمط فما هو إلا دليل يشير إلى شيء من مواطن الفن والجمال ويبصّر بقسم من أسرار التعبير. أنا لا أقول إني وضعت الكتاب بعيداً من العصبية والهوى وإن كان يخيّل إليّ أني فعلت ذاك، ولا أفترض أن القارئ سيسلّم بكل ما يجده فيه ولا أطلب منه ذاك ولكني أدعو القارئ أن يقرأ بعقل متفتح وقلب يقظان وأن يصبر على ما لم يسبق له به علم من أمور اللغة حتى يَعِيَها وذلك ليس بأمر عسير. وأظنه متى فعل ذلك سيبصر ما أبصرناه وينتهي إلى ما انتهينا إليه.

تقديم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً والصلاة والسلام على رافع لواء الهدى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والداعين بدعوته وبعد:
فقد كنت أسمع من يقول :إن القرآن معجز وإنه أعلى كلام وإنه لا يمكن مجاراته أو مداناته وأن الخلق أجمعين لو اجتمعوا على أن يقولوا مثله ما استطاعوا .وقد قرأت في كثير من الكتب نحواً من هذا القول .وكنت آرى في هذا غلواً ومبالغة، دفع القائلين به حماسُهم الديني وتعصبهم للعقيدة التي يحملونها .وكنت أقرأ كثيراً من التعليلات التي يستدل بها أصحابها على سمو هذا التعبير كارتباط الآيات ببعضها وارتباط فواتح السور بخواتيمها وارتباط السور بعضها ببعض واختيار الألفاظ دون مرادفاتها ونحو ذلك فلا أراها علمية وأجد كثيراً منها متكلفاً، وكنت أقول :إنه لو كان التعبير على غير ذلك لعلّلوه أيضاً فإن الإنسان لا يعدم تعليلاً لما يريد، إلا أنه بمرور الزمن وبعد اطلاعي على مؤلفات أحسبها غير قليلة في كُتب اللغة والتفسير والإعجاز والبلاغة ونحوها - وذلك بحكم اختصاصي - بدأت أميل إلى تصديق هذه المقولة، فقد اتضح لي أن قسماً غير قليل مما كُتبَ بروح علمية عالية وإن كان كثير مما كُتب لا أزال أراه الآن كما كنت أراه من قبلُ.
ثم قررت أن أدرس النص القرآني بنفسي فبدأت أُجري موازنات بين كثير من الآيات من حيث التشابه والاختلاف في التعبير، والتقديم والتأخير، والذكر والحذف وما إلى ذلك من أمور لغوية وبلاغية ومعنوية وأفحصها فحصاً دقيقاً فراعني ما رأيت من الدقة في التعبير والإحكام في الفن والعلو في الصنعة .وجدتُ تعبيراً فنياً مقصوداً حُسِبَ لكل كلمة فيه حسابُها بل لكل حرف بل لكل حركة.
وكلما أمعنت النظر والتدقيق والموازنة ازددتُ بذاك يقيناً وبصيرة .وانتهيت إلى حقيقة مسلّمة بالنسبة إليّ وهي أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من كلام البشر وأن الخلق أولهم وآخرهم لو اجتمعوا على أن يفعلوا مثل ذلك ما قدروا عليه ولا قاربوا.
وأنا لا أطلب من القارئ أن يسلّم بهذه الحقيقة فإن هذا طلبٌ لا مطمع منه لمجرد القول والأدعاء، وإنما الذي أطلبه منه أن يخلع عنهُ جلباب العصبية وينظر بروح علمية مجردة .وأنا لا أشك في أنه سيصل إلى ما وصلتُ إليه.
صحيح أن كثيراً من الناس ليس لديهم اطلاع على المسلّمات اللغوية وليس لديهم معرفة بأحكام اللغة وأسرارها ومن الصعب أن يهتديَ هؤلاء إلى أمثال هذه المواطن من غير دليل يأخذ بأيديهم يدلّهم على مواطن الفن والجمال ويُبصّرهم بأسرار التعبير ويوضح لهم ذلك بأمثلة يَعُونَها ويفهمونها .وهذا الكتاب

أحسبه من هذا النمط فما هو إلا دليل يشير إلى شيء من مواطن الفن والجمال ويبصّر بقسم من أسرار التعبير.
أنا لا أقول إني وضعت الكتاب بعيداً من العصبية والهوى وإن كان يخيّل إليّ أني فعلت ذاك، ولا أفترض أن القارئ سيسلّم بكل ما يجده فيه ولا أطلب منه ذاك ولكني أدعو القارئ أن يقرأ بعقل متفتح وقلب يقظان وأن يصبر على ما لم يسبق له به علم من أمور اللغة حتى يَعِيَها وذلك ليس بأمر عسير.
وأظنه متى فعل ذلك سيبصر ما أبصرناه وينتهي إلى ما انتهينا إليه. نسأله تعالى أن يلهمنا الرشد ويجنبنا الزلل إنه سميع مجيب.
فاضل السامرائي

التعبير القرآني

لا خلاف بين أهل العلم أن التعبير القرآني تعبير فريد في عُلُوِّهِ وسُمُوِّهِ وأنه أعلى كلام وأرفعه .وأنه بهر العرب فلم يستطيعوا مداناته والإتيان بمثله مع أنه تَحدَّاهم أكثر من مرة.
لقد تحدى القرآنُ العرب ثم جميع الخلق بأن يأتوا بمثله ثم أخبر أنهم لن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .فقد تحداهم أولاً بأن يأتوا بعشر سور مثله إن كانوا يرون أنه مفترى فقال :"أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فاعلموا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ الله وَأَن لاَّ إلاه إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ" "هود :١٣-١٤".
فلما انقطعوا وقامت الحجة عليهم تحداهم بأن يأتوا بسورةٍ من مثله وأخبر أنهم لن يفعلوا فانقطعوا أيضاً وقامت الحجة عليهم، قال تعالى :"وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وادعوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ الله إِنْ كُنْتُمْ صادقين * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فاتقوا النار التي وَقُودُهَا الناس والحجارة أُعِدَّتْ للكافرين" "البقرة :٢٣-٢٤".
وأكّد التحدي بقوله :"قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هاذا القرآن لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً" "الإسراء :٨٨".
دعا القرآن العرب إلى أن يأتوا بسورة من مثله ويشمل هذا التحدي قِصارَ السور كما يشمل طوالها فهو تَحدَّاهم بسورة الكوثر والإخلاص والمعوذتين والنصر ولإيلاف قريش أو أية سورة يختارونها، ومن المعلوم أن العرب لم يحاولوا أن يفعلوا ذلك فقد كانوا يعلمون عجزهم عنه، ورأوا سبيل الحرب والدماء وتجميع الأحزاب أيسر عليهم من مقابلة تحدي القرآن.

ومن الثابت أن القرآن الكريم كان يأخذهم بروعة بيانه وأنهم لا يملكون أنفسهم عن سماعه ولذلك سعوا إلى أن يحولوا بين القرآن وأسماع الناس .سعوا إلى أن لا يصل إلى الأذن لأنهم يعلمون أن مجرد وصوله إلى السمع يُحْدِثُ في النفس دَوِيّاً هائلاً وهِزَّة عنيفة وقد حكى الله عنهم هذا الأسلوب فقال :"وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهاذا القرآن والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ" "فصلت :٢٦".

وكان صناديد قريش وأعتاهم محاربةً للرسول وأشدهم كيداً له ونيلاً منه لا يملكون أنفسهم عن سماعه، فقد كان كل من أبي جهل وأبي سفيان والأخنس بن شريق يأخذ نفسه خِلْسةً لسماعه في الليل والرسول في بيته لا يعلم بمكانهم ولا يعلم أحد منهم بمكان صاحبه حتى إذا طلع الفجر تفرقوا حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا وقال بعضهم لبعض :لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا .حتى إذا كنت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة ثم انصرفوا .حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض :لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .وقد أخبر الله نبيه بهذا الأمر فقال :"نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نجوى إِذْ يَقُولُ الظالمون إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً" "الإسراء :٤٧".

وما قول الوليد بن المغيرة بِسِرٍّ .فقد اجتمع إليه نفر من قريش ليُجمعوا على رأي واحد يصدرون عنه يقولونه للناس في الموسم فقال
بعضهم :شاعر، وقال بعضهم :كاهن، وقال بعضهم :ساحر، وقال
بعضهم :مجنون .فكان يرى هذه الأقوال ويُفَنِّدها ثم قال: "والله إنَّ لقوله حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه ليعلو وما يُعلى عليه."

إن التعبير القرآني تعبير فني مقصود .كل لفظة بل كل حرف فيه وُضِعَ وضعاً فنياً مقصوداً، ولم تُراعَ في هذا الموضع الآية وحدها ولا السورة وحدها بل رُوعي في هذا الوضع التعبير القرآني كله.

لقد انتبه القدماء إلى أن السور التي بدأت بالحروف المفردة بنيت على ذلك الحرف، فإن الكلمات القافيّة ترددت في سورة "ق" كثيراً والكلمات الصاديّة ترددت في سورة "ص" كثيراً وهكذا.

جاء في "ملاك التأويل" في السور التي تبدأ بالأحرف المقطعة" :إن هذه السور إنما وقع في أول كل سورة منها ما كثر تَردادهُ فيما تركب من كَلِمها .ويوضحُ لك ما ذكرت أنك إذا نظرت في سورة منها بما يماثلها في عدد كلمها وحروفها وجدت الحرف المفتتحَ بها تلك السورة إفراداً وتركيباً أكثر عدداً في كلمها منها نظيرتها ومماثلتها في عدد كلمها وحروفها."

واستندوا إلى الإحصاء، جاء في "ملاك التأويل" عن سبب بدء
سورة "لقمان" بـ "ألم" وسورة يونس بـ "ألر"" : أنَّه تكرر في سورة يونس
من الكلام الواقع فيها الراء مائتا كلمة وعشرون كلمة أو نحوها .وأقرب السور
إليها مما يليها بعدها من غير المفتتحة بالحروف المقطعة سورة النحل وهي
أطول منها .والوارد فيها مما تركب على الراء من كَلِمها مائتا كلمة مع زيادتها
في الطول عليها."
وانتبهوا إلى شر آخر وهو أن عدد هذه الحروف أربعة عشر حرفاً أي بمقدار
نصف حروف المعجم ترددت في تسع وعشرين سورة على عدد حروف
المعجم .ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشرة حرفاً وجدتها مشتملة على
أنصاف أجناس الحروف .وبيان ذلك أن فيها من الحروف المهموسة
نصفها، ومن المجهورة نصفها، ومن الشديدة نصفها، ومن الرخوة نصفها، ومن
المطبقة نصفها، ومن المنفتحة نصفها، ومن المستعملة نصفها، ومن
المنخفضة نصفها، ومن حروف القلقلة نصفها، وقد ذكر من هذه الأنصاف ما
هو كثير الدوران في الكلام، فسبحان الذي دَقَّتْ في كل شيء حِكمتُه.
وليس هذا كل شيء في الإحصاء بل هناك شيء آخر وربما أشياء .أفلم تقرأ
الإحصاءات الأخرى في كتاب الله العزيز لترى العجب؟
لقد تبين أنه لم توضع الألفاظ عبثاً ولا من غير حساب، بل هي موضوعة وضعاً
دقيقاً بحساب دقيق دقيق.
لقد تبين:
أن "الدنيا" تكررت في القرآن بقدر "الآخرة" فقد تكرر كُلٌّ منهما ١١٥ مرة.
وأن "الملائكة" تكررت بقدر "الشياطين" فقد تكرر كل منهما ٨٨ مرة.
وأن "الموت" ومشتقاته تكرر بقدر "الحياة" فقد تكر كل منهما ١٤٥
مرة .وهل الموت إلا للأحياء؟
وأن "الصيف" والحر تكررا قدر لفظ "الشتاء" والبرد فقد تكرر كل منهما
خمس مرات.
وأن لفظ "السيئات" ومشتقاتها تكرر بقدر لفظ "الصالحات" ومشتقهاتها فقد
تكرر كل منهما ١٦٧ مرة.
وأن لفظ "الكفر" تكرر بقدر لفظ "الإيمان" فقد تكرر كل منهما ١٧ مرة.
وتكرر لفظ "كفراً" بقدر لفظ "إيماناً" فقد تكرر كل منهما ثماني مرات.
وأنه تكرر ذكر "إبليس" بقدر لفظ الاستعاذة فقد تكرر كل منهما ١١ مرة.
وأن ذكر "الكافرين" تكرر بنفس عدد النار .وهل النار إلا للكافرين؟
وأن ذكر "الحرب" تكرر بعدد الأسرى .وهل الأسرى إلا من أوزار الحرب؟
وأن لفظ "قالوا" تكرر ٣٣٢ مرة" ومن عجبٍ أن يتساوى هذا مع
لفظ "قل" الذي هو أمرٌ من الله إلى خلقه، فسبحان من قال "قل" ٣٣٢ مرة
فكان القول ٣٣٢ مرة."
وأن لفظ "الشهر" تكرر ١٢ مرة بعدد الشهور السنة.

وأن لفظ "اليوم" تكرر ٣٦٥ يوم بعدد أيام السنة.
وأن لفظ "الأيام" تكرر ٣٠ مرة بعدد أيام الشهر.
وقد تقول :ولِمَ لم يعكس فيذكر اليوم ثلاثين مرة بقدر أيام الشهر
و "الأيام" ٣٦٥ مرة بقدر أيام السنة؟
والجواب أن العرب تستعمل الجمع تمييزاً لأقل العدد وهو ثلاثة إلى عشرة فتقول :ثلاثة رجال، وأربعة رجال، وعشرة رجال .فإن زاد على العشرة وصار كثرة جاءت بالمفرد فتقول :عشرون رجلاً .مائة رجل، وألف رجل .فالجمع يوقعونه تمييزاً للقلة والمفرد يقعونه تمييزاً للكثرة.
وكثيراً ما يوقعون المفرد للكثرة بخلاف الجمع من ذلك الوصف بالمفرد والوصف بالجمع.
فالوصف بالمفرد يدل على الكثرة، والوصف بالجمع يدل على القلة فقولك "أشجار مثمرات" يدل على أن عدد الشجرات قليل بخلاف ما لو قلت "أشجار مثمرة" فإنه يدل على أن الأشجار كثيرة.
ويوقعون ضمير المفرد للكثرة وضمير الجمع للقلة .ألا ترى أن قولك" :الرماح تَكسّرن "يعني أن الرماح قليلة وذلك لمجيء نون النسوة بخلاف قولك" :الرماح تكسَّرتْ "فإنها تعني أن الرماح كثيرة .والنون في الأصل للجمع والتاء للمفرد.
ألا ترى في قوله تعالى :"إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ الله يَوْمَ خَلَقَ السماوات والأرض مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلك الدين القيم فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ" "التوبة :٣٦".
كيف لما قال :"إثنا عشر شهراً" قال :"منها" . لما قال :"أربعة" قال :"فيهن" فاستعمال المفرد "منها" للكثرة والجمع "فيهن" للقلة .وغير ذلك.
فهو جرى على سنن كلام العرب في التعبير .والقرآن أُنزل بلسان عربي مبين وغير ذلك وغيره .فأي إعجاز هذا أيها الناس !أي إعجاز هذا أيها العلماء !أي إعجاز هذا أيها المفتونون بالعلم!
ومن يدري ماذا سيجدُّ بعد في دراسات القرآن الكريم وماذا سيرى الناس من عجائبه؛ فإن هذا الكتاب كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" :لا تنقضي عجائبه ولا يَخلَقُ من كثرة الرد"
ثم إن القرآن له خصوصيات في استعمال الألفاظ :فقد اختص كثيراً من الألفاظ باستعمالات خاصة به مما يدل على القصد الواضح في التعبير فمن ذلك أنه:
استعمل "الرياح" حيث وردت في القرآن الكريم في الخير والرحمة، واستعمل "الريح" في الشر والعقوبات قال تعالى :"وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياح بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ" "الأعراف :٥٧" وانظر الفرقان "٤٨" والنمل "٦٣".

وقال :"وَمِنْ آيَاتِهِ آن يُرْسِلَ الرياح مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن
رَّحْمَتِهِ" "الروم :٤٦".
في حين قال :"كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظلموا أَنْفُسَهُمْ
فَأَهْلَكَتْهُ" "آل عمران :١١٧" . وقال :"رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ
أَلِيمٌ" "الأحقاف :٢٤" . وقال :"فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ
عَاتِيَةٍ" "الحاقة :٦" . وغير ذلك وغيره.
ولم يستعمل الريح في الخير إلا في موطن واحد أعقبها بالشر وهو قوله
تعالى :"إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ
عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ" "يونس :٢٢" وهي خاتمة غير حميدة.
ومن ذلك ذِكْرُ المطر فإنك" لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام
بخلاف الغيث الذي يذكره القرآن في الخير .قال تعالى :"وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَراً فَسَآءَ مَطَرُ المنذرين" "النمل :٥٨" وانظر
الشعراء "١٧٣" . وقال "وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَراً فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
المجرمين" "الأعراف :٨٤" . وقال :"وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى القرية التي أُمْطِرَتْ مَطَرَ
السوء" "الفرقان :٤٠".
في حين قال :"وَهُوَ الذي يُنَزِّلُ الغيث مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ
الولي الحميد" "الشورى :٢٨" . وقال :"ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذلك عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ
الناس وَفِيهِ يَعْصِرُونَ" "يوسف :٤٩".
ومن ذلك ما اختص به القرآن الكريم في استعمال العيون والأعين .فلم
يستعمل العيون إلا لعيون الماء .وقد وردت كلمة "العيون" في القرآن الكريم
في عشرة مواطن كلها بمعنى عيون الماء من مثل قوله تعالى :"فِي جَنَّاتٍ
وَعُيُونٍ" "الحجر :٤٥" وقوله :"فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ" "المرسلات :٤١".
في حين جمع العين الباصرة على أعين مثل قوله تعالى :"الذين كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ
فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي" "الكهف :١٠١" وقوله :"سحروا أَعْيُنَ
الناس" "الأعراف :١١٦" وقوله :"ترى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ
الدمع" "المائدة :٨٣".
ومن ذلك استعمال "وصى" و "أوصى" فكل ما ورد فيه من "وصّى" بالتشديد
فهو في الدين والأمور المعنوية، وكل ما ورد من "أوصى" فهو في الأمور
المادية.
قال تعالى :"ووصى بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ الله اصطفى لَكُمُ الدين
فَلَا تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ" "البقرة :١٣٢" وقال :"شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا
وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ
أَقِيمُواْ الدين وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ" "الشورى :١٣" وقال :"وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الذين أُوتُواْ
الكتاب مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتقوا الله" "النساء :١٣١".
في حين قال :"يُوصِيكُمُ الله في أولادكم لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ
الأنثيين" "النساء :١١" وهو في المواريث .وقال :"مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ

دَيْنٍ" "النساء :١١".
وهي كما ترى كلها في الأمور المادية.
ولم ترد "أوصى" في القرآن الكريم للأمور المعنوية إلا في موطن واحد اقترنت فيه بأمر مادي وهو قوله تعالى :"وَأَوْصَانِي بالصلاة والزكاة مَا دُمْتُ حَيّاً" "مريم :٣١" فإنه قال "أوصاني" لما اقتنرت الصلاة بالزكاة والزكاة أمر مادي يتعلق بالأموال كما هو معلوم.
ومن ذلك قوله تعالى :"يشاقّ" و "يشاقق" وهما لغتان :الفَكُّ لغةُ الحجاز والإدغام لغة تميم، ولكن القرآن استعملهما استعمالاً خاصاً فحيث ورد ذكر الرسول فك الإدغام .وحيث لم يرد ذِكْرُ الرسول بل ورد ذكر الله وحده أدغم .قال تعالى :"ذلك بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ الله وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ الله وَرَسُولَهُ فَإِنَّ الله شَدِيدُ العقاب" "الأنفال :١٣".
وقال :"وَمَن يُشَاقِقِ الرسول مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهدى" "النساء :١١٥" في حين قال "ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ الله وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَآقِّ الله فَإِنَّ الله شَدِيدُ العقاب" "الحشر :٤".
ولعله وحّد الحرفين وأدغمهما في حرف واحد لأنه ذكر الله وحده وفكّهما وأظهرهما لأنه ذكر الله والرسول فكانا اثنين.
وخصوصيات الاستعمال القرآني كثيرة لا نريد أن نستقصيها الآن ولكن أردنا فقط أن نضرب أمثلة على ذلك لنتبين "القصد" والدقة في اختيار ألفاظ القرآن.
ومع هذا الاستعمال الرياضي الإحصائي العجيب للألفاظ فالتعبير القرآني هو في قمة الأدب والفن.
فإنك إذا نظرت إلى أيِّ ضَرْبٍ من ضروب التعبير فيه وجدته وحدة متكاملة ليس فيها نُبوٌّ ولا اختلاف.
فإذا نظرت إلى التوكيد مثلاً وجدته على تباعد مواطنه وتفرقها في القرآن وحدة فنية متكاملة متناسباً في كل موطن مع السياق الذي ورد فيه منسقاً معه ومنسقاً مع كل المواطن الأخرى التي ورد فيها التوكيد.
فالقرآن قد يؤكد بـ "إنّ" وحدها مثلاً، أو قد يؤكد باللام أو يجمع بينهما، ولو أنعمت النظر لوجدت أن كل موضع يقتضي التعبير الذي عبر به فلا يصح أن تزاد اللام في الموضع المنزوع منه ولا تحذف في موطن الذِّكْرِ أينما وردت في القرآن وكذلك "إنّ" ونحوها.
فهو يقول مثلاً :"إن الله شديد العقاب" مؤكداً بإن وحدها في مواطن عديدة من القرآن.
ويقول :"وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العقاب" "الرعد :٦" مؤكداً بإن واللام.
ويقول :"والله شَدِيدُ العقاب" "آل عمران :١١" بلا توكيد.
ويقول :"والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ" "البقرة :٢١٨" بلا توكيد في مواضع متعددة تبلغ ثلاثة عشر موضعاً.

ويقول :"إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ" "البقرة :١٧٣" مؤكداً بإن في أكثر من عشرين موضعاً.
ويؤكد بإن واللام في مواضع أخرى متعددة.
ويحذف ويؤكد في تعبيرات أخرى تبلغ المئات وهو يراعي في كل ذلك الدقة في التعبير ووضع كل لفظ في مكانه حسبما يقتضيه السياق بحيث لا يصح وضع تعبير مُؤكَّد في مكان غير مؤكد، ولا ما أُكِّد بأكثر من مؤكد في موطن أُكد بمُؤكدٍ واحد.
وكذا الأمر في غير "إنّ" فهو يقول مثلاً :"وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وترحمني أَكُن مِّنَ الخاسرين" "هود :٤٧" بلا توكيد.
ويقول مرة أخرى :"وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين" "الأعراف :٢٣" بتوكيد الجواب.
ويقول مرة ثالثة :"لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين" "الأعراف :١٤٩" بتوكيد الجواب وبذكر اللام الموطئة قبل الشرط، كل ذلك حسبما يقتضيه الموطن والسياق، ولا يصح البتة وضع آية من هذه الآيات في غير سياقها وموطنها كما سنبين ذاك.
فلو نظرت إلى التوكيد في القرآن لوجدته لوحة فنية عالية متناسقة على سعة التوكيد واختلاف المؤكدات وتنوعها.
وقُلْ مثل ذلك عن الاستفهام.
فهو قد يستفهم مرة بالهمزة ومرة بـ "هل" فهو مرة يقول :"قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّن ذلك مَثُوبَةً عِندَ الله" "المائدة :٦٠".
ومرة يقول :"أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذلكم" "الحج :٧٢".
ومرة يستفهم بـ "ما" ومرة بـ "ماذا" والقصة واحدة .فيقول مرة في إبراهيم عليه السلام :"إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ" "الشعراء :٧٠".
ويقول :مرة أخرى :"إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ" "الصافات :٨٥" وغير ذلك وغيره.
وقُلْ مثل ذلك عن التقديم والتأخير.
فهو قد يُقدِّمُ كلمةً في مكان ويُؤخِّرها في مكان .أو يقدم عبارة في مكان ويؤخرها في مكان فهو يقدم "السماء" على "الأرض" مرة، ومرة يقدم "الأرض" على السماء، ومرة يقدم "الإنس" على "الجن" ، ومرة يقدم "الجن" على "الإنس" . ومرة يقدم "الركوع" على "السجود" ومرة يقدم "السجود" على "الركوع" فهو مرة يقول :"ياأيها الذين آمَنُواْ اركعوا واسجدوا وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ" "الحج :٧٧" ومرة أخرى يقول :"يامريم اقنتي لِرَبِّكِ واسجدي واركعي مَعَ الراكعين" "آل عمران :٤٣".
ويقول مرة :"لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ على شَيْءٍ" "إبراهيم :١٨".
ويقول مرة أخرى :"لاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ" "البقرة :٢٦٤".

وهو قد يذكر كلمة أو عبارة في موطن لا يذكرها في موطن آخر يبدو شبيهاً به فهو يقول مثلاً في موطن :"وَلَا يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ القيامة وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" "البقرة :١٧٤" ويقول في موطن آخر :"وَلَا يُكَلِّمُهُمُ الله وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القيامة وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" "آل عمران :٧٧" فيزيد عبارة "ولا ينظر إليهم" . وغير ذلك وغيره.
كل ذلك يضعه وضعاً فنياً في غاية الروعة والجمال.
ثم هو يجمع بين ضروب القول المختلفة ويُؤلِّفُ بينها في حشدٍ فني عجيب لا يملك العارف بشيءٍ من أسرار التركيب إلا أن يسجد لصاحب هذا الكلام إجلالاً وخشوعاً "الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ذَلِكَ هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ" "الزمر :٢٣".
لقد دُرِسَ التعبيرُ القرآني دراساتٍ مستفيضة وأُولِيَ من النظر ما لم يَنَلْهُ نصٌّ آخر في الدنيا.
فقد دُرِسَ من حيث تصويره الفني فكان أجمل تصوير وأبرع لوحة فنية .ودرس من حيث نظمه وموسيقاه فكان أروع عقد منظوم وأعذب قطعة فنية موسيقية .وهل يشك أحد في فخامة نظمه وحلاوة موسيقاه وعذوبة جرسه وحسن اختيار ألفاظه وجمال وقع آياته؟!
ودُرسَ تناسبُ سورهِ سورةً سورة، وتناسب آياته آية آية، وتناسب فواتح السور وخواتمها، فكان قطعة فينة واحدة محكمة الربط فخمة النسج، وكان كما قال الفخر الرازي :إن القرآن كالسورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض بل هي كالآية الواحدة.
ودرس من حيث إعجازه فكانت جوانب إعجازه لا تحصى .أَهُوَ في أسلوبه وتعبيره، أم هو في تشريعه وفقهه، أم في معالجته جوانب الحياة المختلفة على أكمل وجه وأبهى صورة، أم هو في إخباره عن الأمم الماضية والأقوام البائدة .أم هو في إخباره عما سيقع .أم هو فيما قرره من حقائق علمية وكونية يكتشف الناس على مدى الدهر قسما منها، أم هو فيما وضعه من قواعد وأصول التربية ومعرفته بأدواء القلوب والنفوس .أما هو فيما ذكره من سنن التاريخ والخلق أو فيما ذكره من أصول علم الاجتماع أو غير ذلك وغيره .أم هو في كل ذلك وأشياء أخرى فوق ذلك؟!
أهو كتاب لغة أم كتاب أدب أم كتاب تشريع أم كتاب اقتصاد أم كتاب تربية أم كتاب تاريخ أم كتاب اجتماع أم كتاب سياسة أم كتاب عقائد أم هو كل ذلك وفوق ذلك؟!
عجيب أمر هذا الكتاب!
يراه الأديبُ معجزاً ويراه اللغوي معجزاً، ويراه أرباب القانون والتشريع معجزاً، ويراه علماء الاقتصاد معجزاً، ويراه المربون معجزاً، ويراه علماء

النفس والمَعْنيون بالدرسات النفيسة معجزاً، ويراه علماء الاجتماع معجزاً، ويراه المصلحون معجزاً، ويراه كل راسخٍ في علمه معجزاً.
لقد كشف لهم وهم يبحثون في وجوه إعجازه عن بحار ليس لها ساحل، وغاصوا في لُجَجٍ ليس لها قعر، وكُلٌّ عاد بلؤلؤةٍ كريمة أو عقد نظيم، وبقيت ثُمَّةَ خزائن تفوق الحصر لم يَلِجها الوالجون وكنوز لا يطيقها إحصاء، لم تمتد إليها الأيدي، تفنى الدنيا ولا تفنى، ويبلى كل جديد ولا تبلى .فيها من عجائب صنع الله ما لو اطّلعتَ عليه لم تعرف كيف تصنع ولا سْتبَدَّ بكَ عَجَبٌ لا ينتهي وتمكن منك انبهار لا ينقضي .ومفتاحُ ذلك تَدَبُّرهُ والنظرُ فيه.
فامنحه شيئاً من التدبر والنظر يمنحك من أسراره ما لم يكن منك ببال .إنه يعطيك أضعاف ما تعطيه.
إن هذا الكتاب يمنحُ مَنْ نظر فيه وتدبره خزائن بغير حساب ويفتح الله عليه من ألطافه ما يَجِلُّ عن الوصف فلا تُضيِّع هذه الصفقة الرابحة وإلا فأنت والله مغبون.
أأدركتَ الآن سر قوله تعالى :"أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القرآن أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ" "محمد :٢٤".
أمّا أنهم لو تدبروه لَفُتحت أقفال القلوب ولان ما كان عصيّاً من الأفئدة، وَلأُوقدت مصابيح عهدُها بالنور بعيد، وأشرقت دروب لم يسقط عليها فيما مضى نور، ولحيت نفوس ما عرفت قبل ذلك حياة.
ألم يُسَمِّهِ اللهُ نوراً فقال :"وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً" "النساء :١٧٤".
أولم يُسَمِّه الله روحاً فقال :"وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلَا الإيمان ولاكن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لتهدي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" "الشورى :٥٢" ؟
فهو روح ونور - وهل بعد ذلك شيء !وهل قبله شيء!
ليت شعري هل يفقه الناس؟
ألا ليت الناس يفقهون.

البنية في التعبير القرآني

يستعمل القرآن الكريم بُنيةَ الكلمة استعمالاً في غاية الدقة والجمال:
١ -فمن ذلك استعمال الفعل والاسم .فمن المعلوم أن الفعل يدل على الحدوث والتجدد والاسم يدل على الثبوت تقول :هو يتعلم وهو متعلم .فـ "يتعلم" يدل على الحدوث والتجدد أي :هو آخذٌ في سبي التعلم بخلاف :"متعلم" فإنه يدل على أنَّ الأمر تم وثبت وأن الصفة تمكنت في صاحبها .ومثله :هو يجتهد ومجتهد.
وربما كان الأمر لم يحدث بعد ومع ذلك يؤتى بالصغية الاسمية للدلالة على أن الأمر بمنزلة الحاصل المستقر الثابت وذلك نحو قولك :أتراه سيفشل في مهمته؟ فتقول :هو فاشل وذلك لوثوقك بما قررته أي :كأن الأمر تم وحصل وإن لم يحدث فعلاً، ومن هذا الضرب قوله تعالى :"إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً" "البقرة :٣٠" . فهو لم يجعله بعد ولكن ذكره بصيغة اسم الفاعل للدلالة على أن الأمر حاصل لا محالة فكأنه تم واستقر وثبت .ومثله قوله تعالى لنوح عليه السلام :"وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الذين ظلموا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ" "هود :٣٧" فلم يقل :سأغرقهم أو إنهم سيغرقون .ولكنه أخرجه مخرج الأمر الثابت أي :كأن الأمر استقر وانتهى .ومثله قوله تعالى في قوم لوط عليه السلام :"وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بالبشرى قالوا إِنَّا مهلكوا أَهْلِ هاذه القرية" "العنكبوت :٣١" ولم يقولوا :سنُهلك .فذكرها بالصيغة الاسمية للدلالة على الثبات أي :كأن الأمر انتهى وثبت.
فخلاصة الأمر أن الفعل يدل على الحدث والتجدد والاسم يدل على الثبوت والاستقرار .وقد استعمل القرآن الفعل والاسم استعمالاً فنياً في غاية الفن والدقة.
فمن ذلك قوله تعالى :"يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحي ذلكم الله فأنى تُؤْفَكُونَ" "الأنعام :٩٥" . فاستعمل الفعل مع الحي فقال :"يخرج" واستعمل الاسم مع الميت فقال :"مخرج" وذلك لأن أبرز صفات الحي الحركة والتجدد فجاء معه بالصغية الفعلية الدالة على الحركة والتجدد، ولأن الميت في حالة همود وسكون وثبات جاء معه بالصغية الاسمية الدالة على الثبات فقال :"وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحي" "الأنعام :٩٥".
وقد تقول :ولماذا قال في سورة آل عمران :"وَتُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَتُخْرِجُ الميت مِنَ الحي" "آل عمران :٢٧" بالصيغة الدالّة على التجدد في الموطنين؟
فنقول :إنَّ السياق في آل عمران يختلف عنه في الأنعام، وذلك أن السياق في آل عمران وهو في التغيير والحدوث والتجدد عموماً، فالله سبحانه يؤتي مُلْكه

مَنْ يشاء أو ينزعه منه، ويُعِزُّ من يشاء أو يُذِله، ويغير الليل والنهار، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وغير ذلك من الأحداث، فالسياق كله حركة وتغيير وتبديل فجاء بالصغية الفعلية الدالة على التحدد والتغيير والحركة.
قال تعالى :"قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الخير إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ الليل فِي النهار وَتُولِجُ النهار فِي الليل وَتُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَتُخْرِجُ الميت مِنَ الحي وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ" "آل عمران :٢٦-٢٧".
في حين أن السياق في سورة الأنعام مختلف وليس السياق في التغييرات وإنما هو في صفات الله تعالى وقدرته وتفضله على خلقه.
قال تعالى :"إِنَّ الله فَالِقُ الحب والنوى يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحي ذلكم الله فأنى تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الإصباح وَجَعَلَ الليل سَكَناً والشمس والقمر حُسْبَاناً ذلك تَقْدِيرُ العزيز العليم" "الأنعام :٩٥-٩٦".
فأنت ترى أنه بدأ الآية بالجملة الاسمية وكان مُسْنَدها اسماً أيضاً ثم جاء بعده باسمين آخرين هما "مخرج الميت" و "فالق الإصباح" ثم ذكر أنه "يخرج الحي" بالصورة الفعلية لما ذكرت من حركة الحي بخلاف ما في الآية آل عمران من دلالة على التغير والحركة .فالسياق مختلف ولذا تتوالى الأفعال في هذه الآية، فوضع كل صغية في المكان اللائق بها.
ومن ذلك قوله تعالى :"وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الهدى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامتون" "الأعراف :١٩٣".
"فَفرَّقَ بين طرفي التسوية فقال :"أدعوتموهم" بالفعل ثم قال :"أم أنتم صامتون" بالاسم ولم يسوِّ بينهما فلم يقل :أدعوتموهم أم صمتّم بالفعلية .أو :أأنتم داعوهم أم صامتون.
وذلك أن الحالة الثابتة للإنسان هي الصمت وإنما يتكلم لسبب يعرض له .ولو رأيت إنساناً يكلم نفسه لاتَّهمته في عقله .فالكلام طارئ يحدثه الإنسان لسبب يعرض له ولذا لم يسوِّ بينهما بل جاء للدلالة على الحالية الثابتة بالاسم :"صامتون" وجاء للدلالة على الحال الطارئة بالفعل :"دعوتموهم" أي :أأحدثتم لهم دعاء أم بقيتم على حالكم من الصمت ."جاء في "الكشاف" في هذه الآية" :إن قيل :هلا قيل :أم صَمَتُّم؟ ولِمَ وضعت الجملة الاسمية موضع الفعلية.
قلت :لأنهم كانوا إذا حَزَبَهم أمر دعوا الله دون أصنامهم ..فكانت حالتهم أن يكونوا صامتين عن دعوتهم .فقيل :إن دعوتموهم لم تفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم."
ومن ذلك قوله تعالى :"ذلك أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غافلون" "الأنعام :١٣١".
وقوله :"وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْم وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ" "هود :١١٧".

فقد جاء في الآية الأولى بالصغية الاَسميةً "مهلك" وفي الثانية بالصيغة الفعلية "ليهلك" وذلك أن الآية الأولى في سياق مشهد من مشاهد يوم القيامة عمّا كان في الدنيا قال تعالى :"وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يامعشر الجن قَدِ إستكثرتم مِّنَ الإنس وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإنس رَبَّنَا استمتع بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا الذي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النار مثواكم خالدين فِيهَآ إِلاَّ مَا شَآءَ الله إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وكذلك نُوَلِّي بَعْضَ الظالمين بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ * يامعشر الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هاذا قَالُواْ شَهِدْنَا على أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا وَشَهِدُواْ على أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ * ذلك أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غافلون" "الأنعام :١٢٨-١٣١".
فقد ذكر صفة الله وهو أنه لم يهلك قوماً بظلم وهم غافلون لم يُكَلَّفُوا وليم يأتهم رسل ينذرونهم .فالذين لم ينذروا غافلون قال تعالى :"لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ" "يس :٦" . فهو في سياق أمرٍ ثبتَ واستقرَّ وانتهى فجاء بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت.
في حين أن الكلام في سورة هود على هذ الحياة وشؤونها وذكر سنة الله في الأمم قال تعالى :"فاستقم كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلاَ تركنوا إِلَى الذين ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النار وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ * وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار وَزُلَفاً مِّنَ اليل إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ذلك ذكرى لِلذَّاكِرِينَ * واصبر فَإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين * فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ القرون مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفساد فِي الأرض إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ واتبع الذين ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ" "هود :١١٢-١١٧".
فهو - كما ترى - في سياق الدنيا وسنن البقاء فجاء بالصيغة الفعلية لأن الأمم تَحدثُ وتتجدج وتهلك ويأتي غيرها وهكذا .فجاء بالصيغة الدالة على الحدوث والتجدد "ليهلك" . ثم انظر كيف جاء في الآية الأولى بـ "لم" الدالة على المضي "ذلك أنْ لم يكنْ رَبُّكَ" لأن الأمر حصل وتم في الدنيا فهو ماضٍ بالنسبة إلى الآخرة .وجاء ههنا بلام الجحود التي تدخل على الفعل المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدد فقال :"وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى" "هود :١١٧".
أما ما ختم به كل آية من الآيتين فله كان آخر.
ومثل ذلك قوله تعالى :"وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ" "الأنفال :٣٣".
فقد جاء في صدر الآية بالفعل :"ليعذبهم" وجاء بعده بالاسم :"مُعَذِّبهم" وذلك أنه جعل الاستغفار مانعاً ثابتاً من العذاب بخلاف بقاء الرسول بينهم فإنه - أي العذاب - موقوتٌ ببقائه بينهم .فذكر الحالة الثابتة بالصيغة الاسمية والحالة

الموقوتة بالصيغة الفعلية وهو نظير قوله تعالى :"وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي القرى إِلاّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ" "القصص :٥٩" فالظلم من الأسباب الثابتة في إهلاك الأمم فجاء بالصيغة الاسمية للدلالة على الثبات، ثم انظر كيف جاءنا بالظلم بالصيغة الاسمية أيضاً دون الفعلية فقال :"وأهلها ظالمون" ولم
يقل :"يظلمون" وذلك معناه أن الظلم كان وصفاً ثابتاً لهم مستقراً فيهم غير طارئ عليهم فاستحقوا الهلاك بهذا الوصف السيئ.
فانظر كيف ذكر أنه يرفع العذاب عنهم باستغفارهم، ولو لم يكن وصفاً ثابتاً فيهم، وأنه لا يهلكهم إلا إذا كان الظلم وصفاً ثابتاً فيهم، فإنه جاء بالاستغفار بالصيغة الفعلية "يستغفرون" وجاء بالظلم بالصيغة
الاسمية "ظالمون" . فانظر إلى رحمة الله سبحانه وتعالى بخلقه.
ومن ذلك قوله تعالى في وصف المنافقين :"وَإِذَا لَقُواْ الذين آمَنُواْ قالوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إلى شَيَاطِينِهِمْ قالوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ" "البقرة :١٤".
"فقد فَرَّقَ بين قولهم للمؤمنين وقولهم لأصحابهم فقد خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث "آمنا" ، وخاطبوا جماعتهم بالجملة الاسمية المؤكدة الدالة على الثبوت والدوام "إنّا معكم" ولم يسوِّ بينهما فلم يقولوا :"إنا مؤمنون" كما قالوا :"إنا معكم" وذلك إمّا لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه إذ ليس لهم من عقائدهم باعثٌ ومُحَرِّكٌ، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق ورغبة واعتقاد ... وإما مخاطبة إخوانهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزلوا عنه على صدق رغبة ووفور نشاط وارتياح للمتكلم به وما قالوه من ذلك فهو رائج عنهم متقبل منهم فكان مظنّة للتحقيق وَمِئَنَّةً للتوكيد."
ومن لطيف الاستعمال الفني للفعل والاسم قوله تعالى :"الله الذي جَعَلَ لَكُمُ الليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً" "غافر :٦١".
فاستعمل مع الليل الفعلَ "لستكنوا فيه" ومع النهار الاسم "مبصراً" ولم يسوِّ بينهما فلم يقل :ساكناً ومبصراً ولا لتسكنوا فيه، ولتبصروا فيه مع أن الاستعمال الحقيقي هو :"لتبصروا فيه".
وذلك أنه جمع الحقيقة والمجاز في تعبير واحد ولو جعلهما بصورة تعبيرية واحدة لفاتت هذه المزية الفنية فإنه ذكر نعمة الله علينا في الليل فقال "هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ" "يونس :٦٧" . ولو قال" :هو الذي جعل لكم الليل ساكناً "لم يكن فيه دلالة نعمة على الخلق من ناحية
ولكانت "لكم" هنا زائدة ليس لها فائدة، فهو جاء بـ "لكم" وبالصيغة الفعلية للدلالة على قصد النعمة والتفضل علينا .وعلاوة على ذلك فإنه لو
قال :"ساكناً" لم يكن التعبير مجازياً لأن الليل يصح أن يوصف بالسكون فيقال :ليل ساكن وليل ساجٍ، فتحويله إلى الصيغة الاسمية ليس فيه فائدة معنوية ولا فنية، ولَمَّا تقررت دلالة النعمة في صدر الآية كان العدول إلى التعبير المجازي بعد ذلك كسباً فنياً.

فعدل من الفعل إلى الاسم ومن الحقيقة إلى المجاز العقلي فقال :"والنهار مُبْصِراً" "غافر :٦١" وذلك أن النهار لا يبصر بل يبصر من فيه :فجمع بين التعبير الحقيقي والمجازي ودلّ على المقصد الأول من الآية وهو الدلالة على النعمة بأقرب طريق فكسب المعنى والفن معاً .ولو قال" :لتسكنوا فيه ولتبصروا فيه "لفات التعبير الفني الجميل تعبير المجاز .ولو قال" :ساكناً ومبصراً "لفاتت الدلالة على النعمة التي هي المقصد الأول من هذه الآية .ولو قال" :ساكناً ولتبصروا فيه "لفات المجاز في التعبيرين ولكان التعبير سمجاً لا معنى تحته كما أوضحنا قبل قليل.

فانظر كيف دل على المعنى بأسلوب فني جميل من أخصر طريق وأيسره .فأنت ترى أنه لو وضع الكلام بأية صورة غير الصورة التي عبر بها القرآن ما أدى هذا المؤدى .هذا علاوة على ما في جعلِ النهار مبصراً من جمالٍ وزيادة في المعنى فقد أفاد هذا العدول إلى الاسمية معنيين:

الأول :أننا نبصر فيه كما قيل :ليل نائم والمقصود :نائم أهله.

والمعنى الآخر :أنه جعله مبصراً أيضاً يبصر أعمالنا ويكون شاهداً علينا بالخير والشر فكأن له عينين تُبصران .فنحن نبصر فيه وهو يبصر أيضاً .فانظر إلى جمال هذا التعبير ودقته وروعته .جاء في "الكشاف" في هذه الآية" :فإن قلت :لِمَ قرن الليل بالمفعول له والنهار بالحال؟ وهَلاَّ كانا حالين أو مفعولاً لهما فيراعى حق المقابلة؟

قلت :هما متقابلان من حيث المعنى لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدى الآخر، ولأنه لو قيل" :لتبصروا فيه "فاتت الفصاحةُ التي في الإسناد المجازي .ولو قيل :ساكناً، والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ألا ترى إلى قولهم :ليل ساج وساكن لا ريح فيه، لم تتميز الحقيقة من المجاز."

ومن جميل التعبير بالفعل والاسم ما جاء في سورة "الكافرون" وهو قوله تعالى :"قُلْ ياأيها الكافرون * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلَا أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ" "الكافرون :١-٦".

فأنت ترى أن الرسول نفى عبادة الأصنام عن نفسه بالصيغتين :الفعلية والاسمية "لا أعبد ما تعبدون" و "ولا أنا عابد ما عبدتم" وبالفعلين :المضارع والماضي "تعبدون" و "عبدتم" . ونفى عن الكافرين العبادة الحقة بصيغة واحدة مرتين هي الصيغة الاسمية :"ولا أنتم عابدون ما أعبد".

ومعنى ذلك أنه نفى عبادة الأصنام عن نفسه في الحالتين الثابتة والمتجددة في جميع الأزمنة وهذا غاية الكمال .إذ لو اقتصر على الفعل لقيل :إن هذا أمر حادث قد يزول .ولو اقتصر على الاسم لقيل :صحيح أن هذه صفة ثابتة ولكن ليس معناه أنه مستمر على هذا الوصف لا يفارقه، فإن الوصف قد يفارق صاحبه أحياناً، بل معناه أن هذا وَصْفُه في غالبِ أحواله، فالحليم قد يغضب ويعاقب، والجواد قد يأتيه وقت لا يجود فيه إذ هو ليس في حالة جُودٍ مستمر لا

ينقطع، والرحيم قد يأتيه وقت يغضب فلا يرحم .ولئلا يُظَنَّ ذاك في الرسول أعلن براءته من معبوداتهم بالصغتين الفعلية والاسمية :الصيغة الفعلية الدالة على الحدوث والصيغة الاسمية الدالة على الثبات ليعلم براءته منها في كل حالة .ثم إنه استغرق الزمن الماضي والحال والاستقبال باستعماله الفعل الماضي والمضارع، في حين نفاه عنهم بالصيغة الاسمية فقط .فإصراره هو على طريقه أقوى من إصرارهم، وحاله أكمل من حالهم والنفي عنه أدومُ وأبقى من النفي عنهم:
ثم انظر كيف أنه لما خاطبهم بالصورة الاسمية قائلاً :"قل يا أيها الكافرون" نفى عنهم العبادة الحقة بالصورة الاسمية أيضاً فقال :"ولا أنتم عابدون ما أعبد" . فإنهم لما اتصفوا بكفرهم على وجه الثبات نفى عنهم عبادة الله على وجه الثبات أيضاً .وهو تناظر جميل .ومن جميل استعمال القرآن للفعل والاسم أنه يستعملهما استعمالاً مناسباً مع وقوع الحدث في الحياة فإذا كان مما يتكرر حدوثه ويتجدد استعمله بالصورة الفعلية وإذا لم يكن كذلك استعمله بالصورة الاسمية.
فمن ذلك مثلاً استعمال القرآن للفعل "ينفق" فإنه يستعمله بالصيغة الفعلية لأن الإنفاق أمر يتكرر ويحدث باستمرار قال تعالى :"الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بالليل والنهار سِرّاً وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" "البقرة :٢٧٤" فاستعمل الفعل المضارع الدال على التجدد والحدوث لأن الإنفاق أمر يتجدد .ونحوه قوله تعالى :"الذين يُنفِقُونَ فِي السَّرَّآءِ والضرآء والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس والله يُحِبُّ المحسنين" "آل عمران :١٣٤" وقوله :"والذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَآءَ الناس وَلَا يُؤْمِنُونَ بالله وَلَا باليوم الآخر" "النساء :٣٨".
ولم ترد بالصورة الاسمية إلا في آية واحدة هي قوله تعالى :"الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار" "آل عمران :١٧" وهو في سياقِ أوصافِ المؤمنين الدالة على الثبات.
ومن ذلك استعمال القرآن للإيمان، فقد استعمله بالصيغة الاسمية كثيراً وذلك لأن الإيمان له حقيقة ثابتة تقوم بالقلب وليس كالإنفاق يحدث وينقطع قال تعالى :"أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَاّ يَسْتَوُونَ" "السجدة :١٨" . وقال :"وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً" "طه :١١٢" . وقال :"وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين "الروم :٤٧" . وغيرها وغيرها.
كما استعمله بالصيغة الفعلية في المواطن الدالة على الحدوث، قال تعالى :"وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أيمانهم لَئِن جَآءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا" "الأنعام :١٠٩" فجاء به بالصغية الفعلية لأنه هنا أمر دال على الحدوث لا الثبوت فإنه لم يحصل بعد .ومثله قوله تعالى :"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَآ آمَنَ الناس قالوا أَنُؤْمِنُ كَمَآ آمَنَ السفهآء ألا إِنَّهُمْ هُمُ السفهآء" "البقرة :١٣" وغير

ذلك وغيره .جاء في "البرهان"" ومن هذَا يعرف لم قيل :"الذين ينفقون" ولَمْ يقلْ :"المنفقين" في غير موضع؟
وقيل كثيراً :المؤمنون والمتقون، لأن حقيقة النفقة أمر فعلي شأنه الانقطاع والتجدد بخلاف الإيمان فإنَّ له حقيقة تقوم بالقلب يدوم مقتضاها وإن غفل عنها، وكذلك التقوى والإسلام والصبر والشكر والهدى والضلال والعمى والبصر فمعناها أو معنى وصف الجارحة؛ كل هذه لها مسميات حقيقية أو مجازية تستمر، وآثار تتجدد وتنقطع، فجاءت بالاستعمالين إلا أن لكل محل ما يليق به .فحيث يراد تجدد حقائقها أو آثارها فالأفعال .وحيث يراد الاتصاف بها فالأسماء."
ومن ذلك استعماله للاستغفار فإنه لما كان الاستغفار يحدث ويتجدد جاء به بالصيغة الفعلية كثيراً شأن الإنفاق قال تعالى :"الذِينَ يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ" "غافر :٧".
وقال :"والملائكة يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأرض" "الشورى :٥".
ولم يرد بالصيغة الاسمية إلا في آية واحدة هي التي ورد فيها الإنفاق اسماً وهي قوله تعالى :"الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار" "آل عمران :١٧" أي أصحاب هذه الصفات.
ومثل ذلك التسبيح فإنه ورد بالصيغة الفعلية كثيراً للسبب نفسه وذلك نحو قوله تعالى :"وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ" "الأعراف :٢٠٦" . و "يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض" "الجمعة :١".
ولم يرد بالصيغة الوصفية إلا في آيتين :إحداهما :في صوف نبي الله يونس عليه السلام قال :"فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ" "الصافات :١٤٣-١٤٤" . بمعنى أنه كان هذا وصفه الثابت .فنجا لأنه كان من أصحاب هذا الوصف .والمجيء بالصيغة الوصفية هنا إشارة إلى أن مداومة التسبيح تخلِّص من الكروب والمكاره، وأن يونس إنما نجا من هذه الشدة بمداومة التسبيح.
والثانية :في صفة الملائكة "وَإِنَّا لَنَحْنُ الصآفون * وَإِنَّا لَنَحْنُ المسبحون" "الصافات :١٦٥-١٦٦" أي هذه صفتهم الثابتة .وقد ذكر الله سبحانه أن الملائكة "يُسَبِّحُونَ اليل والنهار لَا يَفْتُرُونَ" "الأنبياء :٢٠" إذن فالتسبيح وصف ثابت فيهم.
"وانظر هنا إلى لطيفة وهو أن ما كان من شأنه ألا يفعل إلا مجازاة وليس من شأنه أن يذكر الاتصاف به لم يأت إلا في تراكيب الأفعال كقوله تعالى :"وَيُضِلُّ الله الظالمين" "إبراهيم :٢٧" وقال :"وَإِنَّ الله لَهَادِ الذين آمنوا" "الحج :٥٤" "وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ" "الرعد :٧".
ومنه قوله تعالى :"تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ" "الأعراف :٢٠١" لأن البصر صفة لازمة للمتَّقِي، وعين الشيطان ربما حجبت فإذا تذكر رأى المذكور ولو

قيل :"يبصرون" لأنبأ عن تجدد واكتساب لا عَود صفة."
ثم انظر كيف ذكر الله الإضلال وأضافه إلى نفسه بالصورة الفعلية فقط للدلالة على أن هذا الأمر طارئ يفعله مع من يستحقه ولم يسند هذا الأمر إلى نفسه بالصورة الاسمية للدلالة على أن هذا ليس من صفات الله ونعوته قال تعالى :"كَذَلِكَ يُضِلُّ الله مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ" "غافر :٣٤" وقال :"كَذَلِكَ يُضِلُّ الله الكافرين" "غافر :٧٤" وقال :"وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفاسقين" "البقرة :٢٦".
في حين وصف الشيطان بذاك فقال :"هاذا مِنْ عَمَلِ الشيطان إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ" "القصص :١٥" فجعله وصفاً ثابتاً له ويجدده أيضاً فقال :"وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إلى عَذَابِ السعير" "الحج :٣-٤" وقال الشيطان عن نفسه :"وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ" "النساء :١١٩".
فجعل وصف الشيطان الثابت والمتجدد الإضلال، كما جعل الله وصف ذاته العليَّة الثابت والمتجدد الهداية فقال :"وَإِنَّ الله لَهَادِ الذين آمنوا" "الحج :٥٤". وقال :"وكفى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً" "الفرقان :٣١" وقال :"يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتبع رِضْوَانَهُ سُبُلَ السلام" "المائدة :١٦" وقال :"قُلِ الله يَهْدِي لِلْحَقِّ" "يونس :٣٥" فشتان ما بين الوصفين.
ومن بدائع الفن في هذا الباب قوله تعالى :"هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المكرمين * إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ" "الذاريات :٢٥".
"ففرق الله سبحانه وتعالى بين السلامين فجعل الأول بالنصب والثاني بالرفع ولم يسوِّ بينهما، وذلك لأن قوله :"سلاماً" بالنصب تقديره :نُسَلِّمُ سلاماً أي بتقديرِ فِعْلٍ .وقوله :"سلام" تقديره :"سلام عليكم" أي :بتقدير اسمية الجملة .والاسم أثبت وأقوى من الفعل فدل على أن إبراهيم عليه السلام حَيَّا الملائكة بخير من تحيتهم .قال تعالى :"وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ الله كَانَ على كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً" "النساء :٨٦" فرد التحية خير منها. وجاء في" التفسير الكبير "أن" إبراهيم عليه السلام أراد أن يرد عليهم بالأحسن فأتى بالجملة الاسمية فإنها أدل على الدوام والاستمرار."
ومنه قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام :"وَجَآءُوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ والله المستعان على مَا تَصِفُونَ" "يوسف :١٨" فجاء بالصبر مرفوعاً أي :بتقدير الجملة الاسمية لأنه وَطَّنَ نفسه على الصبر الطويل الدائم الذي لا يعرف له نهاية والذي قد يستغرق ما بقي من عمره، ولم يقل :"فصبراً" بالنصب بتقدير الفعل أي :لأصبر صبراً، لأنه يدل على الصبر الحادث الذي يتغير لا الصبر الدائم الثابت .فَثمَّةَ فَرْقٌ بين الاستعمالين والمعنيين.

ومن هذا الباب قوله تعالى :"الطلاق مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بإحسان" "البقرة :٢٢٩" فانظر كيف جاء بالطلقة الثالثة بالرفع، وذلك لأنها الطلقة الأخيرة والحكم معها يكون على وجه الدوام، إمّا الإمساك بالمعروف أو التسريح الذي لا رجعة فيه، فانظر كيف لم يقلها بالنصب وذلك لأن النصب موقوت .ألا ترى إلى قوله تعالى :"فَإِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرقاب" "محمد :٤" كيف جاء بـ "ضرب" منصوباً وذلك على تقدير الفعل أي :فاضربوا، ولم يأت به بالرفع وذلك لأنه موقوت بالمعركة وليس أمراً دائماً.
ومثله قوله تعالى :"وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ" "الهمزة :١" فاظر كيف قال :"ويل" بالرفع ولم يقل :"ويلاً" بالنصب وذلك لأنه بالرفع جملة اسمية وبالنصب جملة فعلية، فأخبر أن لهم عذاباً دائماً لا ينقطع أو دعا عليهم به .ولو قال :"ويلاً" بالنصب لكان إخباراً بالعذاب غير الدائم .ثم انظر كيف قال في آخر السورة :"إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِ" "الهمزة :٨-٩" فأخبر أن أبوابها مغلقة عليهم لا تنفتح إشارة إلى دوام العذاب وخلوده، وكيف ناسب ذلك أول السورة برفع الويل.
فانظر هذا التنسيق الجميل في التعبير والمعنى بين المفتتح والختام .وفي هذا القدر كفاية فإن غرضنا التمثيل وليس الاستقصاء فإن الاستقصاء يطول.
٢ -وكذلك استعماله للأبنية الأخرى فهو يستعملها استعمالاً فنياً عجيباً ويضعها وضعاً معجزاً، فمن ذلك أنه يأتي بالفعل ثم لا يأتي بمصدره بل يأتي بمصدر فعلٍ آخر يلاقيه في الاشتقاق فيجمع بين معنى الفعل ومعنى المصدار من أقرب طريق وأيسره وذلك نحو قوله تعالى :"واذكر اسم رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً" "المزمل :٨" فإنه جاء بالفعل "تبتّل" غير أنه لم يأت بمصدره وإنما جاء بمصدر فعل آخر هو "بتّل" وذلك أن مصدر تبتل هو "التبتُّل" فإن مصدر "تفعَّل" يكون على "التَّفَعُّل" كتعلّم تعلُّماً وتقدّم تقدّماً .وأما "التبتيل" فهو مصدر بَتَّلَ لا تَبتّل فإن "التفعيل" هو مصدر "فعّل" كعلّم تعليماً وعظّم تعظيماً .وكان المتوقَّع أن يقول "وتبتل إليه تبتلاً" غير أنه لم يقل ذاك .وسبب ذلك أنه أراد أن يجمع بين مَعْنَيي التبتل والتبتيل، وذلك أن تبتّل على وزن تفعّل و "تَفَعَّلَ" : يفيد التدرُّجَ والتكلف مثل :تجسس وتحسس وتبصّر وتدرّج وتمشّى وَغَيرها، فإن في تجسس وتحسس وبقية الأفعال تدرّجاً وتكلفاً .ألا ترى أنّ في "تبصّر" من التدرج وإعادة النظر والتكلف ما ليس في "بصر" ، وفي "تمشّى" من التدرج ما ليس في "مشى" ؟
وأما "فعّل" فيفيد التكثير والمبالغة وذلك نحو :كسر وكسّر، فإن في كسّر المضاعف من المبالغة والتكثير ما ليس في كَسَرَ الثلاثي فقولك :"كسّرت القلم" يفيد أنك جعلته كسرة كسرة بخلاف ما إذا قلت :"كَسَرْتُ القَلَمَ" فإنه يفيد أنك كسرته مرة واحدة .كذلك قولك :"قطّعت اللحم" فإنه يفيد أنك جَعلته قطعة قطعة بخلاف ما إذا قلت :"قطعت اللحم" بلا تضعيف فإنه يفيد

أنك قطعته مرة واحدة .وتقول "موّتت الإبل" إذا كثر فيها الموت ولا يقال :"موّت البعير" لأنه ليس في موت البعير تكثير .فالله سبحانه جاء بالفعل لمعنى التدرج ثم جاء بالمصدر لمعنى آخر هو التكثير، وجمع المعنيين في عبارة واحدة موجزة ولو جاء بمصدر الفعل "تبتّل" فقال :"وتبتل إليه تبتُّلاً" لم يفد غير التدريج وكذلك لو قال "وبتّل نفسك إليه تبتيلا" لم يُفِدْ غيرَ التكثير .ولكنه أراد المعنيين فجاء بالفعل من صيغة والمصدر من صيغة أخرى وجمعهما فهو بدل أن يقول :"وتبتَّلْ إليه تَبَتُّلاً وبَتِّلْ نفسَكَ إليه تبتيلاً" جاء بالفعل لمعنى ثم جاء بالمصدر لمعنى آخر، ووضعهما وضعاً فنياً فكسب المعنيين في آن واحد وهذا باب شريف جليل.
جاء في "التفسير القيم"" : ومصدر تبتل إليه :"تبتُّل" كالتعلُّم والتفهم ولكن جاء على "التفعيل" مصدر "فعلّ" لسر لطيف .فإن في هذا الفعل إيذاناً بالتدريج والتكليف والتعلّم والتكثير والمبالغة .فأتى بالفعل الدال على أحدهما وبالمصدر الدال على الآخر فكأنه قيل :بتّل نفسك إلى الله تبتيلاً وتبتل إليه تبتُّلاً، ففهم المعنيان من الفعل ومصدره.
وهذا كثير في القرآن وهو من حسن الاختصار والإيجاز."
وليس هذا كل شيء في هذا الجزء من الآية بل انظر الوضع الفني التربوي الآخر وهو أنه جاء بالفعل الدال على التدرج أولاً، بالمعنى الدال على الكثرة والمبالغة بعده وهو توجيه تربوي حكيم، إذ الأصل أن يتدرج الإنسان من القلة إلى الكثرة، والمعنى :احمل نفسك على التبتل والانقطاع إلى الله في العبادة شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى الكثرة، والمعنى :ابدأ بالتدرج في العبادة وانته بالكثرة .وليس من الحكمة أن يضع الصيغة الدالة على الكثرة والمبالغة أولاً ثم يأتي بالصيغة الدالة التدرج والتكلف فيما بعد، بل الطريق الطبيعي أن يتدرج الإنسان في حمل النفس على الشيء من القلة إلى الكثرة والمبالغة حتى يكون وصفاً ثابتاً له .فهو وضعها وضعاً تربوياً أيضاً.
ثم انظر كيف وضعها ربنا وضعاً فنياً عجيباً آخر فجاء للدلالة على معنى التدرج والحدوث بالصغية الفعلية، لأن الفعل يدل على الحدوث والتجدد
فقال :"وتبتل" ثم جاء للدلالة على معنى المبالغة والكثرة والثبوت بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت والكثرة لأنها الحالة الثابتة المرادة في العبادة .أما حالة التدرج فهي حالة موقوتة يراد منها الانتقال لا الاستمرار والاستقرار، فجاء لكل معنى بما يناسبه.
ومثله قوله تعالى :"وَيُرِيدُ الشيطان أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً" "النساء :٦٠" والقياس أن يقول :"أن يُضلهم إضلالاً بعيداً"" لأن مصدر "أضلّ" : الإضلال أما الضلال فهو مصدر ضلّ، قال تعالى :"فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً" "النساء :١١٦" والمعنى أن يُضلهم فيضلّوا ضلالاً بعيداً، وقد جمع المعنيين :الإضلال والضلال في آن واحد.

والمعنى أن الشيطان يريد أن يُضلهم ثم يريد بعد ذلك أن يَضلّوا هم بأنفسهم، فالشيطان يبدأ المرحلة وهم يُتِمُّونها .فهو يريد منهم المشاركة في أن يبتدعوا الضلال ويذهبوا فيه كل مذهب .يريد أن يطمئنوا إلى أنهم يقومون بمهمته هو."
ولو جاء بمصدر الفعل المذكور لما زاد عن معنى الفعل المذكور، ولكنه جاء بالفعل لمعنى، وجاء بالمصدر لمعنى آخر، فجمع بين المعنيين، والمعنيان مرادان والله أعلم.
وقد يَستعملُ في كان ما صيغةً ثم يعدلُ في مكان آخر عن تلك الصيغة، فيحولها إلى صيغة أخرى بحسب ما يقتضيه السياق والمعنى.
فمن ذلك قوله تعالى :"بَلْ عجبوا أَن جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الكافرون هاذا شَيْءٌ عَجِيبٌ" "ق :٢".
وقوله :"قَالَتْ ياويلتىءَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وهاذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هاذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ" "هود :٧٢".
وقوله في مكان آخر :"أَجَعَلَ الآلهة إلاها وَاحِداً إِنَّ هاذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ" "ص :٥".
فأنت ترى أنه قال في سورة ق :"هذا شيء عجيب" وفي هود :"إنّ هذا لشيء عجيب" وفي سورة ص :"إنّ هذا لشيء عجاب" فَعدلَ من عجيب إلى عُجاب، وذلك أنه تدرج في العجب بحسب قوته ففي سورة "ق" ذكر أنهم عجبوا من أن يجيء منذر منهم فقالوا :"هذا شيء عجيب".
وفي سورة هود كان العجب أكبر لأنه من خلاف المعتاد أن تَلِدَ امرأةٌ عجوز وعقيم "انظر سورة الذاريات ٢٩" وبعلها شيخ إذْ كُلٌّ ذلك يدعو إلى الغرابة والعجب فالعجوز لا تلد، فإذا كانت عقيماً كانت عن الولادة أبعد إذ يتسحيلُ على العقيم أن تلد .فإذا اجتمع إلى كل ذلك أن بلعها شيخ كان أبعدَ وأبعد ولذا أكَّدَ العجب بإنّ واللام فقال :"إِنَّ هاذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ" "هود :٧٢" . بخلاف آية "ق" فإنه لم يؤكد العجب.
وأما في سورة "ص" فقد كان العجب عند المشركين أكبر وأكبر إذ كيف يمكن أن يؤمنوا بوحدانية الإله ونفي الشرك وهم قوم عريقون فيه؟ بل إن الإسلام جاء أول ما جاء ليردعهم عن الشرك ويردهم إلى التوحيد، وحَسْبُكَ أن كلمة الإسلام الأولى هي :"لا إله إلا الله" وقد استسهلوا أن يحملوا السيف ويعلنوا الحرب الطويلة على أن يُقِرُّوا بهذه الكلمة، فالقتل أيسرُ عندهم من النطق بكلمة التوحيد، ولذا كان العجب عندهم أكبر وأكبر فجاء بإن واللام وعدل من "عَجِيب" إلى "عُجَاب" وذلك أن "فُعَالاً" أبلغ من "فَعِيل" عند العرب فـ "طُوال" أبلغ من "طويل" فإذا قلت :"هو رجل طويل" فهو الطول يكون مثله، فإذا زاد عن المعتاد قلت :هو طُوال ونحوه :كريم وكُرام، وشجيع وشُجاع.

فانظر كيف عدل من صيغة إلى صيغة بحسب ما يقتضيه المقام، وانظر كيف يراعي دقة التعبير في كل موضع، وكيف يلحظ كل كلمة ويضعها في المكان المناسب على تباعد الأمكنة.
ومن ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام :"فَلَماَّ رَأَى الشمس بَازِغَةً قَالَ هاذا رَبِّي هاذآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ ياقوم إِنِّي برياء مِّمَّا تُشْرِكُونَ" "الأنعام :٧٨".
وقوله في مكان آخر على لسانه أيضاً :"وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الذي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ" "الزخرف :٢٦-٢٧".
فانظر كيف عدل من "بريء" إلى "براء" من الصفة المشَبّهة على المصدر" وأنت ترى الفرق بين المقامين فإن إبراهيم عليه السلام في آية الأنعام في مقام الحيرة والبحث عن الحقيقة لا يعرف ربه على وجه التحقيق، فقد ظن أن الكوكب ربه ثم القمر ثم الشمس ثم أعلن البراءة من كل ذلك.
أما في الآية الثانية فهو في مقام التبليغ فقد أصبح نبياً مرسلاً من ربه أعلن حربه على الشرك وأعلن البراءة مما يعبد قومه، فهناك فرق بين المقامين والبراءتين."
ولذا قال في الآية الأولى :"بريء" وفي الثانية :"براء" وذلك أن "براء" أقوى من بريء فإنها براءة بصيغة المصدر الذي هو الحدث المجرد فإن قولك :"هو رجل عدل" أبلغ من قولك "هو رجل عادل" وذلك لأن معناه أنه أصبح هو العدل، أي :لكثرة ممارسته للعدل صار هو العدل نفسه .وقولك :"هو رجلُ سوء" أبلغ من قولك :"هو رجل سيّئ" فمعنى رجل سيِّئ أنه اتصف بالسوء ومعنى "رجل سوء" أنه لكثرة ممارسته السوء أصبح هو السوء، ومثله قوله تعالى في ابن نوح عليه السلام :"قَالَ يانوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ" "هود :٤٦" لم يقل إنّه عامل غير صالح، والمعنى أن ابنك تحوّل إلى عمرٍ غير صالح ولم يبق فيه من عنصر الذات شيء، أي :تحول إلى حدث مجرد وأن العمل غير الصالح لو تجسّد لكان ابنك .فالبراءة في آية الزخرف أشد.
ثم انظر كيف ناسب هذه القوة في البراءة والشدة بتوكيد الكلمة بمجيء النون - أعني نون الوقاية - في آية الزخرف زيادةً في التوكيد فقال :"إنني براء" ولم يأت بها في آية الأنعام بل قال :"إني بريء" وأن النون في مثل هذا المقام تفيد التوكيد.
فانظر كيف أكد براءته في آية الأنعام بالنون وبتحويل الصيغة إلى المصدر وهي نظيرة ما مر من آيات العجب السابقة .فانظر إلى جمال هذا التعبير ودقته وكيف أن القرآن كاللوحة الفنية الواحدة المتناسقة لوحظ فيها كُلَّ جزئيةٍ من جزئياتها واعتنى بكل لمسة من لمساتها، وصدق الإمام الرازي إذ قال :القرآن كالسورة الواحدة بل كالآية الواحدة.

وقد يجمع بين صيغتين من مادة واحدة احتياطاً للمعنى وذلك كقوله
تعالى :"الرحمن الرحيم" فإ،ّ "الرحمن" على وزن فَعْلآن و "الرحيم" على
وزن فعيل فجمع بينهما، وذلك أن صيغة "فعلان" تدل على الصفات
المتجددة، وذلك نحو :عطشان وجوعان وغضبان ونحوها، فإن العطش
في :عطشان، ليس صفةً ثابتة بل يزولُ ويتحول، وكذلك جوعان
وغضبان، بخلاف :"فعيل" فإنه يدل على الثبوت وذلك نحو :كريم وبخيل
وطويل وجميل فإن هذه صفات ثابتة فليس "طويل" مثل :"عطشان" في
الوصف ولا "قبيح" مثل "جوعان"" . ودلالة هذا البناء على الحدوث بارزة في
لغتنا الدارجة تقول :"هو ضعفان" إذا أردت الحدوث فإن أردت الثبوت
قلت :"هو ضعيف" ، وكذلك سمنان وسمين :ألا ترى أنك تقول لصاحبك :أنت
ضعفان، فيرد عليك :أنا منذ نشأتي ضعيف .وتقول له :أراك طولان .فيقول :أنا
طويل منذ الصغر.
وهذا من أبرز ما يميز صيغة "فعلان" عن "فعيل" ... فإن صيغة "فعلان" تفيد
الحدوث والتجدد، وصيغة "فعيل" تفيد الثبوت فجمع الله سبحانه لذاته
الوصفين .إذ لو اقتصر على "رحمن" لضن ظان أن هذه صفة طارئة قد تزول
كعطشان وريان .ولو اقتصر على "رحيم" لظن أن هذه صفة ثابتة ولكن ليس
معناها استمرار الرحمة وتجددها، إذ قد تمر على الكريم أوقات لا يكرم فيها
وقد تمر على الرحيم أوقات كذلك .والله سبحانه متصف بأوصاف الكمال
فمجمع بينهما حتى يعلمَ العبدُ أن صفته الثابتة هي الرحمة وأن رحمته
مستمرة متجددة لا تنقطع، حتى لا يَستبدَّ به الوهمُ بأن رحمته تَعرضُ ثم تنقطع
أو قد يأتي وقت لا يرحم فيه سبحانه - فجمع الله كمال الاتصاف بالرحمة
لنفسه."
ومن ذلك أنه يستعمل صيغةً جمعٍ في مكان ثم يستعمل صيغة جمع أخرى في
مكانٍ آخر يبدو شبيهاً بالأول وذلك نحو قوله تعالى :"مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ
والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ" "البقرة :٢٦١".
وقوله :"إني أرى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ
وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ" "يوسف :٤٣".
فأنت ترى أن العدد في الآيتين واحد هو سبع، ولكن استعمل
معه :"سنبلات" مرةً ومرةً أخرى :"سنابل" وسِرُّ ذلك أن سنابل جمع كثرة
وسنبلات جمع قلة، وقد سيقت الآية الأولى في مقام التكثير ومضاعفة الأجور
فجيء بها على "سنابل" لبيان التكثير.
وأما قوله :"سبع سنبلات" فجاء بها على لفظ القلة لأن السبعة قليلةً ولا
مقتضى للتكثير .فجاء لكل موضع بما يقتضيه السياق.
ومن لطيفِ استعمالِ القلة والكثرة ما جاء في قوله تعالى :"إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ
أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين * شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجتباه وَهَدَاهُ إلى

صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" "الحل :١٢٠-١٢١".
وقوله :"أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ الله سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ" "لقمان :٢٠".
فجمع النعمة في آية النحل جمع قلة "أنعُم" وجمعها في لقمان جمع كثرة "نِعمَه" وذلك أن نعم الله لا تحصى، فلا يطيق الإنسان شكرها جميعها، ولكن قد يشكر قسماً منها، ولذلك لما ذكر إبراهيم وأثنى عليه قال :إنه شاكر لأنعمه، ولم يقل :لنعمه، لأن شكر النعم ليس في مقدور أحد، بل إن إحصاءها ليس في مقدور أحد فكيف بشكرها؟ قال تعالى :"وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لَا تُحْصُوهَآ" "النحل :١٨" . وأما الآية الثانية فهي في مقام تعداد نعمه وفضله على الناس فقال :"وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً" "لقمان :٢٠" . فذكرها بِزِنةِ جمع الكثرة.
وقد ذكرت في كتابي "معاني الأبنية في العربية" أمثلة أخرى لاستعمامل صيغ الجموع المختلفة.
وقد يستعمل المفرد مرة والجمع مرة أخرى مع أن الموضعين يبدوان متشابهين فمن ذلك قوله تعالى :"وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النار إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً" "البقرة :٨٠".
وقوله :"ذلك بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النار إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ" "آل عمران :٢٤".
فقال مرة :"معدودة" ومرة أخرى :"معدودات" مع أن القصة واحدة.
والحقيقة أن السياق في الموضعين مختلف .وإيضاح ذلك أن المفرد المؤنث إذا وقع صفة للجمع دل على أن الموصوف أكثر منه إذا كانت صفته جمعاً سالماً، فإنك إذا قلت :"في بلدنا جبال شاهقة" دل ذلك على أن عندكم جبالاً كثيرة بخلاف ما إذا قلت :"في بلدنا جبال شاهقات" فإنه يدل على القلة .والأنهار في قولك :"أنهار جارية" أكثر منها في :"أنهار جاريات" وعلى هذه فالأيام المعدودة أكثر من الأيام المعدودات وسبب ذلك أن المقامين مختلفان.
أما الأولى فالكلام فيها على بني إسرائيل وقد أكثر من الكلام عليهم وفي صفاتهم السيئة فذكر أنهم يُحَرِّفُونَ كلام الله وهم يعملون .قال تعالى :"أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ الله ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُواْ الذين آمَنُواْ قالوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ قالوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ الله عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" "البقرة :٧٥-٧٦".
فهم يعرفون جُرْمهم ويُقرُّون به ويعملون به عن قصد وإصرار وقد تَوعَّدهم الله بالعذاب الشديد فقال :"فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هاذا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ" "البقرة :٧٩".

إذن فهم يعملون بالجرم عن قصد ويحرفونه عن علم ليشتروا به ثمناً قليلاً .وإذن فهم يعلمون أن الله معاقبهم على هذا الجرم فقالوا :"إلا أياماً معدودة" فجاء بصغية الكثرة.
وليس الأمر كذلك في آية آل عمران فقد قال :"أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الكتاب يُدْعَوْنَ إلى كِتَابِ الله لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يتولى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ * ذلك بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النار إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ" "آل عمران :٢٣-٢٤".
فليس في آية آل عمران مثل الجرم المذكور في سورة البقرة من ارتكاب الذنب العمد وتحريف كلام الله، ففرقٌ كبير بين المقامين .فجاء بزمن العذاب الطويل للجرم الكبير، والقليل للذنب القليل فقال :"معدودات" بصيغة جمع القلة في آل عمران، بخلاف آية البقرة فسبحان الله رب العالمين.
ومن ذلك قوله تعالى :"قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ القول فِي السمآء والأرض" "الأنبياء :٤" . وقوله :"قُلْ أَنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السر فِي السماوات والأرض" "الفرقان :٦".
فقال في آية الأنبياء :"السماء" وفي آية الفرقان :"السماوات" وسبب ذلك أن القول عام يشمل السر والجهر فهو أعم من السر ألا ترى أنك تقول :قلت في نفسي كذا وكذا؟
قال تعالى :"وَيَقُولُونَ في أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المصير" "المجادلة :٨".
جاء في "الكشاف" أن" القول عام يشمل السر والجهر فكان في العلم به العلم بالسر وزيادة فكان آكد في بيان الاطلاع على نحوٍ أهم."
والسماء هنا أعم من السماوات وذلك أن "السماء" في القرآن تستعمل على معنيين فهي إما أن تكون واحدة السماوات كقوله تعالى :"وَلَقَدْ زَيَّنَّا السمآء الدنيا بمصابيح" "الملك :٥" ، وقوله :"وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السماء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ" "الحجر :١٤-١٥".
وإما أن تكون لكل ما علاك فتشمل السماوات وغيرها كالسحاب والمطر والجو وغيره قال تعالى :"يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً" "نوح :١١" والسماء هنا بمعنى المطر.
وقال :"أَنَزَلَ مِنَ السمآء مَآءً" "الرعد :١٧" والسماء هنا بمعى السحاب.
وقال :"فَمَن يُرِدِ الله أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السمآء" "الأنعام :١٢٥" والسماء هنا بمعنى الجو.
والمعنى أن الضالّ عن الحق يكون صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعَّد في الجو لأن المرتفعَ في الجو يضيقُ صدره لاختلال الضغط كما هو معلوم .وهذا إعجاز

علمي علاوة على الإعجاز اللغوي، لأنه أخبر بهذه الحقيقة العملية قبل اختراع المنطادات والطائرات بِدُهور.
وقال :"مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ الله فِي الدنيا والآخرة فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السمآء ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ" "الحج :١٥".
والسماء هنا بمعنى السقف، أي :مَنْ كان يظن أن لن ينصر الله محمداً فليمدد حبلاً إلى سقف بيته ثم ليخنق نفسه به لأن محمداً منتصرٌ لا محالة .وهذا إعجاز آخر لأنه إخبار عن المستقبل وقد تحقق ذاك.
ولا شك أن السماء بهذا المعنى الثاني أعم وأشمل من السماوات لأنها تشمل السماوات وغيرها مما علا وارتفع .فجاء بـ "القول" الذي هو أعم
من "السر" مع السماء التي هي أعم من السماوات فاستعمل العام مع العام والخاص مع الخاص.
ألا ترى كيف قال تعالى :"وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السماوات والأرض أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ" "آل عمران :١٣٣".
وقال :"سابقوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السمآء والأرض أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ والله ذُو الفضل العظيم" "الحديد :٢١".
فلما جاء بالسماوات قال :"عرضها السماوات والأرض" ، ولما جاء بالسماء التي هي أعم من السماوات قال :"عرضها كعرض السماء والأرض" فجاء بكاف التشبيه وذلك لأن السماء أعرض بكثير من السماوات.
ثم ألا ترى كيف قال الله تعالى في كلٍّ من الآيتين، ففي آية السماوات قال :"أعدت للمتقين" وفي آية السماء قال :"أعدت للذين آمنوا بالله ورسله" وذلك لأن المتقين أخص من المؤمنين بالله ورسله، لأن المتقي لا يكون إلا مؤمناً أما المؤمن بالله ورسله فقد لا يكون متقياً، فالمؤمنون بالله ورسله أكثر من المتقين فجاء للطبقة الواسعة وهم المؤمنون بالله ورسله بذكر صفتها الواسعة "كعرض السماء" وجاء مع الطبقة الخاصة الذين هم أقل ممن قَبلَهم وهم المتقون بلفظ :"السماوات" التي هي أهل سعة من السماء فناسب بين السعة والعدد.
ثم انظر كيف زاد في آية الحديد قوله :"ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ والله ذُو الفضل العظيم" "الحديد :٢١" . وذلك لما زاد تفضله على الخلق فوسَّعَ دائرة الداخلين في الجنة، وجعلها في المؤمنين عامة ولم يقصرها على المتقين منهم، ذكر هذا الفضل في آية الحديد.
ثم انظر كيف أنه لما ذكر الجنة بأوسع صفة لها وذكر كثرة الخلق الداخلين فيها وذكر فضله العظيم على عباده قال :"سابقوا" وفي الآية الأخرى
قال :"سارعوا" وذلك لأن كثرة الخلق المتوجهين إلى مكان ما تستدعي المسابقة إليه لا مجرد المُسَارعة.

فانظر كيف ذكر في آية الحديد "المسابقة" وهي تشمل المسارعة وزيادة، وذكر "السماء" وهي تمشل السماوات وزيادة، وذكر المؤمنين بالله ورسله وهم يشملون المتقين وزيادة .وزاد فيها ذكر الفضل على المغفرة والجنة .فجعل في كل موضع ما يناسبه من الألفاظ فَجَلَّتْ حِكمةُ الله.
ومن ذلك قوله تعالى :"وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وذلك الفوز العظيم * وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ" "النساء :١٣-١٤".
فقال في أصحاب الجنة :"خالدين فيها" بالجمع وفي أصحاب النار :"خالداً فيها" بالإفراد وقالوا :إن الحكمة في جمع الوصف أولاً للإشعار بالاجتماع المُسْتلزم لزيادة الأنس والسعادة عند أهل الجنة فإن الوحدة لا تُطاق، وإفراده لزيادة التعذيب عند أهل النار فإنه تعذيب بالنار والوحدة .جاء في "حاشية يس على التصريح" في هاتين الآيتين" :ولعل الحكمة في جمع الوصف أولاً بذلك الاعتبار وإفراده ثانياً باعتبار اللفظ، ما في صيغة الجمع من الإشعار بالاجتماع المستلزم للتأنس زيادة في النعيم وما في الإفراد من الإشعار بالوحدة المستلزم للوحدة زيادة في التعذيب كما ذكره المولى أبو السعود.
وقيل :إنه لما ذكر في الأول جنات متعددة لا جنة واحدة
قال :"يدخله" والضمير المنصوب في "يدخله" وإن كان مجموعاً في المعنى فهو في اللفظ مفرد من حيث هو مفرد، والمفرد من حيث هو مفرد لا يصح أن يكون في جنات متعددة فجاء "خالدين" لرفع هذا الإبهام اللفظي، فهو اعتبار لفظي ومناسبة لفظية وإن كان المعنى صحيحاً.
أم الآية الثانية فذكر فيها ناراً فناسبها الإفراد في "خالداً"."
ومن ذلك قوله تعالى في قصة صالح :"فتولى عَنْهُمْ وَقَالَ ياقوم لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ الناصحين" "الأعراف :٧٩".
وقوله في قصة شعيب :"فتولى عَنْهُمْ وَقَالَ ياقوم لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رسالات رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءاسى على قَوْمٍ كافرين" "الأعراف :٩٣".
فأفرد الرسالة مع صالح وجمعها مع شعيب فقال :"رسالات" قالوا :وذلك أن شعيباً بُعث إلى أمتين :مَدْين وأصحاب الأيكة، وصالحاً بعث إلى أمة واحدة، قال تعالى :"وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً" "الأعراف :٨٥".
وقال :"كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ المرسلين * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ" "الشعراء :١٧٦-١٧٧".
ومدين غير أصحاب الأيكة، وشعيب عليه السلام كان من مدين ولم يكن من أصحاب الأيكة ولذلك إذا ذكرت مدين قال :"أخوهم" وإذا ذكر أصحاب الأيكة لم يقل :"أخوهم" . قال تعالى :"وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً" "الأعراف :٨٥، هود :٨٤، المؤمنون :٣٦".

وقد ذكر الله جملة من الأنبياء وأممهم في سورة الشعراء، وكلهم قال فيه "أخوهم" إلا أصحاب الأيكة.
قال تعالى :"كَذَّبَتْ عَادٌ المرسلين * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ" "الشعراء :١٢٣-١٢٤".
وقال :"كَذَّبَتْ ثَمُودُ المرسلين * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ" "الشعراء :١٤١-١٤٢".
وقال :"كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ المرسلين * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ" "الشعراء :١٦٠-١٦١".
ثم قال بعد ذلك :"كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ المرسلين * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ" "الشعراء :١٧٦-١٧٧".
فانظر كيف قال :"أخوهم" مع الأنبياء الذين أُرسلوا إلى أقوامهم ولم يقل ذلك فيمن أُرسلَ إلى غير قومه.
فشعيب أرسل إلى أمتين ولذلك جمع الرسالة فقال :"لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رسالات رَبِّي" "الأعراف :٩٣" . وقال صالح :"أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي" "الأعراف :٧٩".
ثم لو نظرت إلى ما ذكره كل من صالح وشعيب عليهما السلام وبلغ به قومه لوجدت أن ما ذكره شعيب من الأوامر والنواهي أ :ثر مما ذكره صالح.
قال تعالى على لسان صالح بعد أن ذكر نعمة الله عليهم :"فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَلَا تطيعوا أَمْرَ المسرفين * الذين يُفْسِدُونَ فِي الأرض وَلَا يُصْلِحُونَ * قالوا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ المسحرين" "الشعراء :١٥٠-١٥٣".
وقال على لسان شعيب :"فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين * أَوْفُواْ الكيل وَلَا تَكُونُواْ مِنَ المخسرين * وَزِنُواْ بالقسطاس المستقيم * وَلَا تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ * واتقوا الذي خَلَقَكُمْ والجبلة الأولين * قالوا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ المسحرين" "الشعراء :١٧٩-١٨٥".
فهي في حق صالح رسالة، وفي حق شعيب رسالات.
ومن ذلك قوله تعالى :"فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ" "الأعراف :٧٨".
وقوله :"وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ" "هود :٦٧".
وقوله :"وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ" "هود :٩٤".
فأنت ترى حيث ذكر الصيحة جمع الدار وحيث ذكر الرجفة وهي الزلزلة الشديدة وَحَّدَ الدار، وذلك لأن الصيحة تبلغ أكثر مما تبلغ الرجفة فالرجفة تختص بجزء من الأرض، أما الصيحة فإنما يبلغ صوتها مساحة أكبر من مساحة الرجفة فلذلك وحّد مع الرجفة وجمع مع الصيحة.
وقريب من ذا قوله تعالى :"وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ" "يونس :٤٢".
وقوله :"وَمِنهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ" "يونس :٤٣".

فقال "يستمعون" بلفظ الجمع وقال بعده :"ينظر" بلفظ المفرد وذلك لأن المستمعين أكثر من الرائين على وجه العموم، ألا ترى أننا نستمع إلى أناس كثير لا نراهم في الإذاعات وأشرطة التسجيل وغيرها من وسائل
السمع، فجمع المستمعين لأنهم أكثر وإن كان لفظ "مَنْ" يحتمل الجمع المفرد .وذكر الكرماني أنما فرّق بينهما" لأن المستمع إلى القرآن كالمستمع إلى النبي صلى الله عليه وسلم بخلاف النظر فكان في المستمعين كثرة، فجمع ليطابق اللفظ المعنى.
ووحَّد "ينظر" حملاً على اللفظ إذ لم يكثروا كثرتهم."
وربمما كان ذلك لسبب آخر علاوة على ما ذكر فإن التأثر بالدعوة يكون بحسب أثر الاستماع لا بحسب الرؤية، فوحّد النظر لأن رؤيته صلى الله عليه وسلم واحدة لا تختلف بالنسبة إلى الرائين .وجمع الاستماع لأن الاستماع يختلف أثره من شخص لآخر .فالكلام تختلف مواقعه من مستمع لآخر، ولذلك وحّد الرائين لأنهم يرون شيئاً واحداً وجمع المستمعين لأن أثر ذلك مختلف عندهم.
وقريب من ذا قوله تعالى :"فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ
حَمِيمٍ" "الشعراء :١٠٠-١٠١" فجمع الشافع ووحَّدَ الصديق" :فإن قلت :لِمَ جمع الشافع ووحد الصديق؟ قلت :لكثرة الشفعاء في العادة وقلة
الصديق" "ولأن الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء "وبخاصة أنه وصف الصديق بأنه حميم فإن ذلك أندر.
وقريب من ذا قوله تعالى :"ياأيها الناس اتقوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى الناس سكارى وَمَا هُم بسكارى ولاكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ" "الحج :١-٢".
فجمع أولاً فقال :"ترونها" ثم وَحَّد فقال :"وترى الناس" جاء
في "الكشاف"" : فإن قلت :لِمَ قيل أولاً :"ترون" ، ثم قيل :"ترى" على الإفراد؟
قلت :لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعاً رائين لها .وهي معلقة أخيراً يكون الناس على حال السكر فلا بد أن يجعل كل واحد منهم رائياً لسائرهم وهذا باب واسع نكتفي منه بهذا القدر.

التقديم والتأخير

يمكننا تقسيم أحوال التقديم والتأخير إلى قسمين:
الأول :تقديم اللفظ على عامله نحو :"خالداً أعطيتُ" و :"بمحمدٍ اقتديتُ".
الثاني :تقديم الألفاظ بعضها على بعض في غير الامل وذلك نحو قوله تعالى :"وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله" "البقرة :١٧٣" ، وقوله :"وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ" "المائدة :٣" ومثل :"أعرتُ خالداً كتابي" و :"أعرت كتابي خالداً".
١ -تقديم اللفظ على عامله:
ومن هذا الباب تقديم المفعول به على فعله، وتقديم الحال على فعله، وتقديم الظرف والجار والمجرور على فعلهما، وتقديم الخبر على المبتدأ ونحو ذلك .وهذا التقديم في الغالب يفيد الاختصاص فقولك :"أنجدت خالداً" يفيد أنك أنجدت خالداً ولا يفيد أنك خَصَصتَ خالداً بالنجدة بل يجوز أنك أنجدت غيره أو لم تنجد أحداً معه .فإذا قلت :"خالداً أنجدت" أفاد ذلك أنك خصصت خالداً بالنجدة وأنك لم تنجد أحداً آخر.
ومثل هذا التقديم في القرآن كثير.
فمن ذلك قوله تعالى :"إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهدنا الصراط المستقيم" "الفاتحة :٥-٦" فقد قام المفعول به "إياك" على فعل العبادة وعلى فعل الاستعانة دون فعل الهداية فلم يقل :"إيانا اهد" كما قال في الأولين؛ وسبب ذلك أن العبادة والاستعانة مختصتان بالله تعالى، فلا يُعبَدُ أحدٌ غيره ولا يستعان به .وهذا نظير قوله تعالى :"بَلِ الله فاعبد وَكُن مِّنَ الشاكرين" "الزمر :٦٦" وقوله :"واشكروا للَّهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" "البقرة :١٧٢" فقدم المفعول به على فعل العبادة في الموضعين وذلك لأن العبادة مختصة بالله تعالى.
ومثل التقديم على فعل الاستعانة قوله تعالى :"وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون" "إبراهيم :١٢" ، وقوله :"عَلَى الله تَوَكَّلْنَا" "الأعراف :٨٩" ، وقوله :"عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ" "هود :٨٨" فقدم الجار والمجرور للدلالة على الاختصاص وذلك لأن التوكل لا يكون إلا على الله وحده والإنابة ليست إلا إليه وحده.
ولم يقدم مفعول الهداية على فعله فلم يقل :"إيانا اهد" كما قال :"إياك نعبد" وذلك لأن طلب الهداية لا يصح فيه الاختصاص إذ لا يصح أن تقول :اللهم اهدني وحدي ولا تَهْدِ أحداً غيري أو خصّني بالهداية من دون الناس .وهو كما تقول :اللهم ارزقني واشفني وعافني .فأنت تسأل لنفسك ذلك ولم تسأله أن يخصك وحدك بالرزق والشفاء والعافية فلا يرزق أحداً غيرك ولا يشفيه ولا يعافيه.

ومن هذا النوع من التقديم قوله تعالى :"قُلْ هُوَ الرحمان آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا" "الملك :٢٩" فقدم الفعل "آمنا" على الجار
والمجرور "به" وأخر "توكلنا" عن الجار والمجرور "عليه" وذلك أن" الإيمان لما لم يكن منحصراً في الإيمان بالله، بل لا بد معه من رسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وغيره مما يتوقف صحة الإيمان عليه، بخلاف التوكل فإنه لا يكون إلا على الله وحده لتفرده بالقدرة والعلم القديمين الباقيين، قدم الجار والمجرور فيه ليؤذن باختصاص التوكل من العبد على الله دون غيره لأن غيره لا يملك ضراً ولا نفعاً فيتوكل عليه."
ومن ذلك أيضاً قوله تعالى :"أَلَا إِلَى الله تَصِيرُ الأمور" "الشورى :٥٣"" لأن المعنى أن الله تعالى مختص بصيرورة الأمور دون غيره .ونحو قوله تعالى :"إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ" "الغاشية :٢٥-٢٦" . فإن الإياب لا يكون إلا إلى الله، وهو نظير قوله تعالى :"إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ
مَآبِ" "الرعد :٣٦" وقوله :"إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ
المساق" "القيامة :٣٠" فالمساق إلى الله وحده لا إلى ذات أخرى، وهذا ليس من التقديم من أجل مراعاة المشاكلة لرؤوس الآي كما ذهب بعضهم بل هو لقصد الاختصاص نظير قوله تعالى :"إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ
جَمِيعاً" "يونس :٤" ، وقوله :"وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر
كُلُّهُ" "هود :١٢٣" ، وقوله :"كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ" "الأنبياء :٩٣" وغير ذلك من الآيات.
ومن هذا الباب قوله تعالى :"إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ الساعة" "فصلت :٤٧" فعلم الساعة مختص بالله وحده لا يعلمه أحد غيره ونحوه قوله تعالى :"إِنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ الساعة" "لقمان :٣٤" فقدم الظرف الذي هو الخبر على المبتدأ وهو نظير الآية السابقة.
ونحوه قوله تعالى :"وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لَا يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ" "الأنعام :٥٩" فقدم الظرف الذي هو الخبر على المبتدأ "مفاتح الغَيْب" وذلك لاختصاصه سبحانه بعلم الغَيْب .ألا ترى كيف أكد ذلك الاختصاص بأسلوب آخر هو أسلوب القَصْر فقال :"لا يعلمها إلاّ هو" ؟
وقد يكون التقديم من هذا النوع لغرض آخر كالمدح والثناء والتعظيم والتحقير وغير ذلك من الأغراض، إلا أن الأكثر فيه أن يفيد الاختصاص .ومن التقديم الذي لا يفيد الاختصاص قوله تعالى :"وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ" "الأنعام :٨٤" فهذا ليس من باب التخصيص إذ ليس معناه أننا ما هدينا إلا نوحاً وإنما هو من باب المدح والثناء .ونحو قوله تعالى :"فَأَمَّا اليتيم فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السآئل فَلَا تَنْهَرْ" "الضحى :٩-١٠" إذ ليس المقصود به جوازُ قهرِ غير اليتيم ونهر غير السائل، وإنما هو باب التوجيه فإن اليتيم ضعيف وكذلك السائل وهما مظنّة القهر، فقدمهما للاهتمام بشأنهما والتوجيه إلى عدم استضعافهما.

٢ -تقديم اللفظ وتأخيره على غير العامل.
إن تقديم الألفاظ بعضها على بعض له أسباب عديدة يقتضيها المقام وسياق القول، يجمعها قولهم :إن التقديم إنما يكون للعناية والاهتمام .فما كانت به عنايتك أكبر قَدَّمتَهُ في الكلام .والعناية باللفظة لا تكون من حيث إنها لفظة معينة بل قد تكون العناية بحسب مقتضى الحال .ولذا كان عليك أن تقدم كلمة في موضع ثم تؤخرها في موضع آخر لأن مراعاة مقتضى الحال تقتضي ذاك .والقرآن أعلى مثل في ذلك فإننا نراه يقدم لفظة مرة ويؤخرها مرة أخرى على حسب المقام .فنراه مثلاً يقدم السماء على الأرض ومرة يقدم الأرض على السماء، ومرة يقدم الإنس على الجن ومرة يقدم الجن على الإنس، ومرة يقدم الضر على النفع ومرة يقدم النفع على الضر، كل ذلك بحسب ما يقتضيه فن القول وسياق التعبير.
فإذا أردت أن تبين أسباب هذا التقديم أو ذاك فإنه لا يصح الاكتفاء بالقول إنه قدم هذه الكلمة هنا للعناية بها والاهتمام دون تبيين موطن هذه العناية وسبب هذا التقديم.
فإذا قيل لك مثلاً :لماذا قدم الله السماء على الأرض هنا؟
قلت :لأن الاهتمام بالسماء هنا أكبر.
ثم إذا قيل لك :ولماذا قدم الله الأرض على السماء في هذه الآية؟
قلت :لأن الاهتمام بالأرض هنا أكبر.
فإذا قيل لك :ولماذا كان الاهتمام بالسماء هناك أكبر وكان الاهتمام بالأرض أكبر؟
وجب عليك أن تبين سبب ذلك وبيان الاختلاف بين الموطنين، بحيث تُبين أنه لا يصح أو لا يَحْسُنُ تقديم الأرض على السماء فيما قدمت فيه السماء، أو تقديمُ السماء على الأرض فيما قدمت الأرض بياناً شافياً .وكذلك بقية المواطن الأخرى .أما أن تكتفي بعبارة أن هذه اللفظة قدمت للعناية والاهتما بها فهذا وجه من وجوه الإبهام .والاكتفاءُ بها يضيع معرفة التمايز بين الأساليب فلا تعرف الأسلوب العالي الرفيع من الأسلوب المهلهل السخيف، إذ كل واحد يقول لك :إن عنايتي بهذه اللفظة هنا أكبر دون البصر بما يستحقه المقام وما يقتضيه السياق.
إن فن التقديم والتأخير فن رفيع يعرفه أهل البصر بالتعبير والذين أُوتوا حظاً من معرفة مواقع الكلام وليس ادعاء يُدَّعى أو كلمة تقال.
وقد بلغ القرآن الكريم في هذا الفن - كما في غيره - الذروة في وضع الكلمات الوضعَ الذي تستحقه في التعبير بحيث تستقر في مكانها المناسب .ولم يكتف القرآن الكريم في وضع اللفظة بمراعاة السياق الذي وردت فيه بل راعى جميع المواضع التي وردت فيها اللفظة ونظر إليها نظرة واحدة شاملة في القرآن الكريم كله .فترى التعبير متسقاً متناسقاً مع غيره من التعبيرات كأنه لوحة فنية واحدة مكتملة متكاملة.

إن القرآن الكريم دقيق في وضع الألفاظ ورصفها بجنب بعض دقة عجيبة فقد تكون له خطوط عامة في التقديم والتأخير، وقد تكون هناك مواطن تقتضي تقديم هذه اللفظة أو تلك، كل ذلك مراعى فيه سياق الكلام والاتساق العام في التعبير على أكمل وجه وأبهى صورة .وسنوضح هذا القول المجمل ببيان شاف.

إن القرآن - كما ذكرت - يقدم الألفاظ ويؤخرها حسبما يقتضيه المقام فقد يكون سياق الكلام - مثلاً - متدرجاً حسب القدم والأولية في الوجود، فيرتب ذكر الكلمات على هذا الأساس فيبدأ بالأقدم ثم الذي يليه وهكذا وذلك نحو قوله تعالى :"وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ" "الذاريات :٥٦" فخلق الجن قبل خلق الإنس بدليل قوله تعالى :"والجآن خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السموم" "الحجر :٢٧" فذكر الجن أولاً ثم ذكر الإنس بعدهم.

ونحو قوله تعالى :"لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ" "البقرة :٢٥٥" لأن السِّنة وهي النعاس تسبق النوم فبدأ بالسنة ثم النوم.

ومن ذلك تقديم عاد على ثمود قال تعالى :"وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ" "العنكبوت :٣٨" فإن عاداً أسبق من ثمود.

وجعلوا من ذلك تقديم الليل على النهار والظلمات على النور قال تعالى :"وَهُوَ الذي خَلَقَ الليل والنهار والشمس والقمر" "الأنبياء :٣٣" فقدم الليل لأنه أسبق من النهار وذلك لأنه قبل خلق الأجرام كانت الظلمة، وقدم الشمس على القمر لأنها قبله في الوجود .وقال :"يُقَلِّبُ الله الليل والنهار" "النور :٤٤" إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة .ومثل تقديم الليل على النهار تقديم الظلمات على النور كما ذكرت .قال تعالى :"وَجَعَلَ الظلمات والنور" "الأنعام :١" وذلك لأن الظلمة قبل النور لما مر في الليل.

قالوا :ومن ذلك تقديم العزيز على الحكيم حيث ورد في القرآن الكريم قال تعالى :"وَهُوَ العزيز الحكيم" "الحشر :١" قالوا :لأنه عَزَّ فَحكَمَ.

ومنه تقديم القوة على العزة لأنه قوي فعزّ أي غلب فالقوة أول قال تعالى :"إِنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ" "الحج :٤٠، ٤٧" وقال :"وَكَانَ الله قَوِيّاً عَزِيزاً" "الأحزاب :٢٥".

وقد يكون التقديم بحسب الفضل والشرف، ومنه تقديم الله سبحانه في الذكر كقوله تعالى :"وَمَن يُطِعِ الله والرسول فأولائك مَعَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النبيين والصديقين والشهدآء والصالحين وَحَسُنَ أولائك رَفِيقاً" "النساء :٦٩". فقدم الله على الرسول، ثم قدم السعداء من الخلق بحسب تفاضلهم، فبدأ بالأفضلين وهم النبيون ثم ذكر من بعدَهم بحسب تفاضلهم .كما تدرج من القلة إلى الكثرة فبدأ بالنبيين وهم أقل الخلق، ثم الصدّيقين وهم أكثر، ثم الشهداء ثم الصالحين، فكل صنف أكثر من الذي قبله فهو تدرج من القلة إلى الكثرة ومن الأفضل لى الفاضل .ولا شك أن افضل الخلق هم أقل الخلق إذ كلّما ترقى الناس في الفضل قلَّ صنفهم.

ومن ذلك قوله تعالى :"وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيين مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وموسى وَعِيسَى ابن مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقاً غَلِيظاً" "لأحزاب :٧" فبدأ بالرسول لأنه أفضلهم.
وجعلوا من ذلك تقديم السمع على البصر قال تعالى :"وَهُوَ السميع البصير" "الشورى :١١، عافر :٢٠" وقال :"هُوَ السميع البصير" "الإسراء :١، غافر :٥٦".
وقال :"إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً" "الإنسان :٢".
قدم السمع على البصر.
وقال :"وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً" "الفرقان :٧٣".
فقدم الصُمّ وهم فاقدو السمع على العميان هم فاقدو البصر .قالوا :لأن السمع أفضل .قالوا :والدليل على ذلك أن الله لم يبعث نبياً أَصَمَّ، ولكن قد يكون النبي أعمى كيعقوب عليه السلام فإنه عمي لفقدِ ولده.
والظاهر أن السَّمع بالنسبة إلى تلقي الرسالة أفضل من البصر، ففاقد البصر يستطيع أن يفهم ويعي مقاصد الرسالة فإن مهمة الرسل التبليغ عن الله .والأعمى يمكن تبليغه بها ويتيسر استيعابه لها كالبصير، غير أن فاقد السمع لا يمكن تبليغه بسهولة .فالأصم أنأى عن الفهم من الأعمى، ولذا كان من العميان علماء كبار بخلاف الصُّمِّ .فلكون متعلق ذلك التبليغ كان تقديم السمع أولى.
ويمكن أن يكون تقديم السمع على البصر لسبب آخر عدا الأفضلية، وهو أن مدى السمع أقل من مدى الرؤية، فقدم ذا المدى الأقل متدرجاً من القصر إلى الطول في المدى، ولذا حين قال موسى في فرعون :"إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يطغى" "طه :٤٥" قال الله تعالى :"قَالَ لاَ تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وأرى" "طه :٤٦" فقد فقدم السمع لأنه يوحي بالقرب إذ الذي يسمعك يكزن في العادة قريباً منك بخلاف الذي يراك فإنه قد يكون بعيداً وإن كان الله لا يندّ عن سمعه شيء.
وقد يكون التقديم بحسب الرتبة وذلك كقوله تعالى :"وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ" "القلم :١٠-١٢"" فإن الهمَّاز هو العيَّاب وذلك لا يفتقر إلى مشي بخلاف النميمة فإنها نقلٌ للحديثِ من مكان إلى مكان عن شخص إلى شخص."
فبدأ بالهماز وهو الذي يعيب الناس وهذا لا يفتقر إلى مشي ولا حركة، ثم انتقل إلى مرتبة أبعد في الإيذاء وهو المشي في النميمة، ثم انتقل إلى مرتبة أبعد من الإيذاء، وهو أنه يمنع الخير عن الآخرين، وهذه مرتبة أبعد في الإيذاء مما تقدمها .ثم انتقل إلى مرتبة أخرى أبعد مما قبلها وهو الاعتداء، فإن منع الخير قد لا يصحبه اعتداء، أما العدوان فهو مرتبة أشد في الإيذاء .ثم ختمها

بقوله :"أثيم" وهو وصف جامع لأنواع الشرور، فهي مرتبة أشد إيذاءً .جاء
في "بدائع الفوائد"" : وأما تقدم "هماز" على "مشاء بنميم" فالرتبة لأن
المشي مرتب على القعود في المكان .والهماز هو العياب وذلك لا يفتقر إلى
حركة وانتقال من موضعه بخلاف النيميم .وأما تقدم "مناع
للخير" على "معتدٍ" فبالرتبة أيضاً لأن المناع يمنع من نفسه والمعتدي يعتدي
على غيره ونفسه قبل غيره."
وجعلوا منه تقدم السمع على العلم حيث وقع في القرآن الكريم كقوله
تعالى :"وَهُوَ السميع العليم" "البقرة :١٣٧" وقوله :"إِنَّهُ هُوَ السميع
العليم" "الأنفال :٦١" وذلك أنه" خبر يتضمن التخويف والتهديد، فبدأ بالمسع
لتعلقه بما يقرب كالأصوات وهمس الحركات، فإن مَنْ سمع حِسَكَ وخَفيّ
صوتك أقرب إليك في العادة ممن يقال لك :إنه يعلم وإن كان علمه تعالى
متعلقاً بما ظهر وبطن وواقعاً على ما قرب وشطن .ولكن ذكر السميع أوقعُ
في باب التخويف من ذكر العليم فهو أولى بالتقديم."
ويمكن أن يُقال :إن السمع من وسائل العلم فهو يسبقه.
وجعلوا منه أيضاً تقديم المغفرة على الرحمة نحو قوله تعالى :"إِنَّ الله غَفُورٌ
رَّحِيمٌ" "البقرة :١٧٣" في آيات كثيرة وقوله :"وَكَانَ الله غَفُوراً
رَّحِيماً" "النساء :١٠٠" قالوا :وسبب تقديم الغفور على الرحيم أن" المغفرة
سلامة والرحمة غينمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة وإنما تأخرت في آية
سبأ في قوله :"يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأرض وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السمآء
وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرحيم الغفور" "سبأ :٢" فالرحمة شملتهم جميعاً
والمغفرة تخص بعضاً .والعموم قبل الخصوص بالرتبة."
وإيضاح ذلك أن جميع الخلائق من الإنس والجن والحيوان وغيرهم محتاجون
إلى رحمته، فهي برحمته تحيا وتعيش وبرحمته تتراحم .وأما المغفرة فتخص
المكلفين فالرحمة أعم.
ومن التقديم بالرتبة أيضاً قوله تعالى في من يكنز الذهب والفضة :"يَوْمَ يحمى
عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فتكوى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ" "التوبة :٣٥" فبدأ
بالجباة ثم الجنوب ثم الظهور" قيل :لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا وإذا
ضمهم وإياه مجلس أزْوَرُّوا عنه وتولوا بأركانهم وولّوهُ ظهورهم ."فتدرج
بحسب الرتبة.
وقد يكون التقديم بحسب الكثرة والقلة فقد يرتب المذكورات متدرجاً من
القلة إلى الكثرة حسبما يقتضيه المقام وذلك نحو قوله تعالى :"أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ
لِلطَّائِفِينَ والعاكفين والركع السجود" "البقرة :١٢٥" فكل طائفة هي أقل من
التي بعدها فتدرّج من القلة إلى الكثرة .فالطائفون أقل من العاكفين لأن
الطواف لا يكون إلاّ حول الكعبة .والعكوف يكون في المساجد
عموماً .والعاكفون أقل من الراكعين لأن الركوع أي :الصلاة تكون في كل
أرض طاهرة، أما العكوف فلا يكون إلاّ في المساجد .والراكعون أقل من

الساجدين وذلك لأن لكل ركعة سجدتين ثم أن كل راكع لا بد أن يسجد وقد يكون سجود ليس له ركوع كسجود التلاوة وسجود الشكر .فهو هنا تدرّج من القلة إلى الكثرة.
ولهذا التدرج سبب اقتضاه المقام فإن الكلام على بيت الله الحرام .قال تعالى :"وَعَهِدْنَآ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ والعاكفين والركع السجود" "البقرة :١٢٥" فالطائفون هم ألصق المذكورين بالبيت لأنهم يطوفون حوله، فبدأ بهم ثم تدرج إلى العاكفين في هذا البيت أو في بيوت الله عموماً ثم الرُّكَّعِ السجود الذي يتوجهون إلى هذا البيت في ركوعهم وسجودهم في كل الأرض.
ونحوه قوله تعالى :"ياأيها الذين آمَنُواْ اركعوا واسجدوا وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وافعلوا الخير لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" "الحج :٧٧" فبدأ بالركوع وهو أقل المذكورات، ثم السجود وهو أكثر، ثم عبادة الرب وهو أعم، ثم فعل الخير.
وقد يكون الكلام بالعكس فيتدرج من الكثرة إلى القلة وذلك نحو قوله تعالى :"يامريم اقنتي لِرَبِّكِ واسجدي واركعي مَعَ الراكعين" "آل عمران :٤٣" فبدأ بالقنوت وهو عموم العبادة، ثم السجود وهو أقل وأخص، ثم الركوع وهو أقل وأخص.
ومنه قوله تعالى :"هُوَ الذي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ" "التغابن :٢" فبدأ بالكفار لأنهم أكثر قال تعالى :"وَمَآ أَكْثَرُ الناس وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ" "يوسف :١٠٣".
ونحوه قوله تعالى :"ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات بِإِذْنِ الله" "فاطر :٣٢" فقدم الظالم لكثرته ثم المقتصد وهو أقل ممن قبله ثم السابقين وهم أقل .جاء في "الكشاف" في هذه الآية :"فإن قلت :لِمَ قدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق؟ قلت :للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم وأن المقتصدين قليلا بالإضافة إليهم والسابقون أقل من القليل".
ألا ترى كيف قال الله تعالى في السابقين :"ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين" "الواقعة :١٣-١٤" إشارة إلى نُدرتهم وقلة وجودهم؟
قالوا :ومن هذا النوع من التقديم قوله تعالى :"والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا" "المائدة :٣٨" قدم السارق على السارقة لأن السرقة في الذكور أكثر .وقدم الزانية على الزاني في قوله تعالى :"الزانية والزاني فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ" "النور :٢" لأن الزنى فيهن أكثر.
ألا ترى أن قسماً من النساء يحترفن هذه الفعلة الفاحشة؟ وجاء في حاشية ابن المنير على" الكشاف "قوله" :وقدم الزانية على الزاني والسبب فيه أن الكلام الأول في حكم الزنى والأصل فيه المرأة لما يبدو منها من الإيماض والإطماع والكلام"، و"لأن مفسدته تتحقق بالإضافة إليها."

وقد يكون التقديم لملاحظ أخرى تتناسب مع السياق فنراه يقدم لفظة في موضع ويؤخرها في موضع آخر بحسب ما يقتضي السياق.
فمن ذلك تقديم لفظ "الضرر" على "النفع" وبالعكس قالوا :إنه حيث تقدم النفع على الضر فلتقدم ما يتضمن النفع، قال تعالى :"قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَآءَ الله" "الأعراف :١٨٨" فقدم النفع على الضرر وذلك لأنه تقدمه في قوله "مَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتدي وَمَن يُضْلِلْ فأولائك هُمُ الخاسرون" "الأعراف :١٧٨" فقدم الهداية على الضلال، وبعد ذلك قال :"وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغيب لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخير وَمَا مَسَّنِيَ السواء" "الأعراف :١٨٨" فقدم الخير على السوء ولذا قدم النفع على الضرر إذ هو المناسب للسياق.
وقال :"قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَآءَ الله" "يونس :٤٩" فقدم الضرر على النفع وقد قال قبل هذه الآية :"وَلَوْ يُعَجِّلُ الله لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ" "يونس :١١" وقال :"وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ" "يونس :١٢".
فقدم الضر على النفع في الآيتين .ويأتي بعد هذه الآية قوله :"قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ المجرمون" "يونس :٥٠" فكان المناسب تقديم الضرر على النفع ههنا.
وقال :"قُلْ أفاتخذتم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً" "الرعد :١٦" . فقدَّم النفع على الضرر، قالوا :وذلك لتقدم قوله تعالى :"وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً" "الرعد :١٥" فقدم الطوع على الكره.
وقال :"فاليوم لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلاَ ضَرّاً" "سبأ :٤٢" فقد النفع على الضر، قالوا :وذلك لتقدم قوله :"قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ" "سبأ :٣٩" فقدم البسط.
وغير ذلك من مواضع هاتين اللفظتين.
ومن ذلك تقديم الرحمة والعذاب .فقد قيل إنه حيث ذكر الرحمة والعذاب بدأ بذكر الرحمة كقوله تعالى :"يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ" "المائدة :١٨" وقوله :"إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ" "فصلت :٤٣" وقوله :"غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب شَدِيدِ العقاب ذِي الطول" "غافر :٣".
وعلى هذا جاء قول النبي صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى" :إن رحمتي سبقت غضبي"
وقد خرج عن هذه القاعدة مواضع اقتضت الحكمةُ فيها تقديم ذكر العذاب ترهيباً وزجراً .من ذلك قوله تعالى في سورة المائدة :"أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ والله على كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ" "المائدة :٤٠" لأنها وردت في سياق ذِكْرِ قُطّاع الطرق والمحاربين والسراق فكان المناسب تقديم ذكر العذاب وذلك أنها وردت بعد وقوله تعالى :"مِنْ أَجْلِ ذلكَ كَتَبْنَا على بني إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأرض فَكَأَنَّمَا قَتَلَ الناس جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً" "المائدة :٣٢" فقدم القتل على الإحياء، وثم قال بعدها :"إِنَّمَا جَزَآءُ الذين يُحَارِبُونَ اللهِ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأرض فَسَاداً أَن يقتلوا أَوْ يصلبوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأرض ذلك لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدنيا وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابٌ عَظِيمٌ" "المائدة :٣٣" ، ثم جاء بعدها :"والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ الله والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ" "المائدة :٣٨" ، ثم جاء بعدها قوله تعالى :"أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" "المائدة :٤٠".

فأنت ترى أن المناسب ههنا تقديم العذاب على المغفرة .جاء في "الكشاف" في قوله تعالى :"والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا" "المائدة :٣٨" إلى قوله :"يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ" "المائدة :٤٠".

"فإن قلت :لِمَ قدم التعذيب عن المغفرة؟

قلت :لأنه قُوبل بذلك تَقدُّمُ السرقةِ على التوبة."

ومن ذلك قوله تعالى في سورة العنكبوت :"يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ" "العنكبوت :٢١" وذلك لأنها في سياق إنذار إبراهيم لقومه ومخاطبة نمورد وأصحابه وأن العذاب وقع بهم في الدنيا .فقد أنذر إبراهيم قومه قائلاً :"إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فابتغوا عِندَ الله الرزق" "العنكبوت :١٧" ثم قال :"وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين" "العنكبوت :١٨" وهددهم بعد بقوله :"وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ * والذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ الله وَلِقَآئِهِ أولائك يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وأولائك لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" "العنكبوت :٢٢-٢٣" فأنت ترى أن السياق يقتضي العذاب هنا.

وقد يكون التقديم والتأخير على نمط آخر غير الذي ذكرت من تقديم الضرر والنفع والعذاب والمغفرة وغيرها من الخطوط العامة .فقد يقدم لفظة في كان ويؤخرها في مكان آخر حسبما يقتضيه السياق.

فمن ذلك قوله تعالى :"وَجَعَلْنَا فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ" "الأنبياء :٣١"

وقوله :"والله جَعَلَ لَكُمُ الأرض بِسَاطاً * لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً" "نوح :١٩-٢٠" فقد الفجاج على السبل في الآية الأولى، وأخَّرها عنها في آية نوح وذلك أن الفج في الأصل هو الطريق في الجبل أو بين

الجبلين، فلما تقدم في آية الأنبياء ذكر الرواسي وهي الجبال قدم الفجاج لذلك، بخلاف آية نوح فإنه لم يرد فيها ذكرٌ للجبال فأخرها.
فوضع كل لفظة في الموضع الذي تقتضيه.
ومثل ذلك قوله تعالى :"وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ الله أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ الله وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِنْ مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ" "آل عمران :١٥٧-١٥٨" فقدم القتل على الموت في الآية الأولى، وقدم الموت في الآية التي تليها وسبب ذلك - والله أعلم - أنه لما ذكر في الآية الأولى "في سبيل الله" وهو الجهاد قدم القتل إذ هو المناسب لأن الجهاد مظنة القتل، ثم هو الأفضل أيضاً ولذا ختمها بقوله :"لمغفرة من الله ورحمة" فهذا جزاء الشهيد ومن مات في سبيل الله.
ولما لم يقل في الثانية :"في سبيل الله" قدم الموت على القتل لأنه الحالة الطبيعية في غير الجهاد ثم ختمها بقوله :"لإلى الله تحشرون" إذ الميت والمقتول كلاهما يحشرُهُ الله إليه .فشتان ما بين الخاتمتين .فلم يزد في غير الشهيد ومن مات على أن يقول :"لإلى الله تحشرون" وقال في خاتمة الشهيد :"لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون" فوضع كل لفظة الموضع الذي يقتضيه السياق.
وقال تعالى :"أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ المآء إِلَى الأرض الجرز فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ" "السجدة :٢٧" فقدم الأنعام على الناس.
وقال في مكان آخر :"وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ" "عبس :٣١-٣٢" فقدم الناس على الأنعام وذلك أنه لما تقدم ذكر الزرع في آية السجدة ناسب تقديم الأنعام، بخلاف آية عبس فإنها في طعام الإنسان قال تعالى :"فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ" "عبس :٢٤" إلى أن يقول :"فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً* وَحَدَآئِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ" "عبس :٢٧-٣٢" ألا ترى كيف ذكر طعام الإنسان من الحب والفواكة أولاً ثم ذكر طعام الأنعام بعده وهو الأبّ أي :التبن، فناسب تقديم الإنسان على الأنعام ههنا كما ناسب تقديم الأنعام على الناس ثَمَّ .فسبحان الله رب العالمين.
ومن ذلك قوله تعالى :"وَلَا تقتلوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ" "الأنعام :١٥١".
وقوله :"وَلَا تقتلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم" "الإسراء :٣١" فقدم رزق الآباء في الآية الأولى على الأبناء، وفي الآية الثانية قدم رزق الأبناء على الآباء، وذلك أن الكلام في الآية الأولى موجه إلى الفقراء دون الأغنياء فهم يقتلون أولادم من الفقر الواقع بهم لا أنهم يخشونه، فأجبت البلاغةُ تقديمَ عِدَتِهم بالرزق تكميل العِدَةِ برزق الأولاد.
وفي الآية الثانية الخطاب لغير الفقراء وهم الذي يقتلون أولادهم خشية الفقر لا أنهم مفتقرقون في الحال، وذلك أنهم يخافون أن تسلبهم كلف الأولاد ما

بأيديهم من الغنى فوجب تقديم العدة برزق الأولاد فيأمنوا ما خافوا من الفقر .فقال :لا تقتلوهم فإنا نرزقهم وإياكم، أي إن الله جعل معهم رزقهم فهم لا يشاركونكم في رزقكم فلا تخشوا الفقر.
ومن ذلك قوله تعالى :"خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ وعلى أبصارهم غِشَاوَةٌ" "البقرة :٧".
وقوله :"وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً" "الجاثية :٢٣" فقدم القلوب على السمع في البقرة، وقدم السمع على القلب في الجاثية وذلك لأنه في البقرة ذلك القلوب المريضة فقال :"فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً" "البقرة :١٠" فقدم القلوب لذلك.
وفي الجاثية ذكر الأسماع المعطلة فقال :"وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءايات الله تتلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا" "الجاثية :٧-٨" فقدم السمع .فوضع كل لفظة في المكان الذي يناسبها.
ثم إن آية البقرة ذكرت من أصناف الكافرين من هم أشد ضلالاً وكفراً ممن ذكرتهم آيةُ الجاثية فقد جاء فيها قوله تعالى :"إِنَّ الذين كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ وعلى أبصارهم غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ" "البقرة :٦-٧".
وجاء في الجاثية قوله :"أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلاهه هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ الله على عِلْمٍ وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ الله أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ" "الجاثية :٢٣" فقد ذكر في البقرة أن الإنذار وعدمه عليهم سواء وأنهم مَيؤوسٌ من إيمانهم .ولم يقل مثل ذلك في الجاثية.
ثم كرر حرف الجر "على" مع القلوب والأسماع في آية البقرة مما يفيد توكيد الختم فقال :"على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ" "البقرة :٧" . ولم يقل مثل ذلك في الجاثية، بل انتظم الأسماع والقلوب بحرف جر واحد فقال :"وختم على سمعه وقلبه".
ثم قال في البقرة :"وعلى أبصارهم غِشَاوَةٌ" "البقرة :٧" بالجملة الاسمية، والجملة الاسمية كما هو معلوم تفيد الدوام والثبات، ومعنى ذلك أن هؤلاء لم يسبق لهم أن أبصروا وإنما هذا شأنهم وخِلْقتهم فلا أملَ في إبصارهم في يوم من الأيام.
في حين قال في الجاثية :"وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً" "الجاثية :٢٣" بالجملة الفعلية التي تفيد الحدوث .ومعلوم أن "جعل" فِعلٌ ماض، ومعنى ذلك :أن الغشاوة لم تكن قبل الجعل يدلك على ذلك قوله تعالى :"وَأَضَلَّهُ الله على عِلْمٍ" "الجاثية :٢٣" مما يدل على أنه كان مبصراً قبل تَردِّيه .ثم ختم آية البقرة بقوله :"وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ" "البقرة :٧" ولم يقل مثل ذلك في الجاثية .فدل على أن صفات الكفر في البقرة أشد تمكناً فيه.
ولذا قدم ختم القلب على ما سواه لأنه هو الأهم، فإن القلب هو محل الهدى والضلال، وإذا ختم عليه فلا ينفع سمع ولا بصر قال تعالى :"فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى

الأبصار ولاكن تعمى القلوب التي فِي الصدور" "الحج :٤٦".
وقال صلى الله عليه وسلم" :ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"
فكان تقديم القلب في البقرة أولى وأنسب، كما أن تقديم السمع في الجاثية أنسب.
ومنه قوله تعالى :"لَقَدْ وُعِدْنَا هاذا نَحْنُ وَآبَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين" "النمل :٦٨".
وقوله :"لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَآؤُنَا هاذا مِن قَبْلُ إِنْ هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين" "المؤمنون :٨٣".
فقدم "هذا" في الآية الأولى وأخرها في الآية "المؤمنون" وذلك" أن ما قبل الأولى :"أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَآؤُنَآ أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ" "النمل :٦٧" ، وما قبل الثانية :"أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ" "المؤمنون :٨٢" فالجهة المنظور فيها هناك كونهم أنفسهم وآباؤهم تراباً .والجهة المنظرو فيها هنا كونهم تراباً وعظاماً .ولا شبهة أن الأولى أدخلُ عندهم في تبعيد البعث ذلك أن البلى في الحالة الأولى أكثر وأشد وذلك أنهم أصبحوا تراباً مع آبائهم .وأما في الآية الثانية فالبلى أقل وذلك أنهم تراب وعظام فلم يصبهم ما أصاب الأولين من البلى، ولذا قدم "هذا" في الآية الأولى لأنه أدعى إلى العجب والتعبيد.
ومن ذلك قوله تعالى :"ذلكم الله رَبُّكُمْ لا إلاه إِلاَّ هُوَ خالق كُلِّ شَيْءٍ فاعبدوه وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ" "الأنعام :١٠٢".
وقوله :"ذلكم الله رَبُّكُمْ خالق كُلِّ شَيْءٍ لاَّ إلاه إِلاَّ هُوَ فأنى تُؤْفَكُونَ" "غافر :٦٢".
فأنت ترى أنه قدم في آية الأنعام :"لا إلاه إِلاَّ هُوَ" "الأنعام :١٠٢" وأخر "خالق كُلِّ شَيْءٍ" "الأنعام :١٠٢" وفي غافر جاء بالعكس .وذلك أنه في سياق الإنكار على الشرك والدعوة إلى التوحيد الخالص ونَفْيِ الصاحبةِ والولد قال :"وَجَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ الجن وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وبنات بِغَيْرِ عِلْمٍ سبحانه وتعالى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السماوات والأرض أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صاحبة وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذلكم الله رَبُّكُمْ لا إلاه إِلاَّ هُوَ خالق كُلِّ شَيْءٍ فاعبدوه وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ" "الأنعام :١٠٠-١٠٢".
فأنت ترى أن لكلام على التوحيد ونفي الشرك والشركاء والصاحبة والولد ولذا قدم كلمة التوحيد :"لا إلاه إِلاَّ هُوَ" "الأنعام :١٠٢" على :"خالق كُلِّ شَيْءٍ" "الأنعام :١٠٢" وهو المناسب للمقام.
ثم انظر كيف قال :"وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ" "الأنعام :١٠١" بعد قوله :"أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صاحبة" "الأنعام :١٠١" فأخَّر الخلق بعد التوحيد، وهو نظير تأخيره بعد قوله :"لا إلاه إِلاَّ هُوَ" "الأنعام :١٠١" فقال :"لا إلاه إِلاَّ هُوَ خالق كُلِّ شَيْءٍ" "الأنعام :١٠١" وهو تناظر جميل.

أما في "غافر" فليس السياق كذلك وإنما هو في سياق الخلق وتعداد النعم قال تعالى :"لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ولاكن أَكْثَرَ الناس لَا يَعْلَمُونَ" "غافر :٥٧" إلى أن يقول :"وَقَالَ رَبُّكُمُ ادعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ * الله الذي جَعَلَ لَكُمُ الليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً إِنَّ الله لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ولاكن أَكْثَرَ الناس لَا يَشْكُرُونَ * ذلكم الله رَبُّكُمْ خالق كُلِّ شَيْءٍ لاَّ إلاه إِلاَّ هُوَ فأنى تُؤْفَكُونَ" "غافر :٦٠-٦٢".
فالكلام كما ترى على الخَلْق وعلى نعم الله وفضله على الناس لا على التوحيد فقدم الخلق لذلك فوضع كل تعبير في موطنه اللائق حسب السياق.
جاء في "البرهان" للكرماني" :قوله :"ذلكم الله رَبُّكُمْ خالق كُلِّ شَيْءٍ" "غافر :٦٢" في هذه السورة .وفي المؤمن "خالق كُلِّ شَيْءٍ لاَّ إلاه إِلاَّ هُوَ" "غافر :٦٢" لأن فيها قبله ذكر الشركاء والبنين والبنات، فدمغ قول قائله بقوله :"لاَّ إلاه إِلاَّ هُوَ" "غافر :٦٢" ثم قال :"خالق كُلِّ شَيْءٍ" "غافر :٦٢" . وفي "المؤمن" قبله ذكر الخلق وهو "لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس" "غافر :٥٧" فخرج الكلام على إثبات خلق الناس لا على نفي الشريك فقدم في كل سورة ما يقتضيه قبله من الآيات."
ومن ذلك قوله تعالى :"إِنَّ الذين آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله" "الأنفال :٧٢".
وقوله :"الذين آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ الله وأولائك هُمُ الفائزون" "التوبة :٢٠".
فقدم الأموال والأنفس على "في سبيل الله" في سورة الأنفال .وقدم "في سبيل الله" على الأموال والأنفس في سورة التوبة .وذلك لأنه في سورة الأنفال تقدم ذكر المال والفداء والغنيمة من مثل قوله تعالى :"تُرِيدُونَ عَرَضَ الدنيا" "الأنفال :٦٧" وهو المال الذي فدى الأسرى به أنفسهم، وقوله :"لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ الله سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" "الأنفال :٦٨" أي :من الفداء، وقوله :"فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً" "الأنفال :٦٩" وغير ذلك فقدم المال ههنا، لأن المال كان مطلوباً لهم حتى عاتبهم الله في ذلك فطلب أن يبدؤوا بالتضيحة به.
وأما في سورة التوبة فقد تقدم ذكر الجهاد في سبيل الله من مثل قوله تعالى :"قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ" "التوبة :١٤" وقوله :"أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ الله وَلَا رَسُولِهِ وَلَا المؤمنين وَلِيجَةً والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" "التوبة :١٦".
وقوله :"أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاج وَعِمَارَةَ المسجد الحرام كَمَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ الله لَا يَسْتَوُونَ عِندَ الله" "التوبة :١٩".

فقدم ذكر :"في سبيل الله" على الأموال والأنفس وهو المناسب ههنا للجهاد كما قدم الأموال والأنفس هناك لأنه المناسب للأموال.
ومنه قوله تعالى :"وَتَرَى الفلك مَوَاخِرَ فِيهِ" "النحل :١٤".
وقوله :"وَتَرَى الفلك فِيهِ مَوَاخِرَ" "فاطر :١٢".
قدم "مواخر" على الجار والمجرور في النحل وقدم "فيه" على "مواخر" في فاطر .وذلك أنه تقدم الكلام في النحل على وسائط النقل، فذكر الأنعام وأنها تحمل الأثقال، وذكر الخيل والبغال والحمير لنركبها وزنية، ثم ذكر الفلك وهي واسطة نقل أيضاً فقال :"وَهُوَ الذي سَخَّرَ البحر لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الفلك مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" "النحل :١٤".
قدم المواخر لأنها من صفات الفُلْك وهذا التقديم مناسب في سياق وسائق النقل .وليس السياق كذلك في سورة فاطر وإنما قال الله :"والله خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أنثى وَلَا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ" "فاطر:١١" ثم قال :"وَمَا يَسْتَوِي البحران هاذا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وهاذا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الفلك فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" "فاطر :١٢".
فالكلام هنا على البحر وأنواعه وما أودع الله فيه من نعم .فلما كان الكلام على البحر قدم ضمير البحر على المخر فقال :"وترى الفلك فيه مواخر".
فانظر كيف أنه لما كان الكلام على وسائط النقل والفلك قدم حالة الفلك، ولما كان الكلام على البحر ذكر ما يتعلق به.
ومن ذلك قوله تعالى :"وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هاذا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُوراً" "الإسراء :٨٩".
وقوله :"وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هاذا القرآن لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً" "الكهف :٥٤".
قدم "للناس" على "في هذه القرآن" في الإسراء وأخرها في "الكهف" وذلك لأنه تقدم الكلام في "الإسراء" على الإنسان ونِعَم الله عليه ورحمته به فقال :"وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشر كَانَ يَئُوساً" "الإسراء :٨٣".
فناسب ذلك تقديم الناس في سورة الإسراء.
ولم يتقدم مثل ذلك في الكهف.
ثم انظر في افتتاح كل من السورتين فقد بدأ سورة الكهف بقوله :"الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا * قَيِّماً لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً" "الكهف :١-٢".

فقد بدأ السورة بالكلام على الكتاب وهو القرآن ثم ذكر بعده أصحاب الكهف وذكر موسى والرجل الصالح وذكر ذا القرنين وغيرهم من الناس، فبدأ بذكر القرآن ثم ذكر الناس، فكان المناسب أن يقدم ذكر القرآن على الناس في هذه الآية كما في البدء.
وأما سورة الإسراء فقد بدئت بالكلام على الناس ثم القرآن .فقد بدئت بقوله تعالى :"سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ" "الإسراء :١".
ثم تكلم على بني إسرائيل، ثم قال بعد ذلك:
"إِنَّ هاذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً" "الإسراء :٩".
فكان المناسب أن يتقدم ذكر الناس فيها على ذكر القرآن في هذه الآية .وهذا تناسب عجيب بين الآية ومفتتح السورة في الموضعين.
ثم انظر خاتمة الآيتين، فقد ختم آية الإسراء بقوله :"فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُوراً" "الإسراء :٨٩" والكُفُور :هو جحد النعم، فناسب ذلك تقدم ذكر النعمة والرحمة والفضل ألا ترى أن مقابل الشكر الكفران ومقابل الشاكر الكفور قال تعالى :"إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً" "الإنسان :٣" فكان ختام الآية مناسباً لما تقدم من السياق.
أما آية الكهف فقد ختمها بقوله :"وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً" "الكهف :٥٤" لما ذكر قبلها وبعدها من المحاورات والجدل والمراء من مثل قوله تعالى :"فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ" "الكهف :٣٤" . وقوله :"قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ" "الكهف :٣٧".
وبعدها :"ويجادل الذين كَفَرُواْ بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق" "الكهف :٥٦".
وذكر محاورة موسى والرجل الصالح ومجادلته فيما كان يفعل.
وقال :"فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَآءً ظَاهِراً" "الكهف :٢٢".
ولم يرد لفظ الجدل ولا المحاورة في سورة الإسراء كلها .فما ألطف هذه التناسق وأجمله وما أَجَلَّ هذا الكلام!
ومن ذلك قوله تعالى :"ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صدقاتكم بالمن والأذى كالذي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ الناس وَلاَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين" "البقرة :٢٦٤".
وقوله "مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ على شَيْءٍ ذلك هُوَ الضلال البعيد" "إبراهيم :١٨".
فقال في آية البقرة :"لاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ" "البقرة :٢٦٤" فقدم الشيء وأَخَّرَ الكَسْب.

وقال في سورة إبراهيم :"لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ على
شَيْءٍ" "إبراهيم :١٨" فقدّم الكسب وأخّر الشيء، وذلك أن آية البقرة في
سياق الإنفاق والصدقة، والمنفقُ معطٍ وليس كاسباً، ولذلك أخَّر الكسب
فقال :"لَّا يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ" "البقرة :٢٦٤".
وأما الآية الثانية فهي في سياق العمل، والعامل كاسب فقدم الكسب.
ومن ذلك قوله تعالى :"وَمَا جَعَلَهُ الله إِلاَّ بشرى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا
النصر إِلاَّ مِنْ عِندِ الله العزيز الحكيم" "آل عمران :١٢٦".
وقوله :"وَمَا جَعَلَهُ الله إِلاَّ بشرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النصر إِلاَّ مِنْ عِندِ
الله إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ" "الأنفال :١٠".
فقدم القلوب على الجار والمجرور في آل عمران فقال :"ولتطمئن قلوبكم
به" ، وأخَّرها عنه في الأنفال فقال :"ولتطمئن به قلوبكم" علماً بأن الكلام
على معركة بدر في الموطنين غير أن الموقف مختلف.
ففي آل عمران ذكر معركة بدر تمهيداً لذكر موقعه أحد وما أصابهم فيها من
قرح وحزن والمقام مقام مَسْحٍ على القلوب وطمأنةٍ لها من مثل قوله
تعالى :"وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ
قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القوم قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيام نُدَاوِلُهَا بَيْنَ الناس وَلِيَعْلَمَ الله الذين
آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ والله لَا يُحِبُّ الظالمين" "آل عمران :١٣٩-١٤٠" إلى
غير ذلك من آيات المواساة والتصبير فقال في هذا الموطن :"وَمَا جَعَلَهُ الله
إِلاَّ بشرى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ" "آل عمران :١٢٦" فذكر أن
البشرى "لهم" ، وقَدَّمَ "قلوبهم" على الإمداد بالملائكة فقال :"إِلاَّ بشرى لَكُمْ
وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ" "آل عمران :١٢٦" كل ذلك من قبيل المواساة والتبشير
والطمأنينة.
ولما لم يكن المقام في الأنفال كذلك، وإنما المقام ذكر موقعة بدر وانتصارهم
فيه ودور الإمداد السماوي في هذا النصر وقد فصل في ذلك أكثر مما ذكر في
آل عمران فقال :"إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فاستجاب لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ
الملائكة مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ الله إِلاَّ بشرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النصر إِلاَّ
مِنْ عِندِ الله إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النعاس أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم
مِّن السمآء مَآءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشيطان وَلِيَرْبِطَ على قُلُوبِكُمْ
وَيُثَبِّتَ بِهِ الأقدام * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الذين آمَنُواْ
سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ الرعب فاضربوا فَوْقَ الأعناق واضربوا مِنْهُمْ كُلَّ
بَنَانٍ" "الأنفال :٩-١٢".
أقول لما كان المقام مختلفاً خالف في التعبير.
إنه لما كان المقام في الأنفال مقام الانتصار وإبراز دور الإمداد الرباني
قدم "به" على القلوب والضمير يعود على الإمداد .ولما كان المقام في آل
عمران هو الطمأنة وتسكين القلوب قدمها على الإمداد فقال :"وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ
قُلُوبُكُمْ" "الأنفال :١٠" وزاد كلمة "لكم" فقال :"وَمَا جَعَلَهُ الله إِلاَّ بشرى

لَكَمْ" "آل عمران :١٢٦" زيادة في المواساة والمسح على القلوبَ فجعل كلاً من مقامه.
ومن ذلك قوله تعالى :"إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمَ الخنزير وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ" "البقرة :١٧٣" وقوله :"حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمُ الخنزير وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وَمَآ أَكَلَ السبع إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النصب" "المائدة :٣".
وقوله :"قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" "الأنعام :١٤٥".
فقد قال في آية البقرة :"وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله" "البقرة :١٧٣" فقدم "به" على "لغير الله" . ومعنى :"ما أهل به" : ما رُفع الصوتُ بذبحهِ وهو البهمية.
وقال في آيتي المائدة والأنعام :"وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله" "المائدة :٣" فقدم "لغير الله" على "به" وذلك أن المقام في آية الأنعام هو في الكلام على المفترين على الله ممن كانوا يشرعون للناس باسم الله وهم يفترون عليه فقال :"وَجَعَلُواْ للَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً فَقَالُواْ هاذا للَّهِ بِزَعْمِهِمْ وهاذا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إلى الله وَمَا كَانَ للَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إلى شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ * وكذلك زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ المشركين قَتْلَ أولادهم شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ الله مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَقَالُواْ هاذه أنعام وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَآ إِلاَّ مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وأنعام حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وأنعام لاَّ يَذْكُرُونَ اسم الله عَلَيْهَا افترآء عَلَيْهِ" "الأنعام :١٣٦-١٣٨".
إلى غير ذلك من الآيات التي تبين أن ثمة ذوات غير الله تُحلِّلُ وتُحَرِّمُ مفتريةً على الله، وذوات يزعمون أنها شركاء لله تُعبد معه ونصيبها أكبر من نصيب الله في العبادة، ولذا قدم إبطال هذه المعبودات من غير الله على "به" فقال :"أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ" "الأنعام :١٤٥" لأنه هو مدار الاهتمام والكلام.
والكلام في المائدة أيضاً على التحليل والتحريم ومَنْ بيدِه ذلك، ورفض أية جهة تُحلِّلُ وتُحرِّم من غير الله فإن الله هو يحكم ما يريد .قال :"أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأنعام إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصيد وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ الله يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ * يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ الله * ... حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمُ الخنزير وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ * ... يَسْأَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطيبات وَمَا عَلَّمْتُمْ مِّنَ الجوارح مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ الله فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ واذكروا اسم الله عَلَيْهِ " ... "المائدة :١-٤".

فهو يجعل التحليل والتحريم بيده ويرفض آية جهة أخرى تقوم بذلك, لأن ذلك من الشرك الذي أبطله الإسلام ولذا قدمه في البطلان فقال :"وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ" "المائدة :٣" . ثم إنه جاء في الموطنين بذكر اسم الله على الذبائح فذكر في آية الأنعام أن المشركين لا يذكرون اسم الله على بعض ذبائحهم تعمداً فقال :"وأنعام لاَّ يَذْكُرُونَ اسم الله عَلَيْهَا" "الأنعام :١٣٨" . وأمر في آية المائدة بذكر اسم الله فقال :"واذكروا اسم الله عَلَيْهِ" "المائدة :٤" فناسب ذلك تقديم بطلان ذكر غير الله.

وأما في البقرة فليس كذلك فلم يذكر أن جهة أخرى تقوم بالتحليل والتحريم وإنما الكلام على ما رزق الله عباده من الطيبات فقال :"ياأيها الناس كُلُواْ مِمَّا فِي الأرض حَلَالاً طَيِّباً" "البقرة :١٦٨" . وقال بعدها :"ياأيها الذين آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ واشكروا لِلَّهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمَ الخنزير وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله" "لبقرة :١٧٢-١٧٣".

فلما كان المقام مقام الرزق والطعام والأمر بأكل الطيبات
قدم "به" . والضمير يعود على ما يذبح وهو طعام مناسبة للمقام والله أعلم.

ومن ذلك قوله تعالى :"أَءَمِنتُمْ مَّن فِي السمآء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأرض فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُمْ مِّن فِي السمآء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ" "الملك :١٦-١٧".

وقوله :"قُلْ هُوَ القادر على أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ" "الأنعام :٦٥".

فقدم خَسْفَ الأرض على إرسال الحاصب في آية المُلك، وأخَّر عذابَ الأرض عما يأتي من السماء في آية الأنعام.

وذلك أن آية الملك تَقدَّمها قوله تعالى :"هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولاً فامشوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ" "المُلك :١٥" فكان أنسب شيء في الموعظة تذكيره بخسفها من تحتهم" .أما آية الأنعام فتقدمها قوله تعالى :"وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الموت تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ" "الأنعام :٦١" فصرف هذا الخطاب تفكر النفس في عين الجهة التي ذكر منها القهر، وكان أنسب شيء ذكر منها القهر وكان أنسب شيء ذكر التخويف من تلك الجهة بخلاف آية المُلك."

ومما زاد ذلك حسناً قوله تعالى :"وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم
حَفَظَةً" "الأنعام :٦١" والحَفَظةُ :هم الملائكة، والملائكة مسكنهم في السماء، وربنا يرسلهم من فوق فناسب تقديم هذه الجهة على غيرها.

ونكتفي بهذا القدر من الأمثلة فإن فيها كفاية فيما أحسب فهي تدل على دلالة واضحة على أن التعبير القرآني تعبير مقصود، كلُّ لفظٍ فيه وُضِعَ وضعاً فنياً مقصوداً، وأنه لم يقدم لفظة على لفظة إلا لغرض يقتضيه السياق .وقد رُوعيَ في ذلك التعبير القرآني كله ونظر إليه نظرة واحدة شاملة.

وأظن أن ما مر من الأمثلة تريك شيئاً من فخامة التعبير القرآني وعُلُوِّهِ وأن مثل هذا النَّظْم لا يمكن أن يكون في طوق بشر فسبحان الله رب العالمين.

الذكر والحذف

يدخل في هذا الموضوع ما حذف وأصله أن يذكر، كحذف حرف أو فعل أو اسم مما أصله أن يذكر.
كما يدخل فيه في ما ذكر في موطن، ولم يذكر في موطن آخر يبدو شبيهاً به لأن الموطن أقتضاء.
القسم الأول:
قد يحذف في التعبير القرآن لفظ أو أكثر حسبما يقتضيه السياق، فقد يحذف حرفاً أو يذكره أو يجتزئ بالحركة للدلالة على المحذوف، كل ذلك لغرض بلاغي تلحظ فيه غاية الفن والجمال، فمن ذلك قوله تعالى:
"فَمَا اسطاعوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْباً" "الكهف :٩٧".
وهذه الآية قالها ربنا في السَّدِّ الذي صنعه ذو القرنين من قطع الحديد والنحاس المُذاب .قال تعالى على لسان ذي القرنين :"آتُونِي زُبَرَ الحديد حتى إِذَا ساوى بَيْنَ الصدفين قَالَ انفخوا حتى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً * فَمَا اسطاعوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْباً" "الكهف :٩٦-٩٧".
قال :"فما اسطاعوا أن يظهروه" أي :يصعدوا عليه، فحذف التاء، والأصل :"استطاعوا" ، ثم قال :"وما استطاعوا له نقباً" بإبقاء التاء .وذلك أنه لما كان صعود السد الذي هو سبيكة من قطع الحديد والنحاس أيسرُ من نَقْبهِ وأخف عملاً، خَفَّفَ الفعل للعمل الخفيف، فحذف التاء، فقال :"فما اسطاعوا أن يظهروه" وطَوَّلَ الفعلَ فجاء بأطول بناء له للعمل الثقيل الطويل فقال :"وما استطاعوا له نقباً" فحذف التاء في الصعود وجاء بها في النقب.
ومن ذلك قوله تعالى :"فَلَمَّآ أَحَسَّ عيسى مِنْهُمُ الكفر قَالَ مَنْ أنصاري إِلَى الله قَالَ الحواريون نَحْنُ أَنْصَارُ الله آمَنَّا بالله واشهد بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" "آل عمران :٥٢".
وقوله :"وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قالوا آمَنَّا واشهد بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ" "المائدة :١١١".
فَحُذفت النون من "أنّا" في آية آل عمران، وثَبتت في آية المائدة فقيل :"أننا" وسبب ذلك والله أعلم" أن آية المائدة لما ورد فيها من التفصيل فيما يجب الإيمان به وذلك قوله :"أن آمنوا بي وبرسولي" فجاء على أتم عبارة في المطلوب وأوفاها ناسب ذلك "أننا" على أوفى الحالين وهو الورود على الأصل .ولما لم يقع إفصاحٌ بهذا التفصيل في سورة آل عمران حين قال تعالى :"قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله" ، فلم يقع هنا :"وبرسوله" إيجازاً للعلم به وشهادة السياق ناسب هذه الإيجازُ

الإيجازَ، كما ناسب الإتمامُ فيى آية المائدة الإتمامَ، فقيل هنا :"واشهد بأنَّا مسلمون" وجاء كُلٌّ على ما يجب، ولو قدّر ورود العكس لما ناسب."
يضاف إلى ذلك أنه قال في المائدة :"وإذا أوحيت إلى الحواريين" أي، أن الله هو الذي أوحى إليهم وثبَّتهم، فناسب ذلك زيادة النون تأكيداً لأن النون قد تأتي في مقام التأكيد.
ولم يَرِدْ مثلُ ذلك في آية آل عمران فناسب كُلٌّ في موضعه.
ومن ذلك قوله تعالى في سورة النحل :"وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ" "النحل :١٢٧".
وقوله في سورة النمل :"وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ" "النمل :٧٠".
فحذف نون "تكن" في آية النحل، وأبقاها في آية النمل .وذلك أن السياق مختلف في السورتين.
فالآية الأولى نزلت حين مَثَّلَ المشركون بالمسلمين يوم أُحد" :بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمزة وقد مُثِّلَ به فرآه مبقور البطن فقال" :أما والذي أحلف به لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك ."فنزل قوله تعالى :"وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ * واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ الله مَعَ الذين اتقوا والذين هُم مُّحْسِنُونَ" فَكَفَّرَ عن يمينهِ وكَفَّ عما أراده"
فقد أوصاه ربنا بالصبر ثم نهاه أن يكون في ضيق من مكرهم فقال له :"وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ" "لنحل :١٢٧" أي :لا يكن في صدرك ضيق مهما قلَّ .فحذف النون من الفعل إشارة إلى ضرورة حذف الضيق من النفس أصلاً.
وهذا تَطييبٌ مناسب لضخامة الأمر وبالغ الحزن، وتخفيف لأمر الحدث وتهوينه على المخاطب، فخفف الفعل بالحذف إشارةً إلى تخفيف الأمر وتهوينه على النفس.
أما الآية الثانية فهي في سياق المحاجّة في المعاد، وهو مما لا يحتاج إلى مثل هذا التصبير قال تعالى :"وَقَالَ الذين كفروا أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَآؤُنَآ أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هاذا نَحْنُ وَآبَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين * قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المجرمين * وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ" "النمل :٦٧-٧٠".
جاء في "البرهان" للكرماني :إنما خُصَّتْ سورة النحل بحذف النون موافقة لما قبلها وهو قوله :"إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين" "النحل :١٢٠".
والثاني" :أن هذه الآية نزلت تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم حين قُتل عمه حمزة ومُثِّلَ به فقال عليه الصلاة والسلام" :لأفعلنَّ بهم ولأصنعن"

فأنزل الله تعالى :"وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ * واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ" "النحل :١٢٦-١٢٧" ليكون ذلك مبالغة في التسلّي، وجاء في النمل على القياس لأن الحزن هناك دون الحزن هنا والله أعلم."
ونحو هذا قوله تعالى :"فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ" "هود :١٧".
وقوله :"فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِ" "السجدة :٢٣".
فقال في الآية الأولى :"فلا تك في مرية" بحذف نون تكن .وقال في الثانية :"فلا تكن في مرية" بذكرها وذلك أن السياق في الآيتين مختلف، فقد قال في الآية الأولى :"أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى إِمَاماً وَرَحْمَةً أولائك يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب فالنار مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ ولاكن أَكْثَرَ الناس لَا يُؤْمِنُونَ" "هود :١٧".
وقال في الثانية :"وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لبني إِسْرَائِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ" "السجدة :٢٣-٢٤".
فإن الآية الأولى تَثبيتٌ للرسول ونَهيٌ له عن الريب والمِرْية، فقد بدأ الكلام بقوله :إنه كان على بينة من ربه، ثم يتلوه شاهد منه، ثم قبله كتاب موسى، وختمه بقوله :"إنه الحقُّ من ربك" فناسب ذلك أن يقال :"فلا تك في مرية منه" بخلاف الآية الأخرى فإنها ليس فيها مثل هذه الدواعي كما ترى.
ثم إن الكلام في الآية الأولى على القرآن الكريم وعلى قوم الرسول وتهديد من يكفر به، والكلام في الثانية على التوراة وبني إسرائيل.
فناسب الحذف من الآية الأولى دون الثانية تثبيتاً للرسول ونهياً له عن الريبة فيه، وذلك أنه طلب منه أن لا يكون في شيء من المرية أصلاً .فلما كان الكلام في القرآن وفي قومه ناسب الحذف ها هنا دون الثانية.
وجاء في "البرهان" للزركشي أن حذف النون في نحو هذا قد يكون" تنبيهاً على صغر مبدأ الشيء وحقارته، وأن منه ينشأ ويزيد إلى ما لا يحيط بعلمه غير الله مثل :"أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً" "القيامة :٣٧" حذف النون تنبيهاً على مبتدأ الإنسان وصِغَرِ قَدْرِهِ بحسب ما يدرك هو من نفسه ثم يترقى في أطوار التكوين :"فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ" "يس :٧٧" فهو حين كان نطفة كان ناقص الكون..
وكذلك "وَإِن تَكُ حَسَنَةً يضاعفها" "النساء :٤٠" حذفت النون تنبيهاً على أنها وإن كانت صغيرةَ المقدار حقيرة في الاعتبار فإن إليه ترتيبها وتضاعيفها، ومثلها :"يابني إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ" "لقمان :١٦" ، وكذلك :"أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ" "غافر :٥٠" جاءتهم الرسل من أقرب شيء في البيان الذي أقل مبدأ فيه، هو الحس إلى العقل إلى الذكر، ورقّوهم من أخفض رتبة وهي الجهل إلى أرفع درجة في العلم وهي اليقين، وهذا بخلاف قوله تعالى :"أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تتلى

عَلَيْكَمْ" "المؤمنون :١٠٥" فإن كون تلاوة الآيات قد أكمل كونه
وتَمَّ .وكذلك :"أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا" "النساء :٩٧" هذا قد
تم تكوينه ... وكذلك "فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ" "غافر :٨٥" انتفى عن إيمانهم
مبدأ الانتفاع وأقله ما انتفي أصله."
ومن ذلك ذِكْرُ ياء المتكلم أو حذفها والاجتزاء بالكسرة، وإن لم تكن ياء
المتكلم من الحروف، وذلك نحو قوله تعالى:
"قُلِ ادعوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ" "الأعراف :١٩٥".
وقوله :"فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ" "هود :٥٥".
فقد حذف الياء واجتزأ بالكسرة في الأعراف فقال :"ثم كيدون" وذكرها في
هود فقال :"فكيدوني".
ويمكن هنا أن نذكر أصلاً عاماً في ذكر الياء وحذفها وهو:
أن الاجتزاء بالكسرة عن الياء يختلف عن ذكر الياء في كل ما ورد في القرآن
الكريم عدا خواتم الآي والنداء، ولها في كل ذلك خط عام إضافة إلى السياق
الخاص، ففي كل موطن ذكر الياء فيه يكون المقام مقامَ إطالة وتفصيل في
الكلام، بخلاف الاجتزاء بالكسرة فإن فيه اجتزاء في الكلام.
هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن الياء تتردد مُظهرةً في المواطن التي تذكر
فيها الياء أكثر من المواطن التي يجتزأ بالكسرة عنها.
وقد تتردد الكلمة ذات الياء المظهرة في السورة أكثر من تردد الكلمة ذات
الياء المجتزأة في موطنها.
هذا علاوة على السياق لخاص الذي يقتضي الذكر والحذف كما سنبين، ونعود
إلى الآيتين اللتين ذكرناهما، فإن المقام في هود مقام تحدٍّ كبير
ومواجهة، فأظهر نفسه زيادة في التحدي، إذ المتحدي وطالب المواجهة لا بد
أن يظهر نفسه وليس الأمر كذلك في الأعراف فإنه ليس فيها هذا
التحدي، يدل على ذلك سياق كل من الآيتين فقد قال في الأعراف:
"إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فادعوهم فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ
صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ
بِهَآ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادعوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا
تُنظِرُونِ" "الأعراف :١٩٤-١٩٥".
وأما هود فالمقام فيها مختلف فقد دعاهم هود إلى عبادة الله وحده وترك ما
عداه فقال لهم :"ياقوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إلاه غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ
مُفْتَرُونَ" "هود :٥٠" ونصح لهم بالتوبة والاستغفار ليرضى عنهم خالقهم
ويزيدهم من فضله فرفضوا قوله وردّوا عليه قائلين :"ياهود مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا
نَحْنُ بتاركي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعتراك بَعْضُ
آلِهَتِنَا بسواء قَالَ إني أُشْهِدُ الله واشهدوا أَنِّي برياء مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ
فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ" "هود :٥٣-٥٥".

فهم لم يكتفوا بردِّ دعوتهِ وعدم التصديق به، بل قالوا له :إن بعض آلهتهم اعتراه بسوء مما جعله يتحداهم ويتحدى آلهتهم، فأشهد الله وأشهدهم على البراءة من آلهتهم، ثم دعاهم جميعاً إلى كيدهم له ثم لا يمهلونه إن استطاعوا، فزاد كلمة :"جميعاً" زيادة في التحدي رداً على قولهم :"إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعتراك بَعْضُ آلِهَتِنَا بسواء" "هود :٥٤".
إنهم قالوا له :إن أحد آلهتهم اعتراه بسوء، فتحدى الجميع ثم أظهر نفسه، فذكر الياء زيدة في التحدي.
هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية إن التحدي والمواجهة في هود أطول وأكثر مما في الأعراف "انظر الآيات ٥٠-٥٨" فذكر الياء في هود لأن الياء أطول من الكسرة .وحذف الضمير واجتزأ بالكسرة في الأعراف، فناسب بين طول الكلمة والسياق، فجعل الكلمة الطويلة للسياق الطويل والكلمة المتجزأة للسياق المجتزأ .ومن ناحية أخرى نرى أنه قد تردد ذكر ياء الضمير في هود في هذا الموطن مرات عديدة وليس الأمر كذلك في الأعراف فقد قال :"إني أُشْهِدُ الله واشهدوا أَنِّي برياء ..* ..فَكِيدُونِي جَمِيعاً * ..إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى الله رَبِّي وَرَبِّكُمْ ..إِنَّ رَبِّي على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ ..إِنَّ رَبِّي على كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ" "هود :٥٤-٥٧".
وليس الأمر كذلك في الأعراف فإنه لم يظهر الياء في السياق إلا مرة واحدة وهو قوله :"إِنَّ وَلِيِّيَ الله" "الأعراف :١٩٦".
فناسب ذكر الياء ما ورد في هود :وناسب الاجتزاء بالكسرة سياق ما ورد في الأعراف.
ثم انظر من ناحية أخرى كيف قال في آية الأعراف :"ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ" "الأعراف :١٩٥" فأدخل "ثم" على الكيد والفاء على الإنظار .وفي هود بالعكس أدخل الفاء على الكيد و "ثم" على الإنظار .والفاء تفيد التعقيب أما "ثم" فتفيد التراخي .فقد طلب منهم في الأعراف عدم المهلة في الإنظار .وعدم الإنظار هو المناسب لسياق الأعراف، فقد ذكر في هذه السورة تعجيل العقوبات لمستحقيها في الدنيا .بخلاف سورة هود فإن سياقها في الإمهال في إيقاع العقوبات.
فقد بدأت الأعراف بقوله :"وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ" "الأعراف :٤" فذكر حلول العقوبات وإهلاك الأمم.
في حين قال :في هود :"وَأَنِ استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعاً حَسَناً إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فإني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ" "هود :٣" فذكر التمتع والإمهال.
وقال في هود أيضاً :"وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ" "هود :٨" فذكر تأخير العذاب إلى أجل وهو الإمهال.

وقال في الأعراف :"ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة حتى عَفَوْاْ وَّقَالَواْ قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضرآء والسرآء فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ
يَشْعُرُونَ" "الأعراف :٩٥" فقال :"فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً" "الأعراف :٩٥" بعد قوله :"ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة" "الأعراف :٩٥" ، وهو نظير قوله :"ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ" "الأعراف :١٩٥" . فالاستدراج المذكور في الآية وهو قوله :"ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة" "الأعراف :٩٥" نظير الكيد في قوله :"ثُمَّ كِيدُونِ" "الأعراف :١٩٥" معنى واستعمالاً فكلاهما بثم وكلاهما إمهال.
وقوله :"فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً" "الأعراف :٩٥" نظير قوله :"فَلاَ تُنظِرُونِ" فكلاهما بالفاء وكلاهما عدم إنظار.
فانظر إلى التناظر الجميل بين الآيتين.
"ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة" "الأعراف :٩٥" "فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً".
"ثُمَّ كِيدُونِ" "الأعراف :٩٥" "فَلاَ تُنظِرُونِ" "الأعراف :٩٥".
ثم انظر إلى القصص في السورتين ترَ الفرق واضحاً بين السياقين.
فانظر إلى قصة نوح في الأعراف فهي موجزة، وظاهرٌ فيها عدم الإمهال فقد قال لهم نبيهم :"أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ على رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" "الأعراف :٦٣" وبعدها قال الله تعالى :"فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ والذين مَعَهُ فِي الفلك وَأَغْرَقْنَا الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ" "الأعراف :٦٤".
فجاء بالفاء دالاً على سرعة إنزال العقوبة وعدم الإنظار "فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ" "الأعراف :٦٤".
أما في هود فالكلام طويل وهناك مهلة حتى استبطؤوا ما وعدهم به :"قَالُواْ يانوح قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ الله إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ" "هود :٣٢-٣٣".
وكذلك قصة عاد فقد قال في خاتمتها في الأعراف :"فَأَنجَيْنَاهُ والذين مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ" "الأعراف :٧٢".
وقال في هود :"وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ واتبعوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُواْ فِي هاذه الدنيا لَعْنَةً وَيَوْمَ القيامة ألا إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ" "هود :٥٨-٦٠".
فانظر كيف عجّل العقوبة لهم في الأعراف فجاء بالفاء الدالة على عدم الإمهال، بخلاف ما في سورة هود.
وكذا قصة صالح فقد قال في نهايتها في الأعراف :"فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ" "الأعراف :٧٨".
وقال في هود :"فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ القوي العزيز * وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة فَأَصْبَحُواْ فِي

دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ" "هود :٦٦-٦٧".
فذكر إنزال العقوبة بالفاء في الأعراف :"فَأَخَذَتْهُمُ
الرجفة" "الأعراف :٧٨" وقال في هود :"وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ
الصيحة" "هود :٦٧".
وهكذا، فأنت ترى أن سياق الأعراف هو عدم المهلة في الإنظار، بخلاف السياق في سورة هود .ولذا كان الأليق أن يأتي بالفاء مع عدم الإنظار في الأعراف فيقول :"فلا تنظرون" وأن يأتي بـ "ثم" معه في هود فيقول :"ثم لا تنظرون".
وهنالك أمر فني آخر، وهو أنه حيث اجتمعت ثم والفاء في الأعراف قدم "ثم" على الفاء، ومنها الآية المذكورة وفي هود بالعكس.
فقد قال في الأعراف :"وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لأَدَمَ فسجدوا إِلاَّ إِبْلِيسَ" "الأعراف :١١".
وقال :"ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة حتى عَفَوْاْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضرآء والسرآء فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ" "الأعراف :٩٥".
وقال :"ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم موسى بآياتنآ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِ فَظَلَمُواْ بِهَا" "الأعراف :١٠٣".
وقال :"ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ" "الأعراف :١٩٥".
وقال في هود :"فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ" "هود :٥٥".
وقال :"فاستغفروه ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ" "هود :٦١".
فما أجمل هذا التناسق وما أجلَّ هذا الكلام!
ومن ذلك :أي ذِكْرُ ياءِ المتكلم أو حذفها قوله تعالى :"وَقُلْ عسى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هاذا رَشَداً" "الكهف :٢٤".
وقوله :"وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عسى ربي أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ السبيل" "القصص :٢٢".
فإنه حذف ياء الضمير واجتزأ بالكسرة في "الكهف" فقال :"يهدين" ، وأَبرزَ الضميرَ في القصص فقال :"يهديني" وذلك أن المقام يستدعي إبراز ياء المتكلم، لأنه مقام التجاءٍ وخوفٍ وخشية، والخوف يستدعي أن يلصق الإنسان بمن يحميه ويلقي بنفسه كلها عليه، ويستدعي أن يلتجئ إلى من ينصره ويأخذ بيده بكل أحاسيسه ومشاعره التجاءً كاملاً، وهذا هو الموقف الأول، فقد خرج موسى خائفاً يترقب فاراً من بطش فرعون، فالتجأ إلى ربه التجاء الخائف الوَجِلِ طالباً منه أن يهديه سواء السبيل، ولذا أظهر الياء دلالة على كمال الالتجاء وإلقاء النفس كلها أمام خالقه.
بخلاف ما في الكهف فإنه ليس المقام كذلك فإنه قال :"وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عسى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هاذا رَشَداً" "الكهف :٢٣-٢٤".

فالفرق كبير بين المقامين، فمقام موسى في القصص يستدعي إلقاء النفس كلها أمام ربه وخالقه .ولما كان الخائف الضعيف يطلب أولاً من يحميه ويلتجئ إليه قدم "الرب" على فعل الهداية لأنه هو الملجأ فقال :"عسى ربي أن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ السبيل" "القصص :٢٢".
بخلاف ما في الكهف فإن المقام فيها مقام ذكر القول الحق فيما اختلفت فيه الأقوال، وبيان الأمر الصحيح فيما تباينت فيه الآراء، وهذا أمر يحتاج إلى الهداية والرشد، فقدم الهداية وهذا من دقيق الاستعمال.
ثم لننظر من ناحية أخرى فإن ياء الضمير تكرر في "القصص" أكثر مما في الكهف فناسب ذكر الياء في القصص.
ثم إن لفظ الهداية تكرر في القصص اثنتي عشرة مرة .أما في الكهف فقد تردد خمس مرات، فزاد اللفظ في القصص لما زاد تردده .وهذا الأمر مراعى في القرآن الكريم كما ذكرت .ألا ترى كيف قال الله تعالى في سورة الأعراف :"مَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتدي" "الأعراف :١٧٨" بإثبات الياء، في حين قال في سورة الإسراء :"وَمَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد" "الإسراء :٩٧" ، وفي سورة الكهف :"مَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد" "الكهف :١٧" . بالاجتزاء بالكسرة فيهما، وذلك أن لفظ الهداية تردد في سورة الأعراف أكثر مما تردد في سورتي الإسراء والكهف مجتمعتين .فقد ورد في الأعراف سبع عشرة مرة، في حين ورد في الإسراء ثماني مرات وفي الكهف ست مرات، فلما زادت ألفاظ الهداية في سورة الأعراف على ما في السورتين زاد لفظ :"المهتدي" على ما في السورتين.
وقال :"لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ القيامة" "الإسراء :٦٢" بالاجتزاء بالكسرة.

وقال :"لولا أخرتني إلى أجَلٍ قَرِيبٍ" "المنافقون :١٠" ، فذكر الياء .وذلك أنه تردد فعل التأخير مرتين في سورة "المنافقون" في حين ذكر مرة واحدة في سورة "الإسراء" فزاد في موطن الزيادة وحُذِفَ من موطن الاجتزاء.
ونعود إلى آيتي الهداية في القصص والكهف، فنقول علاوة على ما مر :إن مقام التبسط والتطويل في "القصص" في قصة موسى أكثر بكثير مما ورد في "الكهف" ، فإن المقام في "الكهف" مقام إيجاز جاء عرضاً في أثناء قصة أصحاب الكهف .فلما طوَّل الكلام وتَبسَّط طوّل الفعل بذكر الضمير في "القصص" ، ولما اجتزأ القول في "الكهف" اجتزأ بذكر الكسرة عن الضمير، وهو نظير ما سبق ذكره في الآيتين السابقتين.
ومما حسّن الحذف في الكهف علاوة على ما ذكرنا حذفه الياء من لفظ الهداية في موضع آخر من السورة، واجتزاؤه بالكسرة، وذلك هو قوله تعالى :"مَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً" "الكهف :١٧" هذا علاوة على حذف الياء في مواطن أخرى متعددة في هذه السورة، وذلك نحو قوله تعالى :"إِن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً" "الكهف :٣٩" بحذف الياء من "ترني".
وقوله :"فعسى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ" "الكهف :٤٠" بحذف الياء من "يؤتيني".
وقوله :"هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً" "لكهف :٦٦" بحذف الياء من "تعلمني".
وقوله :"قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ" "الكهف :٦٤" بحذف الياء من "نبغي".
فانظر كيف تعاضد المعنى والسياق والألفاظ والإحصاء على وضع كل لفظة في موضعها.
ومن هذا النوع من الذكر والحذف قوله تعالى:
"إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ واخشوني" "البقرة :١٥٠".
وقوله :"اليوم يَئِسَ الذين كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ واخشون" "المائدة :٣".
وقوله :"فَلَا تَخْشَوُاْ الناس واخشون" "المائدة :٤٤".
فذكر الياء في "اخشوني" في آية البقرة، وحذفها واجتزأ بالكسرة في آيتي المائدة، وذلك أن السياق في البقرة يستدعي تحذير المسلمين من خشية الناس وعدم الالتفات إلى أراجيفهم، كما يستدعي توجيههم إلى مراقبة الله تعالى وخشيته أكثر بكثير مما في المواطنين الآخرين، وذلك أن السياق في البقرة في تبديل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام في مكة، وقد أرجف اليهود والمنافقون بسبب هذا التغيير وأكثروا القول فيه، فاستدعى ذلك توجيه المسلمين إلى عدم الالتفات إلى أقوال أعداء الله أو خشيتهم، وإنما عليهم أن يخشوا الله وحده فأبرز الضمير العائد على الله فقال :"فلا تخشوهم واخشوني" . فقد بدأت الآيات بقوله :"سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس مَا ولاهم

عَن قِبْلَتِهِمُ التي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل للّهِ المشرق والمغرب يَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" "البقرة :١٤٢".
إلى أن يقول :"وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ واخشوني وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" "البقرة :١٤٩-١٥٠".
في حين كان سياق الآية الثانية يختلف عن ذلك، فهو يدور على ذكر المحرمات من الأطعمة .قال تعالى :"حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمُ
الخنزير" "المائدة :٣" ثم قال :"اليوم يَئِسَ الذين كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ واخشون" "المائدة :٣" فالكفار يائسون من محاربة الإسلام بعد أن أظهره الله وأعلى كلمته.
فالمحاربة في الموقف الأول ومظنة خشية الناس أكبر، بخلاف آية المائدة التي أنزلت بعدما أظهر الله دينه.
وكذا الأمر في الآية الأخرى وهي الآية ٤٤ من سورة المائدة، فإنه ليس فيها ما يستدعي الخشية من الناس، وليس فها إرجاف ولا محاربة .قال تعالى :"إِنَّآ أَنزَلْنَا التوراة فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النبيون الذين أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ والربانيون والأحبار بِمَا استحفظوا مِن كِتَابِ الله وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُاْ الناس واخشون" "المائدة :٤٤" . فانت ترى أن سياق آية البقرة وما فيها من خصومة وملاحَّة ومحاجَّة ومحاربة يستدعي جانباً كبيراً من الخشية، فأظهر الله نفسه طلباً لمراقبته وخشيته وعدم الاكتراث بأقوال المرفجين، بخلاف ما في الآيتين الأخريين.
ثم انظر طول السيا وتكراره في سورة البقرة فقد بدأ بقوله:
"سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس مَا ولاهم عَن قِبْلَتِهِمُ التي كَانُواْ عَلَيْهَا" "البقرة :١٤٢".
وقوله :"وَمَا جَعَلْنَا القبلة التي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرسول مِمَّن يَنقَلِبُ على عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الذين هَدَى الله" "البقرة :١٤٣".
فذكر أن تغيير القبلة كبير عند الناس.
ثم ذكر بعدها :"قَدْ نرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السمآء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ" "البقرة :١٤٤".
ثم أخبر أن الذين أوتوا الكتاب لا يتبعون قبلة الرسول مهما جاءهم بالبينات فقال :"وَلَئِنْ أَتَيْتَ الذين أُوتُواْ الكتاب بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ" "البقرة :١٤٥" وهكذا.
فأنت ترى أنه أطال القول ههنا، فكان المناسب أن يطيل بذكر الضيمر أيضاً وهو المناسب لإطالة السياق بخلاف ما في الآيتين الأخريين.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إنه أبرز الضمير "الياء" في سياق آية البقرة أكثر مما في المواطنين الآخرين من مثل قوله :"وأخشوني" : و "ولأتم نعمتي" "فاذكروني" "واشكروا لي" وغيرها.
فناسب كل ذلك الياء في آية البقرة بخلاف آيتي المائدة.
وهذا كما ترى نظير ما مر من ذكر الياء وحذفها آنفاً.
وشبيه بهذا الذكر والحذف وليس منه قوله تعالى:
"هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الملائكة أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ في إيمانها خَيْراً قُلِ انتظروا إِنَّا مُنتَظِرُونَ" "الأنعام :١٥٨".
وقوله :"وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ على عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الذين نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خسروا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ" "الأعراف :٥٢-٥٣".
وقوله :"وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخرة ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس وذلك يَوْمٌ مَّشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ" "هود :١٠٢-١٠٥".
فحذف الياء من "يأت" ، واجتزأ بالكسرة في آية هود دون الآيتين السابقتين .ولهذا الحذفِ سَببهُ .فقد ذكر الله في عدة مواطن من هود تَعجُّلَ الذين كفروا للعذاب .كما تردد الوعد بقرب نزوله فقد قال :"وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ" "هود :٨".
وقال قوم نوح :"قَالُواْ يانوح قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين" "هود :٣٢".
وقال صالح لقومه :"وَلَا تَمَسُّوهَا بسواء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذلك وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ" "هود :٦٤-٦٥".
وقال في قوم لوط :"إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ" "هود :٨١".
وقال في موطن آخر :"وَمَا هِيَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ" "هود :٨٣".
فأنت ترى أنه تردد استعجال العذاب من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه تردد الوعد بقرب حلوله، فكان من المناسب الحذف من فعل الإتيان إشعاراً بقرب حلوله.
هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه ذكر في سورة "هود" عقاب الأمم السابقة وهلاكهم، ثم ذكر أن يوم القيامة آتٍ وأنه سيحل فيه عقاب الكافرين كما حل عقاب الأمم السابقة، وإن هو إلا أجل معدود فيحل .فحذف الياء من فعل الإتيان للدلالة على سرعة الإتيان، وليس الأمر كذلك في الآيات الأخرى.
هذا ومن ناحية أخرى أنه تردد ذكر الإتيان باشتقاقاته المختلفة في كل من "الأنعام" و "الأعراف" أربعاً وعشرين مرة وفي "هود" تردد ثلاث عشرة

مرة، فلما كثر الفعل في سورتي الأنعام والأعراف كثّر البناء، ولمّا قلّ تردده في هود قلل من البناء .وهو نظير ما في "المتهد" و "المتهدي" وغيرها مما سبق ذكره.
ويمكن أن يضاف شيء آخر :وهو أنه لما منع الكلام في آية هود إلا بإذنه، حذف من الكلام فحذف الياء من "يأتي" وحذف التاء من فعل التكلم
فقال :"تَكَلَّمُ" ولم يقل :"تتكلم" إشعاراً بقلة الكلام في ذلك الوقت .وهكذا مما يدعو إلى العجب.
ومن بديع الذكر والحذف قوله تعالى :"ونادى أَصْحَابُ الجنة أَصْحَابَ النار أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ الله عَلَى الظالمين" "الأعراف :٤٤".
فقال في أصحاب الجنة :"ما وعدنا ربنا حقاً" وقال في الكافرين :"ما عد ربكم حقاً" ولم قل :"ما وعدكم" وذلك أن الكفارين كانوا منكرين لأصل الوعد والوعيد، وليسوا منكرين لما وعدهم به فقط، فكأنه قال :هل وجدتم وعد ربكم حقاً؟ بخلاف المؤمنين فإنهم كانوا ينتظرون ما وعدهم ربهم من الخير والكرامة فقال :"وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً" . جاء في "الكشاف" في هذه الآية" :فإن قلت :هَلاّ قيل :ما وعدكم ربكم كما قيل :ما وعدنا ربنا؟ قلت :حذف ذلك تخفيفاً لدلالة "وعدنا" عليه .ولقائلٍ أن يقول :أطلق ليتناول كلَّ ما وعدَ اللهُ من البعث والحساب والثواب والعقاب وسائر أحوال القيامة، لأنهم كانوا مكذبين بذلك أجمع، ولأن الموعود كله مما ساءهم، وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم، فأطلق لذلك."
ومن ذلك قوله تعالى :"فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حتى حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ" "الصافات :١٧٤-١٧٥".
وقوله :"وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حتى حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ" "الصافات :١٧٨-١٧٩" فذكر الضمير في "أبصرهم" الأولى وحذفه من الثانية فقال :"وأبصر".
قالوا :وسبب ذلك أن الأولى كانت بسبب نزول العذاب بهم يوم بدر وما حلّ بهم من قتل وأسر، فلما تضمنت المعركة ما تضمنت من قتل صناديد قريش وأسرهم وشفاء صدور المؤمنين قال :"وأبصرهم".
وأما الثانية فكانت في يوم فتح مكة وليس فيه قتل ولا أسر وإنما هو هداية ورحمة، ثم إن فتح مكة كان فتحاً لجزيرة العرب ولذا أطلق
فقال :"وأبصر" لأنه ليس مختصاً بأهل مكة كما كان في بدر .فلما كانت وقعة بدر خاصة بأهل مكة وقد حَلَّ عليهم العذاب وحدهم قال :"أبصرهم" ، ولما كان الفتح ليس فيه قتل جماعة ولا أسر وكان أثره عاماً أطلق
فقال :"وأبصر" . جاء في "البرهان" في هاتين الآيتين" :ومن فوائد قوله تعالى في الأوليين :"وأبصرهم" وفي هاتين "فأبصر" أن الأولى بنزول العذاب

بهم يوم بدر قتلاً وأسراً وهزيمة ورعباً .فلما تضمنت التشفي بهم قيل له :"أبصرهم".

وأما يوم الفتح فإنه اقترن بالظهور عليهم الإنعام بتأمينهم والهداية إلى إيمانهم، فلم يكن وفقاً للتشفي بهم بل كان في استسلامهم لعينه قرة ولقلبه مَسَرَّة فقيل له :"أبصر".

ومن بديع الذكر والحذف.

قوله تعالى :"فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ" "الأعراف :١٠١".

وقوله :"فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ" "يونس :٧٤".

فحذفه "به" من آية الأعراف، بخلاف آية يونس، وذلك أن الإطلاق هو سياق الأعراف، والتخصيص هو سياق سورة يونس، فقد جاء قبل آية الأعراف قوله :"وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرىءَامَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بركات مِّنَ السمآء والأرض ولاكن كَذَّبُواْ فأخذناهم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ" "الأعراف :٩٦".

في حين أن السياق في يونس سياق الذكر لا الإطلاق، فقد جاء قبل الآية المذكورة قوله تعالى :"وَأَغْرَقْنَا الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا" "يونس :٧٣" . وهو نظير الذكر في الآية التي بعدها "بما كذبوا به".

فانظر كيف قال في الأعراف :"ولكن كذبوا فأخذناهم" وقال :"فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل" فلم يذكر بما كذبوا.

وانظر كيف قال في يونس :"وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا" ثم قال بعدها :"فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل" فذكر بماذا كذبوا في الموطنين، فاستدعى في كل سياق ما ورد من ذِكْر وحذف.

ثم انظر السياق بعد كل من الآيتين فقد قال في سورة الأعراف :"ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم موسى بآياتنآ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِ" "الأعراف :١٠٣".

وقال في سورة يونس :"ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِمْ موسى وهارون إلى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِ بآياتنا" "الآية :٧٥" . فذكر في الأعراف أنه بعث موسى .وفي يونس ذكر أنه بعث موسى وهرون فزاد ذكر "هرون" . فانظر كيف لما زاد "به" في الآية الرابعة والسبعين وزاد "بآياتنا" في الآية الثالثة والسبعين زاد "هرون" في السياق .فأية دقة هذه؟ وأي فن هذا أيها الناس؟!

جاء في "البرهان" للكرماني أنه ذكر في الأعراف :"بما كذبوا"" لأن أول القصة في هذه السورة :"وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرىءَامَنُواْ" "الأعراف :٩٦" . وفي هذه الآية :"ولاكن كَذَّبُواْ" "الأعراف :٩٦" وليس بعدها الباء فختم القصة بمثل ما بدأ به.

وكذلك في يونس وافق ما قبله وهو :"فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ" "يونس :٧٣" "كذبوا بآياتنا" فختم بمثل ذلك فقال :"بما كذبوا به".

ومن طريف الذكر والحذف في القرآن الكريم ذكر الاسم الموصول وحذفه، فقد ذكر القرآن الكريم الاسم الموصول في مواطن، وحذفه من مواطن أخرى، فقد قال مرة :"لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي

الأرض" "طه :٦" بتكرير الاسم الموصول .وقال مرة أخرى :"لَهُ مَا فِي السماوات والأرض" "البقرة :١١٦" فلم يكرره .وقال مرى أخرى :"يَعْلَمُ مَا فِي السماوات والأرض" "العنكبوت :٥٢".
وقال مرة :"سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض" "الحشر :١" وقال مرة أخرى :"سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض" "الحديد :١".
وهذا يقتضينا المساءلة عن ذكر سَببِ ذِكْرِ ما ذكرَ وحذفِ ما حذف، إذ من المعلوم أنه لا بد في الكلام البليغ من سبب للذكر والحذف، وخصوصاً في القرآن الكريم الذي هو أعلى الكلام.
لقد ذكر بعضهم أنه تأمل ما في التنزيل العزيز من قوله تعالى :"من في السماوات والأرض" و :"من في السماوات ومن في الأرض" وقوله :"ما في السماوات والأرض" وقوله :"ما في السماوات وما في الأرض" فوجد" أنه حيث قصد التنصيص على الأفراد ذكر الموصول والظرف، ألا ترى إلى المقصود في سورة يونس من نَفْيِ الشركاء الذين اتخذوهم في الأرض، وإلى المقصود في آية الكرسي من إحاطة الملك.
وحيث قُصد أمر آخر لم يذكر الموصول إلا مرة واحدة إشارة إلى قصد الجنس وللاهتمام بما هو المقصود في تلك الآية .ألا ترى في سورة الرحمن المقصود منها عُلُوُّ قدرةِ الله تعالى وعلمه وشأنه وكونه مسؤولاً ولم يقصد السائلين."
وهذا صحيح فإنه إذا قصد التنصيص على الأفراد ذكر الموصول وذلك نحو قوله تعالى :"وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله" "الزمر :٦٨" فهنا قصد التنصيص على كل فرد من أفراد السماوات والأرض على وجه التخصيص فكرر "من" لذلك، ونحوه قوله تعالى :"وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور فَفَزِعَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله" "النمل :٨٧".
غير أن هذا واحد من الأسباب التي تدعو إلى تكرار الاسم الموصول وليس هو السبب الوحيد .وهناك أسباب أخرى للتكرار منها:
أنه إذا كان الموطن دالاً على التفصيل والإحاطة كرر الاسم الموصول، بخلاف ما إذا كان الكلام مجملاً غير مفصل، وذلك نحو قوله تعالى :"يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عملوا أَحْصَاهُ الله وَنَسُوهُ والله على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض مَا يَكُونُ مِن نجوى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أدنى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" "المجادلة :٦-٧".
فكرر "ما" قائلاً :"يعلم ما في السماوات وما في الأرض" وذلك لأن الموطن مواطن إحاطة وتفصيل، بخلاف قوله تعالى :"قُلْ كفى بالله بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السماوات والأرض والذين آمَنُواْ بالباطل وَكَفَرُواْ بالله أولائك هُمُ الخاسرون" "العنكبوت :٥٢" فلم يُكَرِّرْ "ما".

وأنت تحس الفرق واضحاً بين الموطنين والسياقين، فإن في آية المجادلة من ذكر لِسَعةِ عِلْمِ الله وشموله وإحاطته بالجزئيات والتفصيلات ما ليس في آية العنكبوت، فقد ذكر في آية المجادلة أنه لا يَنَدُّ عنه شيء ولا يغيب عنه مجلس قَلَّ أو كثر، ثم ينبئ الله أهله بكل ما قالوا وما تناجوا به، أحصاه الله ونسوه وهو بكل شيء عليم .فأنت ترى في آية المجادلة من التفصيل ما ليس في آية العنكبوت .فلما فصّل في آية المجادلة أعاد ذكر "ما" ولما أجملَ في العنكبوت أجمل في ذكر الموصول فلم يُعِدْ ذكره.

ومن ذلك قوله تعالى :"لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثرى" "طه :٦" فكرر "ما" لأن الموطن موطن شمول وإحاطة وتفصيل، فقد ذكر أن له "ما في السماوات" ، و "ما في الأرض" و "ما بينهما" و "ما تحت الثرى" بخلاف قوله تعالى :"وَلَهُ مَا فِي السماوات والأرض وَلَهُ الدين وَاصِباً أَفَغَيْرَ الله تَتَّقُونَ" "النحل :٥٢" فأنت ترى الفرق واضحاً بين السياقين في التفصيل والإحاطة، فكرر في موطن التفصيل وأجمل في موطن الإجمال.

ونحوه قوله تعالى :"الحمد للَّهِ الذي لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَلَهُ الحمد فِي الآخرة وَهُوَ الحكيم الخبير * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأرض وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السمآء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرحيم الغفور" "سبأ :١-٢".

فالتفصيل في هاتين الآيتين واضح، ولذا كرر الاسم الموصول بخلاف قوله تعالى :"وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً سبحانه بَل لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ" "البقرة :١١٦".

ونحو ذلك قوله تعالى :"وَللَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بالغدو والآصال" "الرعد :١٥" فلم يكرر الموصول في حين قال :"أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوآب وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس" "الحج :١٨". فكرر "من" ههنا بخلاف الآية الأولى .ومقام التفصيل واضح في آية الحج، فقد ذكر الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثيراً من الناس بخلاف آية الرعد .ففي مقام التفصيل كرر وفصّل وفي مقام الإجمال أجمل وأوجز.

وقد يكون إعادة ذكر الموصول لأمر آخر وهو ذكر أمر يتعلق بصلته، فمن الملاحظ في القرآن الكريم أنه إذا كرر الاسم الموصول فقال :"ما في السماوات وما في الأرض" فإنه يريدُ أن يَخُصَّ أهلَ الأرض بذكرِ أمرٍ من الأمور، وإذا لم يكرر "ما" فإنه لا يريد أن يذكرهم بأمر خاص بهم .ويتضح هذا من آيات التسبيح خاصة نحو قوله تعالى :"سَبَّحَ للَّهِ مَا فِي السماوات والأرض" "الحديد :١" و "سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض" "الحشر :١".

فحيث كرر "ما" في آيات التسبيح فإنه ذكر أهل الأرض بعدها، وحيث أجمل لم يذكرهم .وإليك أمثلة على ذلك.
قال تعالى في "سورة الحديد" : "سَبَّحَ للَّهِ مَا فِي السماوات والأرض وَهُوَ العزيز الحكيم * لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الأول والآخر والظاهر والباطن وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض" "الحديد :١-٤".
وقال في "سورة الحشر" "سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ العزيز الحكيم * هُوَ الذي أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الحشر" "الحشر :١-٢".
فأنت ترى أنه في آيات الحديد لم يعقب التسبيح بالكلام على أهل الأرض، بخلاف آية الحشر فقد قال بعدها :"هُوَ الذي أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ" "الحشر :٢" ويستمر في ذكر أحوالهم.
ويدلك على ذلك أنه في آخر سورة الحشر لم يكرر "ما" حين لم يذكر شيئاً عن أهل الأرض بعد الآية، فقد قال :"هُوَ الله الخالق البارىء المصور لَهُ الأسمآء الحسنى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السماوات والأرض وَهُوَ العزيز الحكيم" "الحشر :٢٤" . فكرر في أول السورة وأجمل في آخرها لما ذكرناه والله أعلم.
ونحوه ما جاء في سورة الصف، قال تعالى :"سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ العزيز الحكيم * ياأيها الذين آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * إِنَّ الله يُحِبُّ الذين يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ" "الصف :١-٤".
ويمضي في الكلام على أهل الأرض فكرر "ما" لأنه خَصَّ هل الأرض بعدها بالذكر، ونحوه قوله تعالى :"يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم * هُوَ الذي بَعَثَ فِي الأميين رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكتاب والحكمة وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ العزيز الحكيم" "الجمعة :١-٣" . ويمضي في الكلام على أهل الأرض.
ونحوه قوله تعالى :"يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض لَهُ الملك وَلَهُ الحمد وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الذي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" "التغابن :١-٢" . ويمضي في الكلام على أهل الأرض.
فكل موطن كرر فيه "ما" أعقبه بالكلام على أهل الأرض .في حين قال في سورة النور :"أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السماوات والأرض والطير صَآفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ والله عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَللَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض * ... أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ * ... يُقَلِّبُ الله الليل والنهار " ... "النور :٤١-٤٤".
فلم يكرر "من" إذ لم يعقب التسبيح بالكلام على أهل الأرض.

ونكتفي بهذه النماذج وإلاّ فإن الأمر يطول ويطول .ثم نأتي إلى القسم الثاني :وهو ما ذكر في موطن ولم يذكر في موطن آخر يبدو شبيهاً به، وليس عدم ذكره من باب الحذف لنرى كيف يكون الكلام المعجز، لنرى كيف تكون الصياغة العجيبة في فن القول والتعبير .لنرى الكلام الذي قالت فيه الجن حين سمعته :"إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يهدي إِلَى الرشد فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَداً" "الجن :١-٢".

القسم الثاني:

وهو أن يذكر في موطن ما لا يذكره في موطن آخر يبدو شبيهاً به، وليس عدم ذكره من باب الحذف، وإنما هو قد يزيد لفظاً أو أكثر مراعاة لما يقتضيه السياق أو يستدعيه المقام.

فقد يزيد حرفاً في مكان ولا يذكره في مكان آخر حسبما يقتضيه موطن الكلام .فمن ذلك قوله تعالى:

"قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ الله سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ على قُلُوبِكُمْ مَّنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِهِ انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيات ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ" "الأنعام :٤٦".

وقوله:

"قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أتاكم عَذَابُ الله بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القوم الظالمون" "الأنعام :٤٧".

فأنت ترى أنه قال مرة :"أرأيتم" ومرة أخرى :"أرأيتكم" بزيادة الكاف .وهذه الزيادة إنما تكون لغرض توكيد الخطاب، وذلك كأن يكون المُخاطَبُ غافلاً أو يكون الأمر يوجب زيادة التنبيه .وإنما فرق بين الخطابين ههنا لسببين والله أعلم:

الأول :أنه قال في الآية الأولى :"أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ الله سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ على قُلُوبِكُمْ" "الأنعام :٤٦" فاحتاجوا بعد إلى زيادة في التنبيه والخطاب، وذلك أنّ فاقد السمع والبصر والمختوم على قلبه به حاجة إلى زيدة خطاب وتنبيه أكثر من السَّوِيّ فقال فيما بعد :"أرأيتكم".

والسبب الثاني :أن الآية الثانية أشد من الآية الأولى تنكيلاً وعذاباً، فإن فيها عذاب الله الذي هو أشد من أخذ السمع والبصر، فاحتاج الموقف إلى تنبيه أكثر وزيادة حذر وحيطة فجاء بكاف الخطاب.

وقد تقول :ولِمَ قال تعالى في سورة يونس :"قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ المجرمون" "يونس :٥٠" ولم يقل :"أرأيتكم" كما قال في الآية السابقة، أو كما قال في آية أخرى من سورة الأنعام فقد قال :"قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أتاكم عَذَابُ الله أَوْ أَتَتْكُمُ الساعة أَغَيْرَ الله تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صادقين" "الأنعام :٤٠" والآيات متشابهة والموقف واحد؟

والحقيقة أن الموقف مختلف والسياق غير متفق .فإنه لا ينبغي أن ينظر إلى الآيات مجردة، بل تؤخذ في مواطنها وسياقها، وهكذا ينبغي أن ينظر إلى كل

نص أدبي، فإن اللغة ليست جملاً مفردة بل هي مواقف ومواطن، وقد تصلح جملة في موطن ولا تصلح في موطن آخر.
وإليك إيضاح الفرق بين الآيتين:
قال تعالى في سورة الأنعام:
"والذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظلمات مَن يَشَإِ الله يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أتاكم عَذَابُ الله أَوْ أَتَتْكُمُ الساعة أَغَيْرَ الله تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صادقين" "الأنعام :٣٩-٤٠".
فأنت ترى أنه وصف الذين كذبوا بآيات الله بالصمم والبكم وأنهم في الظلمات فاحتاجوا إلى زيادة تنبيه وخطاب ليسمعوا وليَعُوا .وهذا شبيه بالموقف الذي سبق أن ذكرناه آنفاً في قوله تعالى :"أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ الله سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ على قُلُوبِكُمْ" "الأنعام :٤٦" بخلاف سورة يونس التي ليس فيها هذا الأمر.
جاء في "البرهان"" : وأما أرأيتك فقد وقعت هذه اللفظة في سورة الأنعام في موضعين وغيرها وليس لها في العربية نظير، لأنه جمع فيها بين علامتي خطاب وهما التاء والكاف .والتاء اسم بخلاف الكاف، فإنها عند البصريين حرف يفيد الخطاب، ولجمع بينهما يدل على أن ذلك تنبيهاً "كذا" على مبناها عليه من مرتبة وهو ذكر الاستبعاد بالهلاك، وليس فيما سواها ما يدل على ذلك فاكتفى بخطاب واحد.
قال أبو جعفر بين الزبير" :الإتيان بأداة الخطاب بعد الضمير المفيد لذلك تأكيد باستحكام غفلته، كما تحرك النائم باليد والمفرط الغفلة باليد واللسان، ولهذا حذفت الكاف في آية يونس "٥٠" لأنه لم يتقدمها قبلها ذكر صم ولا بكم يوجب تأكيد الخطاب، وقد تقدم قبلها قوله :"قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السمآء والأرض أَمَّن يَمْلِكُ السمع والأبصار" "يونس :٣١" . إلى ما بعدهن فحصل تحريكهم وتنبيههم بما لم يبق بعد إلاّ التذكير بعذابهم "انتهى.
ومثل هذا الذكر والحذف قوله تعالى:
"ياأهل الكتاب لِمَ تُحَآجُّونَ في إِبْرَاهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ التوراة والإنجيل إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هاأنتم هؤلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ والله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" "آل عمر ان :٦٥-٦٦".
وقوله:
"وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الذين يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ الله لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً * يَسْتَخْفُونَ مِنَ الناس وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ الله وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يرضى مِنَ القول وَكَانَ الله بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً * هَا أَنْتُمْ هاؤلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الحياة الدنيا فَمَن يُجَادِلُ الله عَنْهُمْ يَوْمَ القيامة أَمْ مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً" "النساء :١٠٧-١٠٩".
فذكر "ها" التنبيه قبل الضمير وقبل اسم الإشارة في آية آل عمران :"ها أنتم هؤلاء" لأنه أراد أن يُقَرِّعهم ويزيد في تنبيههم ولومهم لأنهم جادلوا بالباطل

وهم يعلمون، فكرر التنبيه مرة قبل الضمير ومرة قبل اسم الإشارة فقال :"ها أنتم هؤلاء حاججتم" ، وكذلك في آية النساء فقد كرر تنبيههم ولومهم ليتعظوا فلا يقفوا مثل هذا الموقف وأنت ترى أن الموقف يتطلب الزيادة في تنبيههم ووعظهم، بخلاف قوله تعالى مثلاً :"ها أنتم أولاء تحبونهم" فإن الموقف لا يحتاج إلى زيادة في التنبيه واللوم، فإنه خطاب للمؤمنين .قال تعالى :"ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ البغضآء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَاأَنْتُمْ أُولاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بالكتاب كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قالوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأنامل مِنَ الغيظ" "آل عمران :١١٨-١١٩".
فأنت ترى أن الموقف مختلف عما في الآيتين السابقتين، وهو ليس موقف تقريع ولوم كما كان ثَمّ .وقد لا يحتاج الموقف إلى التنبيه فلا يذكره، وذلك نحو قوله تعالى لى لسان موسى عليه السلام مخاطباً ربه :"وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ ياموسى * قَالَ هُمْ أولاء على أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لترضى" "طه :٨٣-٨٤".
فلم يأت بالتنبيه لأنهم غير حاضرين.
فأنت ترى أن التنبيه أتى به في المكان المناسب بالقدر الذي يحتاج إليه .فقد كرر أو لا يكرر أو لا يذكر التنبيه بحسب الحاجة إليه .ومن ذكر التنبيه وعدمه قوله تعالى:
"وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الذي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ" "آل عمران :١٦٠".
وقوله :"مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ" "البقرة :٢٥٥".
فلم يجئ بـ "ها" التنبيه في الموطنين في حين قال:
"أَمَّنْ هاذا الذي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُمْ مِّن دُونِ الرحمان إِنِ الكافرون إِلاَّ فِي غُرُورٍ * أَمَّنْ هاذا الذي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ" "الملك :٢٠-٢١".

فجاء بـ "ها" التنبيه .وسبب ذلك - والله أعلم - أن التحدي في الآيتين الأخيرتين أشد وأقوى، وهو واضح من السياق .فالآية الأولى خطاب للمؤمنين .قال تعالى :"فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ الله لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القلب لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فاعف عَنْهُمْ واستغفر لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمر فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّ الله يُحِبُّ المتوكلين * إِن يَنصُرْكُمُ الله فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الذي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون" "آل عمران :١٥٩-١٦٠".
وآية سورة المُلْك في الكلام على الكافرين وهو في سياق التخويف من قدرة الله وبطشه قال تعالى :"أَءَمِنتُمْ مَّن فِي السمآء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأرض فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُمْ مِّن فِي السمآء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ * وَلَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نكِيرِ * ... * أَمَّنْ هاذا الذي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُمْ مِّن دُونِ الرحمان إِنِ الكافرون إِلاَّ فِي غُرُورٍ * أَمَّنْ هاذا الذي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ" "الملك :١٦-٢١".
فالسياق والجو مختلف في الآيتين، فالأولى مقام رحمة ومسح على جراح المؤمنين ومقام عفو ومغفرة بعد معركة أحد .وأما الثانية فمقام ترهيب وإنذار وتخويف وتحذير فجاء بـ "ها" التنبيه زيادة في التحذير والتنبيه وهو ما يقتضيه المقام.
وقد تقول :ولم قال في آية الكرسي :"مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ " ... "القرة :٢٥٥" من دون تنبيه في حين قال :"أَمَّنْ هاذا الذي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُمْ مِّن دُونِ الرحمان * ... أَمَّنْ هاذا الذي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ " ... "الملك :٢٠-٢١" فذكر التنبيه، والمقامان متشابهان؟
والحق أن المقامين مختلفان وليسا متشابهين، وذلك أن آيات سورة الملك في خطاب الكافرين - كما ذكرنا - وليس كذلك سياق آية الكرسي.
هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن مقام آية الكرسي مقام شفاعة، ومقام آية الملك مقام نصر ورزق، ومقام الشفيع يختلف عن موقف الناصر.
فقد قال في آية الكرسي :"مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ " ... "البقرة :٢٥٥" والشفيع طالبُ حاجةٍ مُرْتَجٍ قضاءها عالم بأن الأمر بيد مَنْ هو أعلى منه، فهو مُتلطِّفٌ بسؤاله في حين قال في سورة الملك "أَمَّنْ هاذا الذي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُمْ مِّن دُونِ الرحمان * ... أَمَّنْ هاذا الذي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ" "الملك :٢٠-٢١" وهذا كما ترى موقف ندّ وليس موقف شفيع .فالناصر من دون الرحمن والرازق إن أمسك الرحمن رزقه لا يكون إلاّ ندّاً لله سبحانه، تعالى الله عن الند، ولا يمكن أن يكون هذا لغير الله .ولذا سأل رب العزة قائلاً :من هذا الناصر الرازق من دوني؟ فزاد التنبيه .هذا علاوة على ما في هذا من السخرية من إلهٍ لا يعرفُه ربُّ العالمين!!

فأنت ترى أن السياق في آية الملك يقتضي زيادة التنبيه، بخلاف آية البقرة .فما أعظم هذا الكلام وأجله!
ومن هذا الباب قوله تعالى في سورة الصافات على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام :"إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ الله تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العالمين" "الصافات :٨٥-٨٧".
وقوله في سورة الشعراء على لسانه أيضاً :"واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ" "الشعراء :٦٩-٧١".
فقال في الآية الأولى :"ماذا تعبدون" وقال في الثانية :"ما تعبدون".
وهناك فرق بين "ما" و "ماذا" في الاستفهام، فإن في "ماذا" قوة ومبالغة في الاستفهام ليست في "ما" ، ففي قولك :"ماذا فعلت؟" قوة ليست في "ما فعلت؟" ولعل ذلك يعود إلى زيادة حروفها، ويدل على ذلك الاستعمال القرآني ومن ذلك ما جاء في الآيتين اللتين ذكرناهما .فإنه إنما جاء في الآية الأولى بـ "ماذا" وفي الثانية بـ "ما" لأن الأولى في موقف تحدٍّ ظاهر ومجابهة قوية، بخلاف الثانية، يدلك على ذلك السياق.
فإن المقام في الأولى ليس مقام استفهام وإنما هو مقام تقريع، ولذلك لم يجيبوه عن سؤاله بل مضى يقرعهم بقوله :"أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ الله تُرِيدُونَ" "لصافات :٨٦".
وأما في الثانية فهو في مقام استفهام المحاجَّة إذ قال لهم :ما تبعدون؟ فأجابوه :نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين.
فسألهم :"قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ" "الشعراء :٧٢-٧٣".
فأجابوه قائلين :"قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ آبَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ" "الشعراء :٧٤".
فأنت ترى أن المقام محاجّة بخلاف الآية الأولى فإنه مقام تحدٍّ وتقريع ومجابهة.
ويوضح ذلك نهاية القصتين.
ففي آية الشعراء قال :"قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمُ الأقدمون * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لي إِلاَّ رَبَّ العالمين" "الشعرء :٧٥-٧٧ - وما بعدها".
وأما في آية الصافات فانتهى السياق بتحطيم الأصنام وتحريقه بالنار.
"فَرَاغَ إلى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً باليمين * . ... * قَالُواْ ابنوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الجحيم ... وما بعدها" "الصافات :٩١-٩٧".
فثمة فرق كبير بين النهايتين وبين السياقين .فجاء في مقام المجابهة وشدة التحدي بـ "ماذا" دون المقام الآخر الذي جاء فيه بـ "ما".
جاء في "درة التنزيل" في هاتين الآيتين" :للسائل أن يسأل عن زيادة "ذا" في قوله في الصافات "ماذا تعبدون" وإخلاء "ما" في الشعراء

منها.
والجواب أن يقال :إنَّ قوله "ما تعبدون" معناه :أي شيء تعبدون؟
وقوله :"ماذا تعبدون" في كلام العرب على وجهين:
أحدها :أن تكون "ما" وحدها اسماً و "ذا" بمعنى الذي، والمعنى :ما الذي تعبدون .و "تعبدون" صلة لها.
والآخر أن تكون "ما" مع "ذا" اسماً واحداً بمعنى :أي شيء .وهو في الحالتين أبلغ من "ما" وحدها إذا قيل :ما تفعل؟ و "ما تعبدون" في سورة الشعراء إخبار عن تنبيهه لهم، لأنهم أجروا مقاله مجرى مقال المستفهم، فأجابوه وقالوا :"قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ" "الشعراء :٧١" فنبه ثانياً بقوله :"قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ" "الشعراء :٧٢".
وأما "ماذا تعبدون" ؟ في سورة الصافات فإنها تقريع، وهو حال بعد التنبيه .ولعلمهم بأنه يقصد توبيخهم وتبكيتهم لم يجيبوا كإجابتهم في الأول .ثم أضاف تبكيتاً إلى تبكيت ولم يستدع منه جواباً فقال :"أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ الله تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العالمين" "الصافات :٨٦-٨٧".
فلما قصد في الأول التنبيه كانت "ما" كافية .ولما بالغ وقرّع واستعمل اللفظ الأبلغ وهو "ماذا" التي إن جعلت "ذا" منها بمعنى "الذي" فهو أبلغ من "ما" وحدها .وإن جُعلا اسماً كانت أيضاً أبلغ وأوكد مما إذا خلت من "ذا".
ومن ذلك قوله تعالى:
"يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النار يَقُولُونَ ياليتنآ أَطَعْنَا الله وَأَطَعْنَا الرسولا * وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا" "الأحزاب :٦٦-٦٧".
فَمدَّ "السبيل" في حين قال في الآية الرابعة من السورة نفسها :"والله يَقُولُ الحق وَهُوَ يَهْدِي السبيل" "الأحزاب :٤" لم يمدّه.
وذلك أن الأولى في كلام أهل النار وهم يصطرخون فيها ويمدون أصواتهم بالبكاء، فجاء بالمدّ، وهو المناسب لمدِّ الصوتِ بالبكاء ورفعه، بخلاف الآية الثانية.
ومن هذا الباب قوله تعالى:
"وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سياء بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هاذا يَوْمٌ عَصِيبٌ" "هود :٧٧".
وقوله:
"وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امرأتك كَانَتْ مِنَ الغابرين" "العنكبوت :٣٣".
فقد زاد "أن" بعد "لمّا" في سورة العنكبوت بخلاف سورة هود والقصة واحدة، وذلك أن سياق القصة في العنكبوت يقتضي هذه الزيادة من عدة أوجه، بخلاف سياقها في هود .فإنه أفاض في ذكر القصة في سورة العنكبوت أكثر مما هو في هود، فقد ذكر فيها من صفات قوم لوط السيئة ما لم يذكره في هود فقد قال :"إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ

العالمين * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال وَتَقْطَعُونَ السبيل وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المنكر" "العنكبوت :٢٨-٢٩".
ولم يزد في هود على أن قال :"وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السيئات" "هود :٧٨" . ففصّل في عمل السيئات ما لم يفصله في هود.
فلما كان المقام مقام إطالة وتفصيل في سورة العنكبوت ذكر "أَنْ" لمناسبة سياق الإطالة والتفصيل بخلاف سورة هود.
ومن ناحية أخرى أنَّ بَرمَ لوط بقومهِ وضِيقه بهم في سورة العنكبوت كان أظهرَ وأشد مما في سورة هود .كما يبدو أن ترقب لوط للخلاص من قومه في سياق العنكبوت كان أظهر مما في هود .يدل على ذلك عدة مواضع في القصة:
منها قوله في سورة العنكبوت :"وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُواْ لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امرأتك كَانَتْ مِنَ الغابرين" "العنكبوت :٣٣".
في حين قال في هود :"وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سياء بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هاذا يَوْمٌ عَصِيبٌ" "هود :٧٧".
فزاد في آية العنكبوت قوله :"وَقَالُواْ لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ " ... "العنكبوت :٣٣".
ومنها دعاؤه ربه أن ينصره على قومه بعدما كذبوه وتَعجَّلُوا العذابَ قائلين :"ائتنا بِعَذَابِ الله إِن كُنتَ مِنَ الصادقين" "العنكبوت :٢٩" فقال :"قَالَ رَبِّ انصرني عَلَى القوم المفسدين" "العنكبوت :٣٠" وليس الأمر كذلك في هود، فإنهم لم يصرحوا بتكذيبه ولم يَدْعُ لنفسه بالنصر .ومنها التصريح بلفظ التنجية ومجيء الفرج في سورة العنكبوت مرتين، مرة مع سيدنا إبراهيم إذ قال ملائكة الله له في لوط :"لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين" "العنكبوت :٣٢" . ومرة مع لوط نفسه، إذ قالوا له :"إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امرأتك" "العنكبوت :٣٣" ولم يرد في مثل ذلك في هود.
ولذا حَسُنَ ذِكْرُ "أَنْ" في العنكبوت دون هود مراعاة للتبسُّطِ في ذكر القصة والإفاضة فيها، وللدلالة على استطالة الوقت وطول الترقب والانتظار، وهو تعبير في غاية الجمال.
وشبيه بهذه الزيادة للانتظار قوله تعالى في سورة يوسف :"فَلَمَّآ أَن جَآءَ البشير أَلْقَاهُ على وَجْهِهِ فارتد بَصِيراً" "يوسف :٩٦".
فزاد "أن" بعد "لم" وذلك لمناسبة حالة الانتظار والترقب التي كان يمر بها نبي الله يعقوب، فقد كان شديد اللهفة على رؤية ولده .ومن المعلوم أن الشخص في مثل هذه لحال يستطيل كل لحظة تمر به، ففصل
بين "لما" ومجيء البشير وباعد بينهما إشارة إلى الشعور باستطالة الوقت وطول الانتظار .ولا يؤدي اتصال "لما" بالشرط ما يؤديه هذا الفصل الجميل.

جاء في "معترك الأقران"" : فإن قلت :إن قوله تعالى :"فلما أن جاء البشير" لم يقع في تكرار فَلِمَ زِيدَ "أن" ولم يأت على لأصل؟
قلت :لما كان مجيء البشير إلى يعقوب عليه السلام بعد طول الزمن وتباعد المدة، ناسب ذلك زيادة "أن" لما في مقتضى وضعها من التراخي."
وذكر مصطفى صادق الرافعي أن المراد بذلك" :تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف، وبين مجيئه لِبُعْدِ ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام، وأن ذلك كأنه كان منتظراً بقلق واضطراب، تؤكدهما وتصف الطرب لمقدمه واستقراره غُنَّةُ هذه النون في الكلمة الفاصلة وهي :"أن" في قوله :أن جاء."
ونحو ذلك قوله تعالى في موسى عليه السلام :"فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بالذي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ ياموسى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمس " ... "القصص :١٩" فزاد "أن" بعد "لما" وذلك أن موسى لم يكن مندفعاً للبطش بالقبطي في هذه المرة فزاد "أن" للدلالة على التَّرَيُّثِ والتمهل، وفصل بين "لما" والفعل للدلالة على الفاصل في الزمن وعدم الاندفاع، بخلاف المرة الأولى التي اندفع فيها فجأة لنصرة صاحبه، ألا ترى كيف قال في المرة الأولى :"فاستغاثه الذي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الذي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ موسى فقضى عَلَيْهِ " ... "القصص :١٥" فجاء بالفاء الدالّة على التعقيب وعدم المهلة بين الاستغاثة والطعنة "فاستغانه، فوكزه، فقضى عليه".
ومما يدلك على تمهله وعدم اندفاعه في المرة الثانية تعنيفه لصحابه قائلاً :"إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ" "القصص :١٨" حتى ظن صاحبه أنه ينوي البطش به بدلاً من عدوه فقال له :"ياموسى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمس" "القصص :١٩".
فزاد "أن" للدلالة على ذلك.
وهذا نظير ما قبله كما هو واضح.
وقد يزيد كلمة أو أكثر في موضع، ولا يذكرها في موضع آخر، كل ذلك حسبما يقتضيه المعنى والسياق.
فمن ذلك قوله تعالى:
"وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النسآء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَآءَ سَبِيلاً" "النساء :٢٢".
وقوله :"وَلَا تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً" "الإسراء :٣٢".
فقد زاد قوله :"ومقتاً" في آية النساء وذلك أن" متزوج امراة أبيه فاعل رذيلة يمقت فاعلها ويشنأ وتَستخسُّه الطِّباعُ السليمة، فوصفت فِعْلَتهُ بالمقت، وساوت الزنى فيما وراء ذلك."
ومن ذلك قوله تعالى:

"وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار" "التغابن :٩".
وقوله :"وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار" "الطلاق :١١".
فقد زاد في التغابن قوله :"ويكفر عنه سيئاته" دون الطلاق وذلك أن آية التغابن خطاب للكافرين وقد دعاه إلى الإيمان فقال :"زَعَمَ الذين كفروا أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ * فَآمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ والنور الذي أَنزَلْنَا والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" "التغابن ٧-٨".
ثم قال :"وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ" "التغابن :٩".
وأما آية الطلاق فهي خطاب للمؤمنين وقد دعاهم إلى التقوى فقال :"فاتقوا الله ياأولي الألباب الذين آمَنُواْ قَدْ أَنزَلَ الله إِلَيْكُمْ ذِكْراً" "الطلاق :١٠".
ثم قال :"وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ " ... "الطلاق :١١".
فكن ذكر تكفير السيئات مع الكافرين الذين هم في معصية مستديمة وسيئاتهم غير منقطعة أولى من ذكرها مع المؤمنين.
ومن ذلك قوله تعالى:
"وَإِذَا تتلى عَلَيْهِءَايَاتُنَا ولى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ في أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" "لقمان :٧".
وقوله :"وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءايات الله تتلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" "الجاثية :٧-٨".
فقد زاد في آية لقمان قوله :"كأنّ في أذنيه وقراً" دون آية الجاثية، وذلك" أن آية الجاثية لَمَّا تقدم فيه قولُه :"وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءاياتِ الله تتلى عَلَيْهِ" "الجاثية :٧-٨" فوصْفُه بسماعِ آياتِ لله لم يكن ليطابقه ذِكْرُ الوقر في الأذن لأنه قد ذكر سماعه الآيات .والوقر مانع من السماع فلم يناسب الإعلام بالسماع ذكر الوقر المانع منه..
ولما يقع ذكر سماع الآيات في آية لقمان وتقدم ذكر المشار إليه بقوله :"وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً" "لقمان ٦" وهذه زيادةُ مرتكبٍ فناسبها ذكر زيادة الوقر، مع أنه لم يرد فيها ذكر سماعه الآيات كما ورد في آية الجاثية .فازداد ووضح التلاؤم."
ومن ذلك قوله تعالى:
"وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول واحذروا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فاعلموا أَنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ المبين" "المائدة :٩٢".
وقوله :"وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول فَإِن تَولَّيْتُمْ فَإِنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ المبين" "التغابن :١٢".
فزاد في الآية الأولى قوله :"واحذروا" وقوله :"فاعلموا" مع اتحاد ما تضمنته الآيتان فيما سوى ذلك.

وسبب ذلك والله أعلم أن آية المائدة سبقها الأمر باجتناب الخمر وما ذكر معها من المحرمات وما تجرّه عليهم هذه المحرمات من شرور فقال :"ياأيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء فِي الخمر والميسر وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ الله وَعَنِ الصلاة فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ" "المائدة :٩٠-٩١".
فناسب ذلك ذكر هذه الزيادة لتأكيد التحذير.
"وأما آية التغابن فلم يرد قبلها ما يستدعى هذا التأكيد، ألا ترى الوارد فيها من قوله تعالى :"مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله وَمَن يُؤْمِن بالله يَهْدِ قَلْبَهُ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" "التغابن :١١" فلما لم يَرِدْ هنا نَهيٌ عن محرّم متأكّد التحريم ... لم يرد هنا من الزيادة المحرزة لمعنى التأكيد ما ورد هناك .فجاء كل على ما يجب ويناسب .وليس عكس الوارد بمناسب."
وقد يزيد الجار والمجرور في موضع ولا يذكر نحوه في موضع آخر، فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:
"فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ الله شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً" "الفتح :١١".
وقوله :"فَمَن يَمْلِكُ مِنَ الله شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ المسيح ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأرض جَمِيعاً" "لمائدة :١٧".
فزاد "لكم" في آية الفتح ولم يذكر مثل ذلك في المائدة .والسبب أن الخطاب في سورة الفتح مختص بالمخلّفين من الأعراب قال تعالى :"سَيَقُولُ لَكَ المخلفون مِنَ الأعراب شَغَلَتْنَآ أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فاستغفر لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ الله شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً" "الفتح :١١".
فلما كان الخطاب مختصاً بهؤلاء زاد "لكم" لأن الخطاب موجه إليهم.
أما في سورة المائدة فالخطاب عام، وليس خاصاً بجماعة معينين قال تعالى :"لَّقَدْ كَفَرَ الذين قآلوا إِنَّ الله هُوَ المسيح ابن مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ الله شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ المسيح ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأرض جَمِيعاً" "المائدة :١٧".
ألا ترى إلى قوله تعالى :"ومن في الأرض جميعاً" كيف عَمَّ أهل الأرض فلم يحسن أن يذكر "لكم" بل جاء الخطاب عاماً.
جاء في "درة التنزيل" عن سبب ذلك "لكم" في "الفتح" وعدم ذكرها في "المائدة" وقوله :إن آية سورة الفتح" نزلت في قوم تخلفوا عن رسول الله صلي الله عليه وسلم من غير عذر وتأخروا عن الجهاد وقالوا :شغلتنا أموالنا وأهلونا، ثم سألوه صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهم، يكتمون بذلك نفاقهم ويظهرون وفاقهم وقصدهم استمالته كيلا تضرهم عداوته فقال عز وجل:

"فَمَن يَمْلِكُ لَكَمْ مِّنَ الله شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكَمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكَمْ نَفْعاً" "الفتح :١١" فلما كان في قوم مخصوصين احتيج إلى "لكم" للتبيين.
فأما في هذه السورة "يعني سورة المائدة" فإنها لم تنزل لفريق مخصوص دون فريق بل عَمَّ بها .دليه إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومَنْ في الأرض جميعاً .فلما سيقت الآية إلى العموم لم يَحتج إلى "لكم" التي للخصوص."
ومن ذلك قوله تعالى:
"وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض وَلَا فِي السمآء وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ" "العنكبوت :٢٢".
وقوله :"وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ" "الشورى :٣١".
زاد في آية "العنكبوت" : "ولا في السماء" وذلك أن الكلام فيها في سياق تكذيب الأمم لرسلها بدءاً من نوح إلى إبراهيم إلى لوط إلى شعيب وغيرهم، وما حاق بهذه الأمم من العذاب والعقوبات، بخلاف آية الشورى فإنها وردت في سياق ما يصيب الإنسان من مصائب قال تعالى :"وَمَآ أصابكم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ * وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ" "الشورى :٣٠-٣١".
فلمّا كان الكلام في العنكبوت في سياق تكذيب الأنبياء ومحاربة الرسل ومعاقبة الله لهؤلاء الأقوام، كان من المناسب أن يزيد لهم في القول ويبسط لهم في التحدي ويخبرهم أنهم ضعفاء حتى لو بلغوا السماء وصعدوا فيها.
ومن ذلك قوله تعالى:
"فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فامسحوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِّنْهُ مَا يُرِيدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ " ... "المائدة :٦".
وقوله :"فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فامسحوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ الله كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً" "النساء :٤٣".
فزاد "منه" في آية المائدة، وذلك أن آية المادئة فيها تفصيل وتبيين لأحكام الوضوء كاملة، بخلاف آية النساء فإنها لم تذكر أحكام الوضوء تفصيلاً .فلما فصّل وبيّن في آية المائدة وزاد في ذِكْر الأحكام زاد الجار والمجرور "منه" للزيادة في التبيين .قال تعالى في سورة المائدة :"يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة فاغسلوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المرافق وامسحوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكعبين وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فاطهروا وَإِن كُنتُم مرضى أَوْ على سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الغائط أَوْ لاَمَسْتُمُ النسآء فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فامسحوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِّنْهُ مَا يُرِيدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ولاكن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" "المائدة :٦".

وقال في سورة النساء :"يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ الصلاوة وَأَنْتُمْ سكارى حتى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حتى تَغْتَسِلُواْ وَإِنْ كُنْتُمْ مرضى أَوْ على سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّن الغآئط أَوْ لاَمستم النسآء فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فامسحوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ الله كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً" "النساء :٤٣".
فأنت ترى أنه حيث كان السياق مجملاً أجمل في الذكر، وحيث كان مفصّلاً مبيناً زاد وبيّن، فوضع كل تعبير في الموضع الذي هو أوفق له.
جاء في "البرهان" للكرماني :أنه اد في آية المائدة "منه"" لأن المذكور في هذه السورة "يعني النساء" بعض أحكام الوضوء والتيمم فحسن الحذف .والمذكور في المائدة جميع أحكامها فحسن الإثبات والبيان."
ومثل هذه الزيادة للتفصيل ما جاء في قوله تعالى:
"مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأرض وَلَا في أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كتاب مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ" "الحديد :٢٢".
وقوله :"مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله وَمَن يُؤْمِن بالله يَهْدِ قَلْبَهُ" "التغابن :١١".
فقد زاد قوله :"في الأرض ولا في أنفسكم" على ما في التغابن، وذلك لأنه فصل في سورة الحديد في أحوال الدنيا والآخرة ما لم يُفصِّله في التغابن، فكان المناسب أن يفصل ويزيد موافقة لما قبله .جاء في سورة الحديد قوله :"اعلموا أَنَّمَا الحياوة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأموال والأولاد كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكفار نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فتراه مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حطاما وَفِي الآخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ الله ورضوان وَمَا الحياوة الدنيآ إِلاَّ متاع الغرور * سابقوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السمآء والأرض أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ * ... مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأرض وَلَا في أَنفُسِكُمْ " ... "الحديد :٢٠-٢٢".
ولم يرد مثل ذلك في سورة التغابن قال تعالى :"والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتنآ أولائك أصحاب النار خالدين فِيهَا وَبِئْسَ المصير * مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله" "التغابن :١٠-١١".
فأنت ترى أنه فصّل وذكر في سورة الحديد ما لم يذكره في التغابن، ولذا زاد في التفصيل في الآية المذكرة موافقة لما قبلها .جاء في "البرهان" للكرماني أنه فصل في سورة الحديد وأجمل في سورة التغابن" موافقة لما قبلها في هذه السورة "يعني الحديد" فإنه فصل أحوال الدنيا والآخرة فيها بقوله :"اعلموا أَنَّمَا الحياوة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأموال والأولاد" "الحديد :٢٠".
وقد يكون الذكر والحذف مراعاة لواقع الحال، فيكون الكلام في غاية الدقة في التعبير عن الحقيقة .فمن ذلك قوله تعالى:

"وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ موسى " ... "الحج :٤٢-٤٤".
فإنه قال :"وكُذِّبَ موسى" ولم يقل :"قوم موسى" كما قال في الأقوال الأخرى، وذلك لأن قوم موسى لم يكذبوه وإنما الذي كذبه فرعون وقومه .جاء في "الكشاف"" : فإن قلت :لِمَ قيل :"وكُذِّب موسى" ولم يقل :قوم موسى؟
قلت :لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط."
ومن ذلك قوله تعالى:
"وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ يابني إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراة وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسمه أَحْمَدُ " ... "الصف :٦".
وقوله :"وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ ياقوم لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ " ... "الصف :٥".
فإنه لم يقل في عيسى :"وإذ قال عيسى لقومه" كما قال في موسى :"وإذ قال موسى لقومه" بل قال :"يا بني إسرائيل" وذلك أن عيسى عليه السلام لم يكن له نَسبٌ فيهم فيكونوا قومه إذ لم يكن له فيهم أبٌ بخلاف موسى.
ومن ذلك قوله تعالى:
"كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ المرسلين * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ" "الشعراء :١٧٦-١٧٧".
ولم يقل :"أخوهم شعيب" كما قال فيمن قبله من الأنبياء :"إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ" "الأنبياء :١٠٦" "الشعراء" "إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ" "الشعراء :١٢٤" "إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ" "الشعراء :١٤٢" وغير أولئك من الرسل، إلا شعيباً فإنه لم يقل فيه :"أخوهم" وذلك أن شعيباً ليس من أصحاب الأيكة وإنما هو أخو مدين، ولذا قال تعال :"وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً" "الأعراف :٨٥" بخلاف أصحاب الأيكة .فهو قد أُرسلَ إلى مدين وإلى أصحاب الأيكة.
جاء في "الكشاف"" : فإن قلت :هلا قيل :"أخوهم شعيب" كما في سائر المواضع؟
قلت :إنَّ شعيباً لم يكن من أصحاب الأيكة .وفي الحديث" :إن شعيباً أخا مدين أُرسل إيهم وإلى أصحاب الأيكة"
ومن ذلك ما رود في قصة نوح وهو قوله تعالى :"قَالَ الملأ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" "الأعراف :٦٠".
وفي قصة هود قوله :"قَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكاذبين" "الأعراف :٦٦".

فقد زاد "الذين كفروا" على ملأ قوم هود دون ملأ قوم نوح .قيل :لأنه كان في أشراف قوم هود مَنْ آمنَ به، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن، فأخرج المؤمنين من أشراف قوم هود، لأن القائلين هم الذين كفروا منهم .جاء في "الكشاف"" : فإن قلت :لِمَ وصف الملأ بالذين كفروا دون الملأ من قوم نوح؟ قلت :كان في أشراف قوم هود من آمن به منهم :مرثد بن سعد الذي أسلم وكان يكتم إسلامه، فأُريدت التفرقة بالوصف، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن.

ونحوه قوله تعالى :"وَقَالَ الملأ مِن قَوْمِهِ الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الآخرة" "المؤمنون :٣٣" ويجوز أن يكون وصفاً وارداً للذم لا غيره."

وقد يكون الذكر والحذف لغير ذلك، فهناك أسباب مختلفة تدعو إلى الذكر والحذف، وكلها ترجع إلى مراعاة المقام وحسن الاختيار وذكر اللفظة في الوضع الذي يقتضيها وينادى عليها بأبلغ تعبير وأجمل صورة.

فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى :"وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين" "الشعرء :١٠٩" على لسان جميع الأنبياء الذين جرى ذكرهم في سورة الشعراء، فنزح قال لقومه :"وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين" "الشعراء :١٠٩" . وكذا قال هود لقومه "الشعرء :١٢٧" ، وكذا قال صالح لقومه "الشعراء ١٦٤" وكذا قال شعيب "الشعراء :١٨٠" إلا إبراهيم وموسى فإنهما لم يقولا ذاك.

أما إبراهيم فلأن أباه كان من المخاطبين، قال تعالى :"واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ" "الشعراء :٦٩-٧٠" فاستحيا أن يخاطب أباه بذاك.

وأما موسى فلأن فرعون رَبَّاه وقد ذكر ذلك له فقال تعالى :"قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ" "الشعراء :١٨" فلا يليق أن يقول له :"وما أسألك عليه من أجر" . ألا ترى أنه لا يليق أن يقول شخص لأبيه أو لمن رباه وأنفق عليه :"لا أسألك أجراً" فانظر إلى جمال الذوق وحسن الاختيار في التعبير .جاء في "البرهان" للكرماني أنه ليس في قصة موسى عليه السلام ذلك" لأنه رباه فرعون حيث قال :ألم نُرَبِّكَ فيها وليداً؟

ولا في قصة إبراهيم لأن أباه في المخاطبين حيث يقول :"إذ قال لأبيه وقومه" وهو رباه.

واستحيا موسى وإبراهيم أن يقولا :"ما أسألكم عليه من أجر" وإن كان مُنَزَّهين من طلب الأجرة."

ومن ذلك قوله تعالى :"وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَآءَ وَجَعَلَكُمْ مُّلُوكاً وَآتَاكُمْ مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن العالمين" "المائدة :٢٠".

وقوله :"وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي

ذلكم بلاء مِّن رَّبِّكَمْ عَظِيمٌ" "إبراهيم :٦".
فزاد في آية المائدة :"يا قوم" ولم يذكر ذلك في آية إبراهيم وذلك أنه في آية المائدة عَدَّد عليهم النِّعَمَ الجِسام في أنْ جعل منهم أنبياء وجعل منهم ملوكاً، وأنه آتاهم ما لم يُؤْتِ أحداً من العالمين، فحسن نداؤهم بـ "يا قوم" وذلك أن الإنسان يحب أن ينتسب إلى قوم ذوي رفعة ومكانة عالية، بخلاف المستذلين والمستعبدين وهو سياق الآية الثانية.
هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنه طلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم فقال :"يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا على أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ" "المائدة :٢١".
فناداهم بـ "يا قوم" عطفاً لقلوبهم لتحميلهم مهمة دخول الأرض المقدسة وتكليفهم بهذا الأمر الشاق.
أما آية إبراهيم فليس فيها طلب شيء ولا تكليفٌ بأمر، وإنما فيها تذكيرهم بما مر عليهم من محن وعذاب .وفرقٌ بين الحالتين.
ومن جهة أخرى أن سياق قصة موسى في سورة المائدة أطول مما في سورة إبراهيم، فزاد "يا قوم" لمناسبة طول القصة في سورة المائدة .وهذا خط واضح في التعبير القرآني فاقتضى كل ذلك هذه الزيادة في سورة المائدة دون سورة إبراهيم والله أعلم.
جاء في "البرهان" للكرماني أن" تصريح اسم المخاطب مع حرف الخطاب يدل على تعظيم المُخاطَبِ به .ولما كان ما في هذه السورة نِعَماً جِساماً ما عليها من مزيد وهو قوله :"جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَآءَ وَجَعَلَكُمْ مُّلُوكاً وَآتَاكُمْ مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن العالمين" "المائدة :٢٠" صرح فقال :"يا قوم" . لموافقة ما قبله لما بعده من النداء وهو قوله :"يا قوم ادخلوا" "يا موسى إن فيها" "يا موسى إنّا" ولم يكن ما في إبراهيم بهذه المنزلة فاقتصر على حرف الخطاب."

ومن لطيف الذكر والحذف قوله تعالى:
"وَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الغيب والشهادة فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" "التوبة :٩٤".
فزاد في الآية الثانية قوله :"والمؤمنون" بخلاف الآية الأولى وذلك أن الآية الأولى في المنافقين، وهم الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان ولا يعلم المؤمنون بهم إلا مَنْ أطلعه رسولُ الله عليه، فلم يقل :"والمؤمنون" لأن المؤمنين لا يرون أعمالهم بخلاف الآية الثانية فإنها في طاعات المؤمنين وهي ظاهرة للجميع ففرق بين الجماعتين.
قال تعالى في الطائفة الأولى وهم المنافقون :"يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا الله مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الغيب والشهادة فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" "التوبة :٩٤".
وقال في الجماعة المؤمنة :"خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صلاوتك سَكَنٌ لَّهُمْ والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يعلموا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصدقات وَأَنَّ الله هُوَ التواب الرحيم * وَقُلِ اعملوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والمؤمنون" "التوبة :١٠٣-١٠٥".
جاء في "البرهان" للكرماني في هاتين الآيتين أن" الآية الأولى في المنافقين ولا يطّلع على ما في ضمائرهم إلا الله تعالى، ثم رسوله بإطلاع الله إياه عليها لقوله :"قَدْ نَبَّأَنَا الله مِنْ أَخْبَارِكُمْ" "التوبة :٩٤".
والثانية في المؤمنين، وطاعات المؤمنين وعاداتهم ظاهرة لله ولرسوله وللمؤمنين .وختم آية المنافقين بقوله :"ثم تُردون" فقطعه عن الأول لأنه وعيد.
وختم آية المؤمنين بقوله :"وسَتُردُّون" لأنه وعد فبناه على قوله :"فسيرى الله".
وجاء في "درة التنزيل" أن الآية الثانية" :فيمن أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وهو الذي أوجب عليهم الصدقات بأن يقول لهم :اعملوا ما أمركم الله به من الطاعات كالصلوات والصدقات فإن الله ورسوله والمؤمنين يرون ذلك، وهذه الأعمال مما تُرى بالعين خِلافَ أعمال المنافقين التي تقتضي لهم النفاق لإضمارهم خلاف إظهارهم وهو مما لا يرى بالعين وإنما يعلمه عالم الغيب، فلذلك يُذكر المؤمنون في الأولى وذُكروا في الثانية."
ومن ذلك قوله تعالى:
"ذلك بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ الله وَلاَ يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكفار وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين * وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ الله أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ" "التوبة :١٢٠-١٢١".

فقد قال في الآية الأولى :"إِلاَّ كَتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ" "التوبة :١٢٠" وقال في الثانية :"إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ" "التوبة :١٢١" ، وذلك أن الآية الأولى فيها ما ليس عملاً لهم كالظمأ والنصب والمخمصة فهذه ليست من أعمالهم غير أنه تكتب لهم أعمالاً صالحة.
أما الآية الثانية فما جاء فيها كله من أعمالهم فالنفقات وقطع الوديان هي أعمالٌ لهم ولذا لم يكن ثَمَّةَ داعٍ إلى القول :"كتب لهم به عمل صالح" لأنه عمل حقيقة.
ثم انظر إلى خاتمة كل من الآيتين .فقد قال في ختام الآية الأولى :"إِنَّ الله لَا يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين" "التوبة :١٢٠" لأن ما تقدم ليس عملاً وإنما هو من الإحسان الذي تدخل فيه عموم العبادات.
وقال في ختام الآية الثانية :"لِيَجْزِيَهُمُ الله أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ" "التوبة :١٢١" لأنه من أعمالهم.
جاء في "البرهان" للكرماني أن" الآية الأولى مشتملة على ما هو من عملهم وهو قوله :"وَلَا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكفار وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً" "التوبة :١٢٠" وعلى ما ليس من عملهم وهو الظمأ والنصب والمخمصة. والله سبحانه وتعالى بفضله أجرى ذلك مجرى عملهم في الثواب فقال :"إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ" "التوبة :١٢٠" أي جزاء عملٍ صالح.
والآية الثانية مشتملة على ماهو من عملهم وهو إنفاق المال في طاعة الله وتحمل المشاق فكتب لهم ذلك بعينه .وكذلك ختم الآية بقوله :"لِيَجْزِيَهُمُ الله أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ" "التوبة :١٢١" لأن الكل من عملهم فوعدهم أحسن الجزاء عليه.
وختم الآية الأولى بقوله :"إِنَّ الله لَا يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين" "التوبة :١٢٠" حين ألحق ما ليس من عملهم بما هو من عملهم .ثم جازاهم على الكل أحسن الجزاء."
وجاء في "درة التنزيل"" : فلما كان ما في الثانية عملهم كُتب على جهته لم يحتج إلى أن يكتب به عمل صالح لأنه هو .والأول كان فيه ما ليس بعملهم فكتب به أجر مثل عملهم فلذلك كانت الزيادة في الأولى ولم يحتج إليها في الأخرى.
والجواب عن المسألة الثانية وهي تعقيب الأولى بقوله :"إِنَّ الله لَا يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين" "التوبة :١٢٠" هو أن من أخبر عنه بأنه أصابه ظمأ ونصب وجوع فقد أخبر عنه بفعل غيره به ولم يخبر عنه بفعل فعله هو .إلا أنه يَجبُ له بم اوصل إليه من ألم العطش والجوع والتعب والنصب الأجرُ، فلذلك عقبه بقوله :"إِنَّ الله لَا يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين" "التوبة :١٢٠" أي :من أحسن طاعة الله وتعرض منها لما يلحقه فيه من هذه الشدائد.
وأما الآية الثانية وتعقيبها بقوله :"لِيَجْزِيَهُمُ الله أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ" "التوبة :١٢١" فلأن جميع ما ذِكر كان عملاً لهم فوعدهم حسن

الجزاء على عملهم .وذلك ظاهر والله أعلم."
ومن لطيف الذكر الذي يقتضيه المعنى قوله تعالى:
"وَلَا تَكْتُمُواْ الشهادة وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ " ... "البقرة :٢٨٣".
ولم كتف بقوله :"إنه آثم" بل إسند الإثم إلى القلب وذلك لأنَّ الشهادة محلها القلب وكتمانها هو أن يبقيها في قلبه فنسب الإثم إلى القلب وهو تعبير بديع.
جاء في "الكشاف" في هذه الآية" :فإن قلت :هلا اقتصر على
قوله :"آثم" وما فائدة ذكر القلب، والجملة هي الآثمة لا القلب وحده؟
قلت :كتمان الشهادة هو أن يضمرها ولا يتكلم بها، فلما كان إثماً مقترناً بالقلب أسند إليه لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يُعمَلُ بها أبلغ .ألا تراك تقول إذا أردتَ التوكيد :هذا مما أبصرتهُ عيني ومما سمعته أذني ومما عرفه قلبي .ولأن القلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله فكأنه قيل :فقد تَمكَّنَ الإثمُ في أصل نفسه ومَلَكَ أشرف مكان فيه .ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط."
ومن الذكر الذي يقتضيه المعنى أيضاً قوله تعالى:
"ولاكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" "البقرة :٥٧، الأعراف :١٦٠".
وقوله:
"ولاكن أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" "آل عمران :١١٧".
فزاد في الآيتين الأوليين :"كانوا" بخلاف آل عمران وذلك أن آيتي البقرة والأعراف في أقوام قد مضوا وهم بنو إسرائيل، قال تعالى في البقرة :"وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغمام وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا ولاكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" "البقرة :٥٧".
وقال في الأعراف :"وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الغمام وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ المن والسلوى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا ولاكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" "الأعراف :١٦٠".
وأما آية آل عمران فهي ليست في أقوام ماضين وإنما مثل ضربه الله لكل عصر قال تعالى :"مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هاذه الحياة الدنيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظلموا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ الله ولَاكن أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" "آل عمران :١١٧".
فناسب ذكر "كان" في آيتي البقرة والأعراف دون آية آل عمران .جاء في "البرهان" للكرماني أن ما في السورتين يعني البقرة والأعراف" إخبارٌ عن قوم ماتوا وانقرضوا وما في آل عمران مَثَل."
ومن الزيادة التي اقتضاها السياق قوله تعالى:
"وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحياة الدنيا " ... "القصص :٦٠".
فقد ذكر الزينة بخلاف قوله تعالى:
"فَمَآ أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحياة الدنيا " ... "الشورى :٣٦".

وقد ورد ذكر الزينة في القصص لورودها فيما بعد في قوله تعالى :"فَخَرَجَ على قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ " ... "القصص :٧٩" بخلاف سورة الشورى فإنها لم يرد فيها مثل ذاك.
جاء في "معترك الأقران"" : فإنْ قلت :ما وجه زيادة "الزينة" في هذه الآية على آية الشورى :"وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحياة الدنيا" "القصص :٦٠" ؟
والجواب لورود ذكرها في قوله تعالى :"فَخَرَجَ على قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ" "القصص :٧٩" فالتحمت الآية بتلك القصة .ولم يرد في سورة الشورى من أولها إلى آخرها حال دنيوي لأحد بل تضمنت حقارة الدنيا ونزارة رزقها وأنه مقدور غير مبسوط .وتلك حال الأكثر."
ومن الزيادة التي اقتضاها السياق قوله تعالى:
"إِنَّ الذين يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ الله مِنَ الكتاب وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أولائك مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النار وَلَا يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ القيامة وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" "البقرة :١٧٤".
وقوله :"إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ الله وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولائك لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الآخرة وَلَا يُكَلِّمُهُمُ الله وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القيامة وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" "آل عمران :٧٧".
فقد زاد في آل عمران :"ولا ينظر إليهم" بخلاف البقرة وذلك لسببين:
الأول :أن آية البقرة في الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون بكتمانهم هذا ثمناً قليلاً .وأما آية آل عمران فليست في الذين يكتمون بل في الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً وهو ذنب أكبر وأعظم من مجرد الكتمان .إذ هم لم يكتموا الحق فقط بل غيروه وأقسموا على ذلك واشتروا به ثمناً قليلاً .فهم لم يكتفوا بالكتمان بل تجاوزوه في دعم الباطل، فلما زادوا في الذنب زاد الله لهم في العقوبة فقال :"ولا ينظر إليهم".
والسبب الثاني :أن السياق في آل عمران في الوفاء بعهد الله فقد قال قبل هذه الآية:
"بلى مَنْ أوفى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ" "آل عمران :٧٦" . وليس الأمر كذلك في البقرة فقد سبق هذه الآية الكلام على الميتة والدم ونحوها قال :"إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمَ الخنزير" "البقرة :١٧٣".
فلما كان المقام في آل عمران هو الكلام على عهد الله ناسب تشديد العقوبة على مضيعيه أكثر مما في البقرة لأن السياق يقتضيه.
فما أجلّ هذا الكلام وأعظمه!
ونكتفي بهذا القدر فإن فيه الكفاية وإلا فالاستقصاء بعيد المنال.

التوكيد في القرآن الكريم

من المعلوم أنه يؤتى بالألفاظ المؤكدة بحسب الحاجة إليها . فقد يكون الكلام لا يحتاج إلى توكيد ، وقد يحتاج إلى مؤكد واحد أو أكثر بحسب ما يقتضيه المقام . وقد راعى القرآن الكريم ذلك أدق المراعاة في جميع ما ورد من مواطن التوكيد فهو في غاية الدقة في اختيار الألفاظ المؤكدة في وضعها في الموضع المناسب بحسب طريقة فنية متقنة.
إن التوكيد القرآني كله وحدة متكاملة منظور إليه نظرة شاملة وقد روعيت في ذلك جميع مواطنه فهو يؤكد في موطن ما مراعيا موطنا آخر قرب أو بعد ، فتدرك أنه أكد في هذا الموطن لسبب اقتضى التوكيد ولم يؤكد في موطن آخر يبدو شبيها به لانعدام موجبه ، وترى أنه هنا أكد بمؤكدين وأكد في موطن آخر يبدو شبيها به بمؤكد واحد لسبب دعا إلى استعمال كل تعبير في موطنه المناسب له . وكذلك في اختيار المؤكدات فهو يؤكد هنا بالنون المخففة مثلا وفي موطن آخر بالنون الثقيلة ، وهنا بإن المشددة وفي موطن آخر بإن المخففة ويستبدل حرفا بحرف كل ذلك بحسب منظور فني كامل متكامل في كل القرآن ، فجاء التوكيد كله في القرآن كله كأنه لوحة فنية واحدة فيها من عجائب الفن ـ وليس فيها إلا العجيب ـ ما يجعل أمهر الفنانين يقف مبهورا دهشا مقرا بعجز الخلق أجمعين من استخلاص عجائبه فضلا عن الإتيان بمثله .
ولنضرب أمثلة على ذلك تكون مرقاة لما فوقها ومن الله التوفيق .
1- لقد ذكرنا أن القرآن الكريم قد يأتي بلفظ مؤكد في موطن وينزعه في موطن آخر يبدو شبيها به ، وإذا تأملت ذلك وجدت أنه وضع كل تعبير في موطنه اللائق به.
أ- فمن ذلك مثلا الإتيان باللام التي تفيد التوكيد وذلك نحو قوله تعالى: " فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (29)" النحل
وقوله " قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72) " الزمر
وقوله " ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (76)" غافر ـ المؤمن
فقد أدخل اللام في آية النحل على (بئس) فقال: (فلبئس مثوى المتكبرين) دون الآيتين الأخريين إذ قال فيهما (فبئس مثوى المتكبرين) وذلك أنه في سورة النحل وصف قوما أشد كفرا وأكبر جرما من المذكورين في آيتي الزمر والمؤمن ، وذلك أنهم ضلوا وأضلوا غيرهم وحملوا من أوزار الذين يضلونهم علاوة على أوزارهم هم فزاد عذابهم ، قال تعالى : " لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (25) " النحل

فناسب ذلك زيادة اللام لتوكيد العذاب لهم بخلاف المذكورين في الآيتين الأخريين ، فإنه لم يصفهم بمثل هذا الوصف.
ومن ناحية ثانية أفاض في سورة النحل في وصف الكافرين ما لم يفضه في السورتين الأخريين ، فناسب ذلك أيضا ذكر اللام والزيادة في التوكيد ، إذ كما زاد وتبسط في الوصف زاد في التوكيد لأنه هو المناسب لمقام التبسيط والإفاضة . جاء في " درة التنزيل " : للسائل أن يسأل فيقول : ما بال الآية في سورة النحل خصت وحدها بدخول اللام على قوله : " لبئس " فيها وإخلاء الآيتين من السورتين منها فيما قبلهما؟
الجواب أن يقال: إن الآية الأولى من هذه السورة في ذكر قوم قد ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم وهم الذين أخبر الله تعالى عن أتباعهم أنهم سألوهم عن القرآن فقالوا : ليس من عند الله وإنما هو أساطير الأولين : قال تبارك وتعالى: " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (25) " النحل.
وهؤلاء أكثر الناس آثاماً وأشدهم عقاباً . ومن هذه صفته اختير عند تغليظ العقاب له إلى المبالغة في تأكيد لفظه فاختيرت اللام هنا لذلك، ولأن بعدها في ذكر أهل الجنة قوله:" ... وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30)" النحل فاللام في: (لنعم) بإزاء اللام في: (لبئس). وليس كذلك الآيتان في سورة الزمر والمؤمن لأنهما في ذكر جملة الكفار قال الله عز من قائل: " وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا " الزمر وقال في سورة المؤمن: " الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70) "غافر إلى قوله : (ادخلوا) فلما كان المذكورون في سورة النحل فيمن لزمهم وزران عن ذنوبهم التي أتوها وعن ذنوب غيرهم التي حملوا(1) عليها ولم يذكر من سواهم في الآيتين الأخيرتين يحمل أثقالاً مع أثقالهم، حسن التوكيد هناك فضل حسن فلذلك خص باللام "(٢).
ومن ذلك قوله تعالى : "... لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30)" النحل.
وقوله :" وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32) الأنعام
فأكد ذلك باللام في حين قال :" أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (169) " الأعراف
فلم يؤكد باللام.

---

(١) كذا في المطبوع ولعل الصواب (حصلوا).
(٢) درة التنزيل ٢٦٣.

وسر ذلك والله أعلم أن السياق في آيات الأنعام والنحل هو عن الدار الآخرة، وليس كذلك السياق في آيات الأعراف.
قال تعالى في سورة الأنعام: " وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27) بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (28) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29) وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (30) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (31) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32) الأنعام
فأنت ترى أن الكلام على الدار الآخرة، وليس الأمر كذلك في آيات الأعراف بل هو في العقوبات الدنيوية لبني إسرائيل قال تعالى: " وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (166) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (167) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (168) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (169) " الأعراف
فلما كان الكلام في آيات الأنعام على الدار الآخرة أكدها باللام، ولما كان الكلام في آيات الأعراف على عقوبات الدنيا لم يؤكد الآخرة باللام، بل أكد سرعة العقاب لأنه عاجلهم في الدنيا فقال: " إن ربك لسريع العقاب ".
وكذلك آية النحل فالسياق فيها يتحدث عن الدار الآخرة قال تعالى: " ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (27) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (29) وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32) النحل

فأنت ترى أن الكلام على الدار الآخرة، فأكدها باللام بخلاف آية الأعراف(١) .
ومن ذلك قوله تعالى: " لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ ..." الأعراف
وقوله: " وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9) النحل
فلم يذكر اللام في جواب (لو) في الآية الأولى بخلاف الثانية، وذلك لأن هداية الناس أصعب وأعسر من الإهلاك. فإهلاك الألوف وألوف الألوف ممكن بوسائل الفتك والتدمير والظواهر الطبيعية، ولكن هدايتهم عسيرة، فجاء باللام لما هو شاق عسير ونزعها مما هو أيسر.
ونحوه قوله تعالى: " أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ " الأعراف وهذه نظيرة آية الإهلاك السابقة بخلاف قوله تعالى: " وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً ... (60) الزخرف فنزع اللام من الآية الأولى لأن فعلها أيسر من الآية الثانية، فأكد ما هو أعسر وأشق وإن لم يكن على الله شيء عسير.
ونحوه قوله تعالى : " ... أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ...." يس
فإنه أيسر من قوله : " وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (67) يس

---

(١) انظر معاني النحو ٣٤٢/١ وما بعدها.

فالإطعام أيسر من المسخ (1) . فجاء باللام في الموضع الذي تستحقه، ونزعها من الموضع الذي لا يقتضي ذكرها.
ومن طريف ذلك قوله تعالى:" أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70) " الواقعة
فقال في آية الزرع: " لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ " باللام في: (لجعلناه)، وقال في آية الماء: " لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ " فلم يذكر اللام وذلك لسر لطيف وهو أنه ذكر عمل الإنسان في الحراثة والزرع وبذل الجهد فيهما فقال" أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) " الواقعة فإن الزراعة والحراثة تقتضي بذل جهد كبير ليستوي الزرع على سوقه، بخلاف آية الماء فإنه لم يذكر بذل جهد فيه للإنسان بل قال : "أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) " الواقعة فآية الزرع ذكر فيها بذل الجهد والعمل، بخلاف آية الماء فإنه لم يذكر فيها شيئاً.
ثم إن الإنسان إذا حرث وزرع وبذل جهداً ومراقبة حتى إذا استوى زرعه على سوقه وحان وقت الإستفادة منه أصبح حطاماً، كان ذلك أشق شيء عليه لأنه يرى عمله وكده وإنفاقه ذهب هباء وضاع سدى، ألا ترى إلى قوله تعالى فيما

بعد : فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67) الواقعة.
ومعنى (تفكهون): تندمون على اجتهادكم فيه(٢) وتذكرون الحرمان بعد التعب،
والمغرم : المثقل بالديون.
ثم انظر إلى فداحة الخسارة الاقتصادية بصيرورة الزرع حطاماً وما ينتج عن ذلك من كوارث جسام تحيق بالبشرية .

---

(١) انظر معاني النحو - لو.
(٢) تفسير البيضاوي ٧١٢٠

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن الماء الأجاج يمكن تحويله إلى ماء عذب بالتقطير أو بغير ذلك من وسائل التحلية فيكون صالحاً للاستعمال والشرب كما نرى الآن في كثير من الأماكن، أما الحطام من الزرع فلا يمكن تحويله إلى حب أو فاكهة يأكل منها الإنسان، فحالة الحرمان والخسارة فيه أكبر. فانظر الفرق بين الحالين.
فوضع اللام في الموضع الذي يقتضيها. جاء في (الكشاف) : «إن هذه اللام إنما أدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب للدلالة على أن أمر المطعوم مقدم على أمر المشروب وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم. . . ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب »(1) .
يدلك على ذلك أنه حيث اجتمع الأكل والشرب في القرآن الكريم قدم الأكل على الشرب. قال تعالى: " وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) " . وقال: (كلوا واشربوا) في آيات عدة من القرآن الكريم(2) بتقديم الأكل على الشرب، وههنا قدم الحراثة والزرع على الماء، فناسب ذلك إدخال اللام على آية المطعوم دون المشروب.
وجاء في (روح المعاني) نقلاً عن (المثل السائر) : « إن اللام أدخلت في المطعوم دون المشروب لأن جعل الماء العذب ملحاً أسهل إمكاناً في العرف والعادة، والموجود من الماء الملح أكثر من الماء العذب. وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة، فلم يحتج في جعل الماء العذب ملحاً إلى زيادة تأكيد، فلذا لم تدخل لام التأكيد المفيدة لزيادة التحقيق.
وأما المطعوم فإن جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد، وإذا وقع يكون عن سخط شديد. فلذا قرن باللام لتقرير إيجاده وتحقيق أمره. إنتهى »(3) .

---

(١) الكشاف ١٩٧/٣.
(٢) انظر البقرة ٦٠ ، الطور ١٩ ، الحاقة ٢٤ ، المرسلات ٤٣ .

(٣) روح المعاني ١٤٩/٢٧.

ب - ونحو ذلك إدخال نون التوكيد على الفعل في الموضع الذي يقتضيها وذلك نحو قوله تعالى :" الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147) " البقرة
وجاء هذا التعبير في الأنعام - الآية ١١٤ وفي سورة يونس - الآية ٩٤ . غير أنه قال في سورة آل عمران :" الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (60) " آل عمران
فأكد الفعل (تكون) في سورة البقرة والأنعام ويونس دون آية آل عمران.
وذلك أن المقام يقتضي التوكيد في كل موطن أكد فيه الفعل دون الموطن الذي لم يؤكد فيه. فقد أكد في سورة البقرة لأن المقام فيها في تبديل القبلة وما صحب ذلك من إرجاف وأقاويل وإعلان حرب نفسية على المسلمين حتى ارتد بعض ضعاف الإيمان. قال تعالى: " سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142) " البقرة وقال : " ...وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ..." (143) البقرة
ثم ذكر أن أهل الكتاب لن يتوجهوا إلى قبلة المسلمين مهما جئتهم بالآيات البينات والحجج الواضحة فقال مؤكداً بالقسم: " وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ..." البقرة
ثم قرر أن هذا هو الحق الذي لا مرية فيه، فاحتاج كل ذلك إلى التوكيد فقال: " الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147) " البقرة
وأما في آية آل عمران فليس الأمر كذلك فقد قال: " إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (60) " آل عمران
ففي آيات البقرة من الإرجاف والفتنة ماليس في آية آل عمران، فاحتاج المقام في البقرة إلى التوكيد بخلاف آل عمران.
وكذلك السياق في آية يونس فإنه يقتضي التوكيد فقد قال تعالى :" فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (95) " يونس
فلما قال: " فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ "احتاج إزالة الشك إلى التوكيد. ثم انظر إلى المؤكدات في السياق وهي:
١- التوكيد بالقسم وقد في قوله تعالى: " لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ".
٢- التوكيد بالنون في قوله: " فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ " وقوله: " وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ "

٣- التوكيد ب (إن) في قوله تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96)"يونس فاقتضى كل ذلك التوكيد، إذ السياق كله مؤكد.
وكذلك ما جاء في آية الأنعام، فإن السياق فيها في تكذيب الرسول وعدم الإيمان به حتى قال: " وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (111) " الأنعام
ثم قال بعد ذلك: " وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116) " الأنعام
فانظر كيف احتاج السياق إلى توكيد أنه على الحق وأنه عليه ألا يكون من الممترين، فأكد في الموطن الذي اقتضى ذاك بخلاف مالم يقتض ذاك.
ومن ذلك قوله تعالى: " لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197) " آل عمران
وقوله: " مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (4) " غافر
فقد أكد النهي في آل عمران بالنون فقال: " لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ " بخلاف آية غافر. وذلك أن المقام في آل عمران يقتضي التوكيد، إذ الآية في سياق ابتلاء المسلمين في أموالهم وأنفسهم والأذى الكثير ينالهم من عدوهم الكافر يبطش بهم ويفتنهم عن دينهم وينال منهم حتى يبلغ به الأمر إلى أن يخرجهم من ديارهم. قال تعالى: " لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (186) " آل عمران
وقال : " ... فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ..." 195 آل عمران
فاقتضى ذلك تأكيد عدم الاغترار بتقلب الذين كفروا في البلاد وسيطرتهم عليها، في حين لم يكن السياق في شيء من ذلك في (غافر) فلم يحتج إلى التأكيد والله أعلم.
ج - ونحو ذلك التأكيد ب (إن) وذلك نحو قوله تعالى :" لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (127) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (128) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (129) " آل عمران
وقوله:" ... فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (25) النساء
وقوله: " لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى

اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (74) " المائدة
فأنت ترى أنه في الآيات الثلاث لم يؤكد المغفرة بل قال: " وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ " في حين قال:
" فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (198) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (199) " البقرة .
وقال:" فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (182) " البقرة
بتوكيد المغفرة فيهما فقال: " إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ "
وذلك أن المقام يقتضي أن يكون كل تعبير في موطنه، وإيضاح أن المقام في آيات آل عمران هو في إذلال الكافرين وكبتهم وقطع طرف منهم حتى قال لرسوله عليه الصلاة والسلام: " لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (128)" آل عمران فلا يناسب ذلك توكيد المغفرة.

ومثل ذلك ما جاء في سورة المائدة فإنها في سياق التهديد للذين يقولون : إن الله ثالث ثلاثة، وقد توعدهم بأنهم إن لم ينتهوا عن القول بذلك فسيمسهم عذاب أليم، ثم دعاهم إلى التوبة عن القول بذاك. فالمقام - كما ترى - مقام التهديد والتوعد وليس مقام توكيد المغفرة.
ونحوه جاء في سورة النساء فهو في سياق إقامة الحد على من يأتي الفاحشة. وأظن أنه من نافلة القول أن نذكر أن هذا ليس مقام توكيد المغفرة أيضاً، بخلاف آية البقرة الواردة في سياق الحج وفي مناسكه وشعائره فقد قال : " فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ "
وأحسب أن الفرق بين هذا المقام وما قبله من المقامات من الوضوح بمكان وأن هذا المقام أولى المقامات بتوكيد المغفرة. وكيف لا وقد أخبر الصادق المصدوق أن: « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه، و: «أن الله يباهي الملائكة بأهل عرفة ويشهدهم على أنه قد غفر لهم».
إن أصحاب هذا المقام ذهبوا ليؤدوا فريضة الحج طلباً للمغفرة، وأولئك إما في مقام معصية أو مقام كفر فأي المقامين أحق بتوكيد المغفرة؟ !
وكذلك قوله تعالى: " فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (182) " البقرة
فالمقام هذا مقام الإصلاح وحفظ الموصي من أن يقع في جنف أو إثم. أفترى أن الذي يسعى في هذا لا يستحق توكيد المغفرة؟
وأخيراً وازن بين المقامين اللذين مرا: مقام المعصية والكفر ومقام الإصلاح هذا وحفظ الحقوق، ثم احكم أيهما ينبغي أن يكون مقام توكيد المغفرة تجد الجواب بيناً شافياً. ثم بعد ذلك انظر أي الكلام هذا؟
د - ومن هذا الباب التوكيد بالحروف الزائدة. فإنه من المعلوم أن ما يسمونه بالحروف الزائدة يفيد التوكيد في الأغلب.
قال تعالى: " حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (20) "
وقال : " حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38) " الزخرف
وقال :" ... حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا..." الزمر
فزاد (ما) بعد (إذا) في آية فصلت، وذلك لأن شهادة السمع والأبصار وسائر الجوارح « من المعاني القوية التي لا يقتضيها الشرط الذي هو المجيء .
ألاترى استنكارهم لها حتى قالوا لجلودهم: (لم شهدتم علينا؟) فأجابوا بأن قالوا: " قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ "، وليس كذلك: " ... حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا..." لأن المجيء يقتضي فتح الأبواب . . . وكذلك: " حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ " أي: قال الآدمي لقرينه من الجن اللذين اشتركا في الدنيا في معصية الله ثم اشتركا في العذاب في الآخرة: ليتني لم أتبعكِ وكانِ بعد ما بين المشرقين بيني وبينك.

وهذا أيضاً مما يتوقع كونه منهما، ثم يتبرى بعض من بعض فليس في الجزاء ما يوجب قوة الشرط الذي لا يتوقع ولا يستفاد إلا به ومنه »(1) .
ثم إن شهادة السمع والأبصار والجلود أمر مستغرب بخلاف فتح الأبواب ونحوه فأكده لذلك .
وقال تعالى: " لَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا " البقرة
زيدت (ما) مؤكدة على الشهداء حضور الشهادة عند الدعوة إليها بخلاف قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ " البقرة
وقوله: " وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ " البقرة
وذلك أن الشهيد قد يتباطأ أو يتكاسل أو ينكص عن الشهادة لأنه ليست له مصلحة خاصة به أو قد تلحق به ضرراً فاحتاج إلى التوكيد(1) .
ومن ذلك قوله تعالى: " وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (71) " الحج
وقوله: " وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20) " الزخرف
فقال في آية الحج: (ما ليس به علم) وقال في الزخرف: (ما لهم بذلك من علم) فزاد (من) في آية الزخرف وذلك أن المقامين مختلفان.

---

(١) درة التنزيل ٤١٨,٤١٧٠
(٢) انظر (معاني النحو) ٤٧٨/٤٠

فالكلام في آية الحج على من يعبد غير الله، فقد ذكر أن هؤلاء عبدوا ما عبدوا من دون علم ولا معرفة. والتمييز بين عبادة الله وغيره لا يحتاج إلى قدر كبير من العلم، فأقل قدر منه يكفي لمعرفة الطريق الصحيح، وأقل قدر من النظر يهدي إليه ويدل على ضرورة ترك عبادة غير الله.
وأما آية الزخرف فالكلام فيها يتعلق بالقدر قال تعالى : " وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ..." الزخرف . والكلام في القدر قد يحتاج إلى قدر كبير من العلم ورسوخ قدم في المعرفة.
فحتى الذين اتفقوا على عبادة الله اختلفوا في القدر اختلافاً كبيراً حتى أنه أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن الكلام في القدر، فاحتاج الموطن هنا إلى توكيد العلم بخلاف الموطن السابق، ولذا قال: "مالهم بذلك من علم" فنفى عنهم أقل العلم وهم يخوضون في هذه المسألة الشائكة، ثم أكد هذا المعنى بقوله: " إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ " بخلاف الآية الأولى التي ختمها بما ليس له علاقة بالعلم بل قال " وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ "
ومن هذا الباب قوله تعالى :" وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (51) الأنعام

وقوله:" وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120)" البقرة
وقوله:" وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (37)" الرعد
فقال في آية الأنعام: " لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ " . وقال في آية البقرة: " مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ "بزيادة (من) المؤكدة، وكذا في آية الرعد.
وسبب ذلك أن آية الأنعام في الكلام على الذين يخافون أن يحشروا إلى الله ليس لهم من ولي. وهم على كل حال مؤمنون بهذا اليوم ترجى لهم التقوى بخلاف سياق الآيتين الأخريين. فقد ذكر في آية البقرة أن اليهود والنصارى لن ترضى عن الرسول حتى يترك دينه ويتبع ملتهم، وهذا كفر صريح وانسلاخ من الدين، ولذا عقب عليه بقوله: " وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ " أي: إن فعل ذلك ماله من الله من ولي ولا نصير.
فالفرق واضح بين المقامين فاحتاج الكلام في آية البقرة إلى توكيد نفي الولي والنصير دون آية الأنعام.
وكذلك المقام في آية الرعد.
ه- وقد يأتي بألفاظ التوكيد المعروفة في المواطن التي تقتضي ذلك، ويتركها في مواطن أخرى تبدو شبيهة بها. فإذ دققت النظر وجدت أنه استعمل كل لفظة في المكان اللائق بها. فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى : " وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ... " البقرة
وقوله :" وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ.. " الأنفال
فأكد الدين بلفظ (كل) في الأنفال بخلاف البقرة وذلك لأن القتال في البقرة مع أهل مكة فحسب، أما في الأنفال فمع جميع الكفار ولذا عمم(1) .

---

(1) انظر ملاك التأويل 1/117 وما بعدها

قال تعالى في سورة البقرة : " وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (192) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (193) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (194) " البقرة
ألا ترى إلى قوله: " وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ "، والمسجد الحرام في مكة. ولم يذكر القتال عند المسجد الحرام في سورة الأنفال بل جعله عاماً فقال :" قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ

وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (38) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39) " الأنفال فلما كان القتال ههنا عاماً عمم الدين فقال: (كله).
ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة: " وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ " «أي من مكة وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن لم يسلم منهم يوم الفتح»(١). هذا ومن ناحية أخرى حصر القتال في سورة البقرة بصد العدوان فقال : " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190) البقرة
. فلما كان القتال محدوداً باديء ذي بدء لم يأت باللفظة الدالة على العموم بل قال (ويكون الدين لله) بخلاف ما في الأنفال فإنه لم يخصص القتال برد العدوان بل أطلقه فقال: " قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (38) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ... (39) " فلما أطلقه في الأنفال وعممه، جاء باللفظة الدالة على الشمول وهو لفظ (كل) أي: جميعه. فأنت ترى أن لفظة (كل) في آية الأنفال اقتضاها المقام من ناحيتين: الأولى: أن القتال في البقرة كان خاصاً بأهل مكة، وفي الأنفال كان عاماً مع أهل الكفر.

---

(١) الكشاف ١/٢٦٠.

الثانية : أن القتال في البقرة مخصوص بصد العدوان وفي الأنفال عام. فناسب وضع (كل) في الأنفال دون البقرة.
ثم انظر إلى ختام كل من الآيتين فقد قال في ختام آية البقرة: " فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ "وقال في ختام آية الأنفال: " فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ " وذلك أنه لما كان الكلام في البقرة على الاعتداء فقال: " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ " البقرة وقال بعدها: " فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ " البقرة ناسب أن يقول : " فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ".
وأما في آية الأنفال فالمقصود أن تكون السيطرة للإسلام، وليس معناه دخول أهل الأديان كافة في الإسلام بحيث لا يبقى أحد منهم على دينه، بل ربما بقي من أهل الملل الأخرى من بقي على دينه في حكم الإسلام فقال: " فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" أي: إذا كادوا فإن الله بصير بكيدهم .
و- ومن ذلك استعمال ضمير الفصل الذي يفيد التوكيد فتراه يستعمله استعمالاً حسبما يقتضيه السياق والفن.
فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: " وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36) "فصلت
وقوله:

" وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200) " الأعراف
فأكد في سورة (فصلت) بضمير الفصل، وعرف السميع العليم فقال : "إنه هوالسميع العليم»، وترك ذلك في سورة الأعراف. هذا وإن سياق كل من الآيتين يقتضي التعبير بما عبر به فقد قال في سورة فصلت:" وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36) " فصلت
وقال في سورة الأعراف:" خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200) " الأعراف
فأنت ترى أنه طلب في سورة فصلت أن يقابل السيئة بالحسنة، وهذا أمر شاق على النفس، فإن عادة الناس أن يقابلوا السيئة بمثلها، فإذا أرادوا أن يحسنوا عفوا عن المسيء . أما أن يقابلوا السيئة بالحسنة فذلك أمر شاق على الإنسان عسير عليه، فإن الشيطان يحث على الانتصار للنفس والأخذ بالحق ويثبطه عن الإحسان إلى المسيء ولذا قال: " وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35) " .
وأما في سورة الأعراف فقد أمر بالإعراض عن الجاهلين، وهو أيسر من الإحسان إلى من أساء إليك. ولذا أكد وعرف في سورة فصلت فقال: " إنه هوالسميع العليم" وترك ذاك في سورة الأعراف. فوضع كل تعبير في المكان الذي يقتضيه.
جاء في (درة التنزيل) : " لسائل أن يسأل عن التوكيد في سورة حم السجدة في قوله: وإنه هوالسميع العليم " وتعريفه الصفتين بالألف واللام وترك التوكيد بقوله هو وترك التعريف في: سميع عليم من الأعراف.
والجواب أن يقال : إن الذي في سورة السجدة لما كان بعد دعاء إلى ما يشق على الإنسان فعله وهو أن يدفع السيئة بالحسنة ويقابل غلظة عدوه بالملاينة استكفافاً لشره وأذاه، حتى يعود إلى اللطف في المقال والجميل من الفعل فيصير وإن كان عدواً كأنه صديق قريب القربى، ثم قال: " وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35) "

---

(١) في المطبوع (وهو ترك) وما ذكرناه أشبه بالصواب.

فلما كان الأمر الذي بعث الله تعالى أولياءه شاقاً عظيماً حتى قال: " وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ " كانت وسوسة الشيطان في مثله أعظم والمؤمن لها أيقظ. . .
وأما الآية التي في سورة الأعراف فإن قبلها: " خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) " الأعراف ولم تعظم فيها الأفعال التي دعا إليها

كما عَظمتَ في سورة السجدة، بل كان ما هناك بعثاً على أحسن الأخلاق ولم يخص نوعاً من المشاق كما خص في سورة السجدة، فلم تقع المبالغة في اللفظ واقتصر في الخبر على الأصل وهو أنه : سميع عليم»(١).
ونحو ذلك قوله تعالى :" ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62) " الحج
وقوله:" ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30) " لقمان
فأنت تلاحظ تشابه الآيتين إلا في وجود ضمير الفصل في آية الحج (هو الباطل) وخلوها منه في آية لقمان (الباطل) . وسياق كل من الآيتين يوضح ذلك.
فآية الحج واقعة في سياق الصراع مع أهل الباطل ومجاهدتهم أشق أنواع الجهاد. ويبدأ الصراع بعد ذكر الأمم السالفة وتكذيبهم لرسلهم بقوله تعالى :" وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) الحج

---

(١) درة التنزيل ٤١٩-٤٢٠.

وهذا من نتائج الصراع، الهجرة من الديار والأرض والقتل والموت. فهنا أنصار الباطل ساعون لإطفاء نور الله معاجزون معاندون.
ولا تجد مثل هذا في سورة (لقمان) وإنما هو عرض لأصحاب الباطل من وجه آخر ليس فيه هذا الصراع قال تعالى : " وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (21) " لقمان
" وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (23) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (24) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (25) " لقمان
" أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30) " لقمان
فأنت ترى أن السياق مع أهل الباطل هنا يختلف. فهم في الصورة الأولى ساعون معاجزون معاندون مصارعون متمكنون في الأرض نتيجته هجرة المؤمنين أو قتلهم أو موتهم، فاحتاج الأمر إلى زيادة تثبيت المؤمنين وعدم افتتانهم بسلطة أصحاب الباطل وتمكنهم من رقاب الناس فإن للسلطان فتنة ورهبة. فاقتضى السياق توكيد أن ما هم عليه هو الباطل.

وأما الآية الثانية ففي سياق الجدل العقلي والمحاجة بين الفريقين، وليس فيها ذكر لصولة الباطل وبطشه.
فلم يقتض السياق ما افتضاه في الآية الأولى من التوكيد. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أنه لما تقدم في سورة الحج ذكر ما يدعون من دون الله من المعبودات الباطلة فقال: " يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (12) يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (13) " الحج
ولم يتقدم مثل ذلك في (لقمان) أكد ذلك في الحج. جاء في (ملاك التأويل): « أن سورة الحج ورد فيها ما يستدعي هذا التأكيد بالضمير المنفصل، ويناسبه وهو تكرر الإشارة إلى آلهتهم والإفصاح بذكرها تعريفاً بوهن مرتكبهم وشنيع حالهم. وأوضح هذا التكرر وأشده ملاءمة الإتيان بهذا الضمير المعتد فصلاً أو مبتدأ قوله تعالى: " وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (31) ت" الحج وقوله في آخر السورة " إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ... (73)" الحج هذه الآية والتي ذكرنا قبلها أنسب شيء لقوله " ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ .. (30) " لقمان(١) .
فانظر رعاك الله سمو هذا التعبير ورفعته .
ومن ذلك قوله تعالى :" وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100) "التوبة.
وقوله:
وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72) التوبة
فقد جاء في الآية الثانية بضمير الفصل: " ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ " دون الآية الأولى وذلك لجملة أسباب منها:
١- أنه ذكر في الآية الثانية زيادة على الجنات ما هو أكبر منها، ألا وهو رضوان الله تعالى قال: " وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ " أي: أكبر من الجنات وملذاتها ونعيمها.فلما زاد ذلك زاد في توكيد الفوز.
ثم انظر كيف عدل عن قوله: " رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ " إلى قوله: " وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ " فجاء بالجملة الإسمية الدالة على الثبوت

---

(١) ملاك التأويل ٧٢٤/٢.

والتي هي أقوى من الفعلية وآكد، فناسب كل ذلك توكيد الفوز وعظمه .
٢- هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه زاد على الجنات ذكر المساكن الطيبة في جنات عدن فقال: " وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ " فقد ذكر الجنة وذكر علاوة على ذلك المساكن الطيبة، فناسب ذلك أن يزيد في توكيد الفوز.
٣- ومن ناحية أخرى أنه ذكر (من) في الآية الثانية دون الأولى فقد قال: " جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ " وقال في الآية الأولى: " جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ " . ومعنى (من) هنا الابتداء أي: أن الأنهار تتفجر من تحتها وهذه الحالة أكمل من الحالة الأولى فإنه قال فيها: وتجرى تحتها آلأنهر فإنه ذكر أن الأنهار تجري تحتها، وليس بدء الجريان منها، فناسب كل ذلك زيادة ضمير الفصل لتوكيد الفوز وعظمته. فسبحان الله العظيم ، ما أجل هذا الكلام وما أعظمه وما أفخمه!
ثم انظر إلى دقيقة أخرى في هذا التعبير، وهو أنه حيث ذكر الجنات في القرآن قال: " جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ " يذكر (من) إلا في هذا الموطن فقال: "تجرى تحتها الأنهر" قيل: وسبب ذلك أنه حيث ورد ذكر الجنات ووردت (من) معها كان الكلام عاماً لعموم المؤمنين الذين فيهم الأنبياء والرسل وغيرهم ففيهم من هو أعلى منزلة من المذكورين في آية (السابقين) . أما آية (السابقين) فهي مخصوصة بهم، فناسب ذلك أن يزيد (من) لأن فيهم من هو أعلى منهم.
جاء في (درة التنزيل) : أن « الذي أخبر عنهم بأن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار الأنبياء وغيرهم صلوات الله عليهم. و (من) لإبتداء الغاية، والأنهار أشرف مباديها، والجنات التي مباديها الأنهار من تحت أشجارها أشرف من غيرها. فكل موضع ذكر فيه (من تحتها) إنما هو لقوم عام فيهم الأنبياء.
والموضع الذي لم يذكر فيه (من) إنما هو لقوم مخصوصين ليس فيهم الأنبياء. ألا ترى إلى قوله في سورة التوبة " وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ... (100)".
إذ لا موضع في القرآن ذكرت فيه الجنات وجري الأنهار تحتها إلا وقد دخلتها (من) سوى الموضع الذي لم ينطق ذكر الموعودين فيها على الأنبياء عليهم السلام. فهذا الكلام في (من تحتها) . اعتبروا بما ذكرت في جميع القرآن» (1) .
ومن ذلك قوله تعالى :
" إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ " آل عمران
وقوله: " وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36) " مريم
وقوله: " إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (64) الزخرف
فزاد ضمير الفصل في آية الزخرف دون الآيتين الأخريين، وذلك أن آية الزخرف قيلت في سياق عبادة عيسى وإتخاذه إلهاً بخلاف غيرها، فناسب ذلك تأكيد ربوبية الله له. جاء في (ملاك التأويل) : ِ« وأما زيادة الضمير الفصلي في

سورة الزخرف فيحرز مفهومه معنى ضرورياً دعا إليه ما تقدم في الآية قبله. وذلك ما أشار إليه قوله تعالى : " وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) " الزخرف إلى ما يتلو هذه. ففي التفسير أنه لما نزل قوله تعالى: "وإنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون " الأنبياء . تعلق بها الكفار وقالوا: قد عبدت الملائكة وعبد المسيح وأنت يا محمد تزعم أن عيسى نبي مقرب وأن الملائكة عباد مقربون، فإذا كان هؤلاء مع آلهتنا في النار فقد رضينا. وجادلوا بهذا فأنزل الله تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) " الأنبياء. . فلما كان تقدم في سورة الزخرف ذكر آلهتهم وقولهم: (أآلهتنا خير أم هو) يعنون المسيح ناسبه ما أعقب به من قوله حاكياً عن المسيح عليه السلام :

---

(١) درة التنزيل ١٠٢-١٠٣.

" إن الله هو ربي وربكم " .فأحرز هذا المعنى. ولم يرد في آية آل عمران وآية مريم من ذكر آلهتهم ماورد هنا، فلم يحتج إلى الضمير المحرز كما ذكرنا»(1).
٢- وقد يستعمل طريقة أخرى للدلالة على التوكيد وهي أن يختص حرفاً بالدلالة على التوكيد دون نظيره، وذلك كاستعمال الهمزة وهل واستعمال حروف النفي فهو يستعمل (هل) للتوكيد دون الهمزة، ويستعمل (ما) للتوكيد دون (ليس)، ويستعمل (إن) آكد من (ما) بطريقة فنية عجيبة.
فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى : " أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (72) " الحج
وقوله :" قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ... (60) " المائدة
وقوله :" هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) " المائدة
وقوله :" قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) " الكهف
فاستعمل الهمزة و (هل) مع الفعل (نبأ)، وعند النظر في الاستعمالين نرى أنه استعمل (هل) لما هو أقوى وآكد في الاستفهام، ويبين ذلك السياق.
قال تعالى : " وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (72) " الحج
فاستعمل الهمزة.
وقال : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (57) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (58) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (59) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ

وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (60) المائدة

---

(١) ملاك التأويل ١/١٦٣-١٤.

فاستعمل (هل) .
والفرق واضح بين السياقين، فأنت ترى أن في السياق الثاني قوة وتبكيتاً لا تجده فيما قبله. فذكر أن الكفار اتخذوا الدين والنداء والصلاة هزواً ولعباً. وقد وصفهم بالفسق وعدم العقل، وأنهم لعنهم الله وغضب عليهم ومسخ منهم قردة وخنازير وأنهم عبدوا الطواغيت. ثم قال (أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل). ويمضي في تبكيتهم ووصفهم بأقبح الوصف.
وليس الأمر كذلك في الآية التى قبلها، ولذا جاء فى الأولى بالهمزة: " قل أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ " وفي الثانية بهل: " قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ "
ونحوه ما جاء في آية الشعراء " وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (212) " الشعراء
إلى أن يقول: " هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (223)" الشعراء
فأنت ترى في السياق قوة وشدة بالغة في الرد على الكفرة المفترين فاستعمل لذلك (هل).
ونحوه ما جاء في سورة (الكهف) فقد قال:" وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (100) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (101) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (102) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (106) " الكهف
فإن قوة التبكيت وشدة التقريع واضحة في السياق، فاستعمل لذلك (هل) ولم يستعمل الهمزة.
وكذلك استعمال (إن) و (ما) النافيتين فيستعمل (إن) لما هو آكد، فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى :" وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25) " الأنعام
وقوله :" وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ

الْأَوَّلِينَ (17) " الأحقاف
فقال في الآية الأولى: " إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ " وقال في الثانية: " مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ" والأولى آكد يدل على ذلك السياق فقد قال فيها:
١- وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه.
٢- وفي آذانهم وقراً.
٣- وذكر أنهم إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها.
فأنت ترى أن درجة التكذيب أشد مما في الآية الأخرى، لأن الصفات التي تستدعي قوة التكذيب والإنكار كانت في المكذبين الأولين أشد وأكثر، ولذلك أكد النفي فيها ب (إن) بخلاف الثانية.
وقال تعالى:" وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24)" الجاثية
وقال:" وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (34) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (35) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (36) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (38) " المؤمنون.
فقال في الآية الأولى: " مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا "
وقال في الثانية: " إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا "
وواضح أن التكذيب في الآية الثانية أشد وأقوى من وجوه:
١- فقد أسند التكذيب والإنكار في الآية الأولى إلى ضمير الكفرة: (وقالوا).
وأما في الثانية فقد أسنده إلى الكفرة صراحة مضيفاً عليهم صفات تزيد في تكذيبهم وإنكارهم: " الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا " فهذه صفات تزيد في قوة التكذيب بخلاف الآية الأولى التي قال فيها: (وقالوا).
٢- المجادلة في صدق الرسل: فقد ذكر هؤلاء الكفرة أن الرسل إنما هم بشر مثلهم يأكلون كما يأكل الناس ويشربون كما يشربون فلا ينبغي أن يطاعوا البتة.
٣- السخرية من الوعد بالحياة الأخرى: " أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ "
٤- الاستبعاد المؤكد في قولهم: " هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ "
٥- ثم ختموا تكذيبهم وإنكارهم بقولهم: " إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ "
فكان طبيعياً أن يكون إنكارهم أشد وآكد مما في الآية الأولى، ولذا جاء بإن وإلا وهو المناسب للسياق بخلاف الآية الأخرى، فإنه جاء بما وإلا لأنه أقل توكيداً

وقال تعالى:" قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (9) " الأحقاف
وقال :" قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (115) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (119) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (120) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (121) الشعراء
فقال في الآية الأولى: " وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ "
وقال في لثانية: " إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ"
ومن الواضح أن الآية الثانية في مقام المحاربة والمجادلة والجهاد في القول والتنقيص من المؤمنين، بخلاف الآية الأولى فإنها في مقام الدعوة الهادئة المبينة بالحجة. يدل على ذلك في الآية الثانية:
١- وصفهم المؤمنين بالأرذلين.
٢- طلبوا طردهم فرد عليهم بقوله: " وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ "
٣- تحذيرهم نوحاً والطلب إليه الكف عن الدعوة وإلآ رجموه (لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين).
وأنت ترى أن المقام في الآية الأولى يختلف عنه في الثانية فجاء في الثانية بإن وإلا وجاء في الأولى بما وإلا(١) .
٣- وقد يستعمل طريقة أخرى للتوكيد وهي تكرار اللفظ الذي يريد توكيده، وذلك حسبما يقتضيه موطن الكلام وذلك نحو قوله تعالى :" قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (32) آل عمران

---

(١) انظر معاني النحو - باب الاستفهام وباب النفي.

وقوله : وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (132) آل عمران
فلم يكرر لفظ الطاعة. في حين قال :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ... (59) " النساء
وقال: " وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (92) " المائدة
وقال:" قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (54) " النور
وقال: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33) " محمد

وقال: " وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (12) " التغابن
فكرر لفظ الطاعة فقال: " أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ "
والملاحظ أن ما لم يتكرر فيه لفظ الطاعة مع الرسول فالسياق فيه لله وحده، ولم يذكر فيه لفظ الرسول ولا أية إشارة إليه، فمن ذلك ما جاء في (آل عمران -٣٢) فقد ذكر أن الأمر كله لله وبيده قال تعالى:" قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (27) " آل عمران
وقال: " وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (28) " آل عمران
وكرر هذا المعنى فقال :" وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (30) "
إلى أن ذكر الآية الكريمة. فأنت ترى أن المقام مختص بالله وحده فذكر طاعة الله وجعل طاعة الرسول تبعاً لها.
وكذلك آية آل عمران ١٣٢ فلم يكرر فيها لفظ الطاعة فقد قال قبلها:" لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (128) " آل عمران
في حين كرر لفظ الطاعة في الآيات الأخرى لأن السياق يقتضيها - ففي آية النساء ٥٩ . جعل طاعة الله وطاعة الرسول أصلية ليفصل بين طاعة الرسول وطاعة أولي الأمر، فهما ليستا بنفس المنزلة ثم قال: (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله وإلى الرسول) فالرسول مرجع للفصل بخلاف أولي الأمر. ثم قال بعدها : " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (61) " النساء
فقد جعل الرسول مرجعاً كالقرآن، ثم قرر حكماً ثابتاً فيما بعد " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ... (64) النساء
فأنت ترى أن المقام ههنا مقام تبيان طاعة الرسول فكررها لما كان السياق يقتضيها. وكذلك ما جاء في سورة النور الآية ٥٤، فقد تكرر ذكر الرسول وذلك قوله:" أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (52) " النور
ثم انظر كيف قال فيما بعد " وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56) " النور
فجعل طاعة الرسول مقترنة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. فأنت ترى أن السياق يؤكد لفظ طاعة الرسول.
وكذلك ما جاء في سورة محمد - الآية ٣٣ فقد ورد لفظ الرسول وطاعته وعدم مشاقته فقد قال: " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ

مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32) " محمد
وكذلك ما جاء في التغابن فقد ختمها بقوله: " ... فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (12) " التغابن . هذا وإن كل آية ختمت بمثل هذا التعقيب كرر فيه لفظ الطاعة للرسول.
فانظر دقة هذا التعبير وسموه.
ونحوه قوله تعالى :" الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (45) الأعراف
وقوله:" الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (19) " هود
فقد قال في آية الأعراف: " وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ " وقال في هود: " وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ " فزاد: (هم) للتوكيد، وذلك لما زاد على الأولين افتراء الكذب على الله. فقد قال في الأعراف:" وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (45) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ .... " [الأعراف ٤٤ومابعدها].
وقال في هود: " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (19) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (20) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (21) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (22)" هود
فقد ذكر في الأعراف من صفات الظالمين أنهم يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً. وذكرها في هود وزاد عليها افتراء الكذب على الله فقال : " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا " ثم ذكر أن الأشهاد يقولون أمام الخلق: " هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ " فلما زاد في صفات الضلال أكد فيهم صفة الكفر بزيادة (هم)، وزاد لهم في العذاب فقال (يضاعف لهم العذاب)، وزاد في صفة الخسران فقال (هم الأخسرون).
فانظر إلى جلال هذا التعبير وسموه.
ونحو هذا قوله تعالى :" فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (184) " آل عمران
وقوله : " وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (25) " فاطر
فذكر الباء مع الزبر والكتاب المنير في آية فاطر،ولم يذكرها في آية آل عمران، ذلك أن هذا التكرار يفيد التوكيد، والمقام في (فاطر) يقتضي هذا

التأكيد إذ هو في مقام الإنذار والدعوة والتبليغ قال تعالى: " إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (18) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (19) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (20) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (21) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (22) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (23) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (24) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (25)فاطر

فلما كان المقام مقام إنذار وتبليغ كرر الباء فقال : " بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ " لأن هذه هي كتب الإنذار والدعوة و التبليغ.

وليس المقام في آل عمران مقام تبليغ وإنذار بل هو كلام عام وذكر حوادث تاريخية معينة. قال تعالى: " الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (183) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (184) " آل عمران

فلما لم يكن المقام كذلك لم يكرر الباء في وسائل الدعوة وكتبها إذ ليس المقام يقتضي ذلك.

ومما يقتضي التوكيد أيضاً في (فاطر) قوله تعالى : (وإن يكذبوك) بصيغة المضارع فإن هذا مما يفيد استمرار التكذيب بخلاف ما في آل عمران، فقد قال: (وإن كذبوك). فإن في آية فاطر من الاستمرار على التكذيب ماليس في آية آل عمران، فاقتضى التوكيد، ولذا عقب بعد ذلك بقوله: " ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (26) "

وقد تقول : ولم ورد الفعل بصيغة المضارع في (فاطر) وبصيغة الماضي في آل عمران؟

والجواب : أن التكذيب في سورة آل عمران منصب على ذكر حادثة تاريخية معينة، هي الآية التي ذكرناها أعني قوله تعالى: " الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا "

وأما في (فاطر) فالكلام في سياق الهداية والاستجابة فالمقام مقام تبليغ الرسالة ومقام الدعوة. فلما كان المقام في آل عمران تعقيباً على أمر تاريخي انقضى وحادثة معينة ذهبت، جاء بالفعل على صيغة الماضي فقال : (وإن كذبوك) .

ولما كان المقام في الثانية مقام إنذار وتبليغ ودعوة قال : (وإن يكذبوك) بصيغة الفعل المضارع الدال على التكرار والاستمرار لأن الدعوة مستمرة والتبليغ والإنذار مستمران متكرران. فجاء لكل مقام بما يناسبه.

ومما يقتضي التأكيد في (فاطر) أيضاً ذكر تاء التأنيث دون آية (آل عمران) فقد قال في (فاطر): (جاءتهم رسلهم) بذكر التاء مع الفعل (جاءتهم) وقال في آل عمران : (فقد كذب رسل من قبلك) بدون تاء فلم يقل : (فقد كذبت) . وذكر

التاء في مثل هذا الموطن كما هو معلوم يفيد الكثرة، فاقتضى ذلك التوكيد في فاطر لكثرة المكذبين دون آل عمران.
وقد جاء في (البرهان) للكرماني وغيره أن سبب الاكتفاء بباء واحدة في آل عمران وذكر ثلاث باءات في فاطر أن الكلام في آل عمران وقع في كلام مبني على الاختصار والاكتفاء فيه بالقليل عن الكثير، ومن ذلك أن الفعل الذي جاء في جواب الشرط مبني للمجهول ولم يسم فاعله(1) .
وهذا سبب آخر يضاف إلى الأسباب التي ذكرناها، فإن التفصيل واضح في آية فاطر بخلاف آية آل عمران. ومما يدل على ذلك :
١- بناء الفعل للمجهول في آية آل عمران (كذب) في حين ذكر الفاعل في آية فاطر فقال : (فقد كذب الذين من قبلهم) .
٢- قوله في فاطر: (جاءتهم رسلهم) بذكر الفاعل ظاهراً في حين قال في آل عمران: (جاؤوا) بالضمير، فالتفصيل في فاطر أكثر وأوضح.
٣- ذكر الباء مع كل معطوف في (فاطر) (بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) وحذفها في آل عمران، مما يدل على مقام التفصيل في (فاطر) ومقام الاختصار في آل عمران.
٤- صيغة الفعل في (فاطر) أطول مما هي في آل عمران فقد قال في (فاطر) : (وإن يكذبوك) وقال في آل عمران : (وإن كذبوك) .
كل ذلك مما يدل على مقام الإطالة والتفصيل في فاطر دون آل عمران، فدل على أن تكرار الباء في (فاطر) أليق.
تت

(١) انظر البرهان ١٢٤- ١٢٥، درة التنزيل ٧٥.

فانظر إلى جمال هذا التعبير ودقته، فإن كلا من مقامي التفصيل والتوكيد يقتضي تكرر الباء، فكيف بهما إذا اجتمعا فانظر أي كلام هذا؟
ومن ذلك قوله تعالى :" خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ... " البقرة فكرر (على) مع السمع. جاء في (الكشاف) : « فإن قلت: أي فائدة في تكرير الجار في (وعلى سمعهم)؟
قلت: لو لم يكرر لكان انتظاماً للقلوب والأسماع في تعدية واحدة. وحين استجد للأسماع تعدية على حدة كان أدل على شدة الختم في الموضعين » .
٤- وكما يؤكد القرآن التعبير قد يخففه إذا اقتضى المقام ذلك، وذلك كأن يأتي ب (إن) المخففة ونون التوكيد الخفيفة للدلالة على تخفيف التوكيد حسبما يقتضيه السياق ومقتضى الحال فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى :" قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92) " يوسف
" قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98) يوسف

وهذا الكلام قاله أخوة يوسف والكلام موجه في الآية الأولى إلى أخيهم يوسف وفي الثانية إلى أبيهم.
وأنت ترى أن إخوة يوسف قالوا لأخيهم: (وإن كنا لخاطئين) ب (إن) المخففة، وقالوا لأبيهم: " إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ " بالمشددة. وقد يتبادر إلى الذهن أنه كان ينبغي أن يكون التعبير بالعكس، فإنهم مع من أساؤا إليه إساءة مباشرة - أعني يوسف - كان عليهم أن يأتوا بإن المشددة للدلالة على زيادة التوكيد بخلاف التعبير مع أبيهم. غير أنك إذا أنعمت النظر وجدت الطريقة

---

(١) الكشاف ١/١٢٥.

التي استعملها القرآن هي المثلى. فإن إخوة يوسف لما رأوا أباهم وما حل به من جراء فعلتهم من الوهن واللوعة وحرقة الفؤاد وذهاب عينيه من الحزن، دعاهم ذلك إلى توكيد الاعتذار والاعتراف بالخطيئة، بخلاف حالة أخيهم فإن الله أكرمه بعدهم وبوأه مكانة عالية ومكن له في الأرض، وكأن فعلتهم تلك عادت عليه بالخير والرفعة، بعكس ما جرت على أبيهم، فهنالك فرق بين الحالتين، فكان الشعور بالخطيئة مع والدهم أكبر وأعظم فقالوا ما قالوا.
والذي يدل على ذلك السياق القرآني، فإن يوسف دعا لهم بالمغفرة من دون أن يسألوها منه " قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ "وأما أبوهم فلم يستغفر لهم مع طلبهم الاستغفار منه، وإنما وعدهم بالاستغفار: " قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98) " يوسف. فوعدهم بالاستغفار في المستقبل. ثم انظر كيف جاء ب (سوف) لا بالسين، و(سوف) أبعد في الاستقبال من السين مما يدل على عمق الأثر في نفسه.
ونحو ذلك قوله تعالى :" وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (65) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (66) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68) " الأعراف
وقوله :" قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (186) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (188) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189) الشعراء
فأنت ترى أنه قال في سياق آيات الأعراف: (وإنا لنظنك من الكاذبين) وفي سياق آيات الشعراء: (وإن نظنك لمن الكاذبين). ويظهر سياق الآيات أن التكذيب في آيات الأعراف أشد منه في آيات الشعراء، والذي يوضح ذلك أنه في آيات الأعراف قال: " قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ " بخلاف آيات

الشعراء فإنه قال : " قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ "
وأنت ترى الفرق بين القائلين ففي الآيات الاولى قول الملأ الذين كفروا.
والقائلون في الآيات الثانية مختلطون، فإن فيهم الشديد التكذيب والقليل والإمعة والخائف، فهو تكذيب مختلط لا يصل إلى تكذيب الذين كفروا خصوصاً . والذي يدل على ذلك قوله تعالى بعد آيات الشعراء: " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ " أي: إن فيهم قلة مؤمنة، فهو نسب الكلام في آيات الشعراء إلى أصحاب الأيكة عموماً ، بخلاف آيات الأعراف فإنه نسب الكلام إلى الذين كفروا خاصة.
ثم انظر إلى السياق مرة أخرى وكيف تعقب الرسول كلام قومه بعد كل من الآيتين يتبين لك ما ذكرته واضحاً، فإن هوداً عليه السلام ردعلى قومه بآيات عدة: " قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (67) الأعراف . بخلاف آية الشعراء فإنه لم يزد على قوله: " قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (188) " ومن هنا يتبين الفرق واضحاً بين التعبيرين (1)
ومن ذلك قوله تعالى على لسان امرأة عزيز مصر في يوسف :" وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَاً مِّن الصَّاغِرِينَ (32) " يوسف فقال : (ليسجنن) بنون التوكيد الثقيلة ثم قال : " وَلَيَكُونَاً مِّن الصَّاغِرِينَ" بتخفيف النون : قالوا وذلك « أن إمرأة العزيز كانت أشد حرصاً على سجنه من أن يكون صاغراً "(٢)
فزاد نوناً حيث اقتضى المقام زيادة التوكيد، وخفف حيث اقتضى تخفيفه.
٥- وكما يخفف التوكيد قد يزيد فيه إذا اقتضى الكلام ذاك. جاء في (الإتقان):
«ويتفاوت التأكيد بحسب قوة الإنكار وضعفه كقوله تعالى حكاية عن رسل

---

(١) انظرمعاني النحو ٣٧٥/١وما بعدها.
(٢) حاشية الصبان ٢١٢/٣ وانظر التصريح ٣٠٢/٢.

عيسى إذ كذبوا في المرة الأولى: : " إنا إليكم مرسلون " فأكدوا بإن وإسمية الجملة. وفي المرة الثانية: " ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون " فأكد بالقسم وإن واللام واسمية الجملة لمبالغة المخاطبين في الإنكار حيث قالوا: " قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15) "(١).

يشير بذلك إلى قوله تعالى: " وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (17) " يس
فأنت ترى أن التكذيب والإنكار في المرة الثانية كان أشد من المرة الأولى إذ قالوا: " مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15) " وهددوهم بالرجم إن لم ينتهوا عن دعوتهم : ولذا كان الرد في المرة الثانية أقوى، ففي المرة الأولى قالوا: " إنا إليكم مرسلون " وفي المرة الثانية قالوا: " رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ " فأكد بالقسم وإن واللام.
ومن ذلك قوله تعالى:
" وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) "هود بدون توكيد .
وقوله:" وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) "" الأعراف بتوكيد الجواب.
وقوله:" قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (149) بتوكيد الجواب وباللام الموطئة قبل الشرط .
فالثالثة آكد من الثانية، والثانية، آكد من الأولى وذلك حسبما يقتضيه السياق.

---

(١) الإتقان ٢/٦٤-٦٥ وانظر الإيضاح ١/١٨ .

قال تعالى في سياق الآية الثالثة: " وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (149) الأعراف
وهذا في بني إسرائيل بعدما عبدوا عجل الذهب واتخذوه إلهاً لهم، وهو كفر صريح وضلال مبين، ولذلك عند توبتهم أكدوا قولهم باللام الموطئة زيادة على توكيد الجواب: " قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ "
وأما الآية الثانية التي هي: " وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ "الأعراف . فهي على لسان آدم وزوجه بعدما أكلا من الشجرة التي نهاهما ربهما عنها.
وهذه المعصية أقل من معصية بني إسرائيل، فإن معصية قوم موسى كفر لأنه عبادة لغير الله، ولم يفعل ذلك آدم بل هو مقر بربوبية الله ومقر بعبوديته لربه، وإنما هي لحظة ضعف أدركته كما تدرك الكثير من الناس من غير أن تخرجهم عن دينهم ثم يتوبون عنها. ألم تر كيف وصف بني إسرائيل بالضلال فقال: ووراوا أنهم قد ضلوا» ولم يصف آدم بذلك. فلما كات المعصية أقل حذف اللام الموطئة التي تفيد التوكيد .
فالأول آكد لأن المعصية أكبر. فالتوبة وطلب المغفرة يكونان على قدر المعصية .

وأما الآية الثالثة وهي قوله تعالى: " وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) "هودا. فهي على لسان نوح عليه السلام، وذلك أنه سأل ربه أن ينجي ابنه من الغرق، لأن الله وعده أن ينجي معه أهله فقال:" .. فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ... "[هود] فقال الله له: " إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) "هود.
فطلب نوح من ربه المغفرة والعفو لسؤاله هذا فقال: " قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) " هود فهذا ليس بمعصية كمعصية آدم، وإنما فهم نوح أن ابنه يدخل مع أهله الناجين، فبين الله أنه ليس من أهله لأنه كافر، فطلب من ربه المغفرة لما سأل، ولذلك لم يأت الكلام مؤكداً. فأنت ترى أن التوكيد يتناسب وقدر المعصية. فلما لم يكن سؤال نوح معصية لم يؤكد كلامه. ولما كان فعل آدم معصية لربه أكده بالنون. ولما كان فعل بني إسرائيل كفراً وضلالاً أكده بالنون وباللام الموطئة، فالخسران إنما يكون على قدر المعصية ولا شك.
ثم ألا ترى كيف قدم الرحمة على المغفرة مع بني إسرائيل: " لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا " بخلاف الآيتين الأخريين، فإنه قدم المغفرة على الرحمة، وذلك لأن الرحمة أعم وأوسع من المغفرة فإن الرحمة لعموم الخلق حتى البهائم. ويدخل في رحمة الله المؤمن والكافر فكلهم يعيشون في رحمة الله. فالبهائم تعيش برحمة الله، والبهائم تتراحم فيما بينها، ولا يصح وصفها بالمغفرة فإذا طرد أحد من رحمة الله فلا مطمع له في شيء بعد. فالمغفرة تأتي بعد الرحمة وهي رحمة خاصة بالمؤمن فالرحمة تأتي أولاً ثم المغفرة، فمن لم يرحمه ربه لا يغفر له. ومن غفر له كان مرحوماً ، وليس كل مرحوم مغفوراً له، فالخلق كلهم في رحمته. ولذا قدم هؤلاء الذين كفروا وضلوا الرحمة على المغفرة، فهم كانوا أحقاء بأن يطردوا من رحمة الله إذا ما بقوا على ذلك، ولذا طلب هؤلاء الرحمة أولاً ليكونوا كعموم الخلق الداخلين في رحمته ثم المغفرة فيما بعد. وهذا يتناسب مع كبر معصيتهم، فإنهم حذروا أن يؤيسهم ربهم من رحمته، فأرادوا أن يشملهم ربهم برحمته ليكون ذلك مرقاة إلى المغفرة، بخلاف الآيتين السابقتين فليس الأمر فيهما كذلك(1) .
فانظر إلى فخامة هذا الكلام وعظمته.
ومن ذلك قوله تعالى:" أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (64) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (65) الحج

---

(١) انظر (معاني النحو) ٥٦٠/٤ وما بعدها.

وقوله:" لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (26) " لقمان
وقوله:" وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (6) " العنكبوت
فقد قال في آية الحج: " وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ " الحج وقال في لقمان: " وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ " لقمان فأكد الغنى في الحج أكثر مما في لقمان، إذ زاد اللام فيها فأدخلها على (هو). وذلك أنه ذكر في سورة الحج من نعمه على خلقه وألطافه بهم ما لم يذكره في لقمان، وفصل في الغنى في سورة الحج ما لم يفصله في لقمان فقد قال : " لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ..." بتكرار الاسم الموصول، وأجمل ذلك في لقمان فقال: " لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " لقمان . فلم يكرر (ما). فلما فصل في الحج وزاد على ما ذكره في لقمان، زاد اللام في الحج فقال: " لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ " الحج .
وأما السياق في العنكبوت فيختلف عما في الحج ولقمان وذلك أنها في سياق الفتن والابتلاء قال تعالى: " الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3)" العنكبوت ثم قال: " وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (6) " العنكبوت . فاختلف التوكيد والخاتمة، فقد جاء بضمير الفصل وتعريف الغني وزيادة اللام في الحج. وجاء بضمير الفصل وتعريف الغني من دون اللام في لقمان.
ولم يأت بضمير الفصل ولم يعرف الغني في العنكبوت.
وذلك أنه في الحج ولقمان ذكر لملكه وسعته وقدرته ونعمته على الخلق. وأما في العنكبوت فذكر غناه عن خلقه. وثمة فرق بين الغنيين فالأول: غنى ملك وإفاضة رحمة ونعمة، والثاني استغناء عن الآخرين. وأنت ترى فرقاً بين أن تقول: إن فلاناً يملك كذا وكذا ويعطي وينفق ويتفضل، وقولك: هو مستغن عن الناس: فإن معنى القول الثاني أنه مكتف وإن لم يكن غنياً، ألا ترى إلى قول الخليل :
أبلغ سليمان أني عنه في سعة   وفي غنى غير أني لست ذا مال
فهناك فرق بين المستغني عن الناس والغني المالك المتفضل. فلما فرق بين الحالين فرق بين التعبيرين.
ثم أنظر إلى خاتمة الآي في كل منها فإنه لما كانت سورة الحج في تعداد نعمه وألطافه على خلقه قال: (الغني الحميد) أي : الذي يحمد على نعمه، وكذلك السياق في لقمان. وأما في العنكبوت فلما كان السياق في ذكر الفتن التي نسأل الله العافية منها لم يقل : (الغني الحميد) بل قال : (غني عن العالمين) أي: غني عن جهادهم. فسبحان الله رب العالمين.
ومن ذلك قوله تعالى:" إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (165) " الأنعام
وقوله :" إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (167) " الأعراف

فأكد سرعة العقاب بـ (إن) واللام في الأعراف فقال: (لسريع العقاب)، أما في الأنعام فأكده ب (إن) فقط، وذلك أن الآية في سورة الأعراف ذكرت في سياق العقوبات العاجلة في الدنيا، وأن الأية في الأنعام ذكرت في سياق العقوبات الآجلة في الآخرة. فقد قال تعالى في (الأعراف): " فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (166) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (167) " الأعراف

وقال في سورة الأنعام: " وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (164) " الأنعام

فلما عجل لهم العقوبة في الدنيا في سورة الأعراف أكد سرعة العقاب بإن واللام، ولما أمهلهم إلى يوم القيامة في سورة الأنعام قلل توكيد سرعة العقاب لأنه لم يسرع في عقوبتهم بل أمهلهم. جاء في (البرهان) في هاتين الآيتين أن «الفرق بين هذه الآية وآية الأنعام حيث أتى هنا باللام فقال: (لسريع العقاب) دون هناك، أن اللام تفيد التوكيد فأفادت هنا توكيد سرعة العقاب لأن العقاب المذكور هنا عقاب عاجل وهو عقاب بني إسرائيل بالذل والنقمة وأداء الجزية بعد المسخ في سياق قوله: " وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ.." الأعراف. فتأكيد السرعة أفاد بيان التعجيل وهو مناسب، بخلاف العقاب المذكور في سورة الأنعام فإنه آجل بدليل قوله " ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (164) الأنعام . فاكتفى فيه بتأكيد (إن).

ولما اختصت آية الأعراف بزيادة العذاب عاجلاً اختصت بزيادة التأكيد لفظاً بإن واللام))(1).

ومن ذلك قوله تعالى :" إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (59) " غافر

وقوله: " إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) " طه

فأكد إتيان الساعة بإن واللام في غافر وبإن وحدها في سورة طه وذلك لأسباب عدة منها :

إن الكلام في سورة غافر على الكفار الذين ينكرون الساعة فقد قال : " إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (56)غافر

---

(١) البرهان ٦٥/٤-٦٦ وانظر ملاك التأويل ٣٦٠/١-٣٦١.

ثم قال: " إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (59) غافر أي : لا يؤمنون بالساعة.

أما في سورة طه فالخطاب لموسى عليه السلام وموسى غير منكر لها . ولذا أكدها مع الكافرين الذين ينكرونها أكثر مما أكدها مع موسى عليه السلام.
ثم انظر إلى السياق مرة أخرى فقد قال تعقيباً على إتيان الساعة في سورة غافر: " وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ " فحسن أن يؤكد إتيانها إذا كان أكثر الناس لا يؤمنون بها، بخلاف سورة طه فقد قال: " إِنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى " طه
فسياق كل من الآيتين يقتضي أن يضع ما وضع وأن يحذف ما حذف.
ومن ناحية أخرى إن الكلام في سورة غافر على الساعة والقيامة بل إن جو السورة هو في الكلام على الساعة. قال تعالى :" وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (47) " غافر
وانظر الآيات من ٧٠-٧٦ فاقتضى المقام زيادة التوكيد في هذه السورة.
جاء في (درة التنزيل) في هاتين الآيتين: «إن العرب تحرص على التوكيد في موضعه وتركه في غير موضعه. . . والخطاب لقوم كفار ينكرونها. والتي في سورة طه خطاب لموسى عليه السلام وهي ضمن كلام الله تعالى " إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ .. " طه
وقال: " ... وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ..(15) طه ولم يكن موسى عليه السلام ممن ينكر ذلك فيؤكد الكلام عليه توكيده على منكريه والجاحدين له. على أنه تحميل له ليعلم قومه وهو: " فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16) " طه فإذا كان الأمر على ما بينا وضح الفرق بين الموضعين بالذي ذكرناه»(١).

---

(١) درة التنزيل ٤١٢,٤١١، وانظر ملاك التأويل ٦٧٥/٢ وما بعدها.

ومن ذلك قوله تعالى: " وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43) الشورى
وقوله: " إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) " لقمان
فأكد ما في الشورى ب (إن) واللام وأكد ما في لقمان ب (إن) فقط.
والسياق يوضح سبب ذاك.
قال تعالى في الشورى: " وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43) الشورى
وقال في لقمان : " يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) " لقمان
فقد أوصانا ربنا في الشورى بشيئين : الصبر والمغفرة لمن أساء إلينا فقال : " ولمن صبر وغفر " وأوصى لقمان ابنه بالصبر فقال: "واصبرعلى ماأصابك"

والأول أشق على النفس من مجرد الصبر، فاحتاج إلى زيادة التوكيد فقال: " إن ذلك لمن عزم الأمور"
جاء في (البرهان) للكرماني: إن سبب ذلك «لأن الصبر على وجهين: صبر على مكروه ينال الإنسان ظلماً كمن قتل بعض أعزته. وصبر على مكروه ينال الإنسان ليس بظلم كمن مات بعض أعزته. فالصبر على الأول أشد والعزم عليه أوكد. وكان ما في هذه السورة من الجنس الأول لقوله: "ولمن صبر وغفر" فأكد الخبر باللام.
وفي لقمان من الجنس الثاني فلم يؤكده باللام»(1).
ومن ذلك قوله تعالى:" وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (211) " البقرة

---

(١) البرهان ٤٢٧ وانظر درة التنزيل ٤٢٧-٤٢٨.

وقوله :" وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (2) " المائدة
وقوله:" وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (13) " الأنفال
فكلها قال فيها: (إن الله شديد العقاب) مؤكداً ب (إن) وحدها، في حين قال: " وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (6) الرعد فأكد ب (إن) واللام.
وقد زاد اللام في الرعد لما مر قبلها من ذكر العقوبات وهو قوله تعالى: " وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ " ولما ذكر من عقوبات الكافرين: " وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (5) " الرعد
وليس السياق كذلك في الآيات الأخرى ولاشيء فيه. فلما كان السياق في الرعد سياق العقوبات اقتضى زيادة توكيدها.
وشبيه بذلك قوله تعالى : " إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (173) البقرة
وقوله :" فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (182) البقرة
وقوله:" ... فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (192)" البقرة
وقوله :" إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (89) آل عمران
وقوله:" فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (3) " المائدة

وقوله:" فَمَنِ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145) الأنعام
فكلها أكدها ب (إن) وحدها وهو قوله: " فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ " أو (ربك) في حين قال:" وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18) النحل فأكدها ب (إن) واللام.
وسبب ذلك أن سياق آيات النحل هو في تعداد نعم الله على الإنسان ورحمته به ولطفه بخلقه، فقد ذكر خلق الأنعام وما فيها من منافع للإنسان من دفء وركوب وحمل للأثقال وغيرها. وذكر منافع الزروع، وذكر نعمته عليه في البر والبحر وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى من النعم، فناسب ذلك تأكيد المغفرة. وليس السياق في الآيات الأخرى كذلك ولا شيء منه فيه.
فأنت ترى أنه لما كان السياق في آية الرعد في ذكر العقوبات أكد العقوبة، ولما كان السياق هنا في ذكر النعم والألطاف الإلهية أكد المغفرة فوضع كلا في موطنه الذي هو أليق به. ومن ذلك قوله تعالى :" إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25)" الحديد
وقوله:" إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40)" الحج
فأكد قوته وعزته ب (إن) واللام في الحج دون آية الحديد وذلك أن سياق كل من الآيتين يوضح سبب ذاك.
قال تعالى في سورة الحج: " أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الحج
فأنت ترى أن الكلام هو في سياق الإذن للمؤمنين بالجهاد وقتال الأعداء بعدما أخرجوا من ديارهم وقوتلوا ظلماً، وقد ذكر أن الله قادر على نصرهم وقد وعدهم بالنصر فقال مؤكداً ذاك: " ولينصرن الله من ينصره " ولا شك أن النصر يحتاج إلى قوة فأكد قوته وعزته ب (إن) واللام، وقد ناسب تأكيد النصر تأكيد القوة.
وليس السياق كذلك في الحديد. قال تعالى: " لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25) " الحديد
فأنت ترى أنها ليست في سياق الجهاد والقتال ولا في سياق نصر الله للمؤمنين، بل في سياق نصر المؤمنين لدعوة الله " وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ " فالأولى في نصره هو لجنوده المستضعفين فأكد قوته، والثانية في نصر المؤمنين لدعوته .
فزاد في المقام الذي يقتضي زيادة التأكيد.

فسبحان الله رب العالمين. ما أجل هذا الكلام وأعظمه وأفخمه ! لقد جل هذا الكلام عن أن يكون له نظير، كما جل قائله عن النظير، فإنه ليس كمثل كلامه كلام، كما أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

التشابه والاختلاف

في القرآن الكريم آيات وتعبيرات تتشابه مع تعبيرات أخرى ولا تختلف عنها إلا في مواطن ضئيلة كأن يكن الاختلاف في حرف أو كلمة .أو نحو ذلك.
وإذا تأملت هذا التشابه والاختلاف وجدته أمراً مقصوداً في كل جزئية من جزئياته قائماً على أعلى درجات الفن والبلاغة والإعجاز .وكلما تأملت في ذلك أزددت عجباً وانكشف لك سر مستور أو كنز مخبوء من كنوز هذا التعبير العظيم.
فمن ذلك استعمال لفظ "مكة" و "بكة" لأم القرى.
جاء في قوله تعالى:
"إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ ءايات بينات مَّقَامُ إبراهيم وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ العالمين" "آل عمران :٩٦-٩٧".
فاستعمل اللفظ "بكة" بالباء في حين قال:
"وَهُوَ الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً" "الفتح :٢٤".
فاستعمل لفظ "مكة" بالميم وهو الاسم المشهر لأم القرى.
وسبب إيرادها بالباء في آل عمران أن الآية في سياق الحج :"وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت" "آل عمران :٩٧" فجاء بالاسم "بكة" من لفظ "البَكِّ" الدال على الزحام لأنه في الحج بيكّ الناسُ بعضهم بعضاً، أي :يزحم بعضهم بعضاً، وسميت "بكة" لأنهم يزدحمون فيها.
وليس السياق كذلك في آية الفتح، فجاء بالاسم المشهور لها أعني :"مكة" بالميم، فوضع كل لفظ في السياق الذي يقتضيه والله أعلم.
ولا مانع أن يكون ذلك لكلا السببين.
ومن ذلك قوله تعالى:
"إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سواء فَإِنَّ الله كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً" "النساء :١٤٩".
وقوله :"إِن تُبْدُواْ شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ الله كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً" "الأحزاب :٥٤".
فقد قال في آية النساء :"إِن تُبْدُواْ خَيْراً" "النساء :١٤٩" وفي الأحزاب :"إِن تُبْدُواْ شَيْئاً" "الأحزاب :٥٤" ، وذلك أن آية النساء وردت بعد قوله تعالى :"لاَّ يُحِبُّ الله الجهر بالسواء مِنَ القول إِلاَّ مَن ظُلِمَ " ... "النساء :١٤٨" فذكر أنّ الله لا يحب الجهر بالسوء، ولذا قال بعدها :"إِن تُبْدُواْ

خَيْراً" "النساء :١٤٩" أي :إن تُظهروا خيراً، هو عكس الجهر بالسوء .فالله سبحانه لا يحب السوء ولا الجهر به بخلاف الجهر بالخير.
وأما في آية الأحزاب فالسياق يتعلق بعلم الله بالأشياء الخافية والظاهرة فقد قال قبلها :"والله يَعْلَمُ مَا فِي قلُوبِكُمْ " ... "الأحزاب :٥١" . وقال :"وَكَانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً" "الأحزاب :٥٢" وختم الآية بقوله :"فَإِنَّ الله كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً" "الأحزاب :٥٤" ومعني الآية إنه يستوي عنده السر والجهر، فناسبَ أن يقول :"إِن تُبْدُواْ شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ" "الأحزاب :٥٤" لا أن يقول :"إِن تُبْدُواْ خَيْراً" "النساء :١٤٩" هذه علاوة على مناسبة كلمة "شيء" الواقعة قبلها وبعدها، فوضع كل لفظة في مكانها المناسب لها.
هذا من ناحية .ومن ناحية أخرى إن الجو التعبيري لكل سورة في هاتين السورتين يقتضي وضع كل لفظة من هاتين اللفظتين في موضعها .ذلك أن كلمة "خير" ترددت في سورة النساء اثنتي عشرة مرة ولم ترد سورة الأحزاب إلا مرتين.
ون كلمة "شيء" ترددت في سورة النساء اثنتي عشرة مرة وترددت في سورة الأحزاب ست مرات، فإذا كان الكلام يقتضي اختيار إحدى هاتين اللفظتين لكل آية فمن الواضح أن تختار كلمة "خير" لآية النساء وكلمة "شيء" لآية الأحزاب.
فاقتضى التعبير اختيار كل لفظة من جهتين :جهة المعنى والسياق .وجهة اللفظ.
فانظر أي تعبير هذا؟
ومن ذلك قوله تعالى :"واقتلوهم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ والفتنة أَشَدُّ مِنَ القتل" "البقرة :١٩١".
وقوله :"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهر الحرام قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ الله وَكُفْرٌ بِهِ والمسجد الحرام وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ الله والفتنة أَكْبَرُ مِنَ القتل" "لبقرة :٢١٧".
فقد قال في الآية الأولى :"أشد" وفي الآية الثانية :"أكبر" وذلك لأن الكلام في الآية الثانية على كبيرات الأمور فقد مر فيها قوله :"قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ" "البقرة :٢١٧" وقوله :"وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ الله" "البقرة :٢١٧" فناسب ذكر "أكبر" فيها.
وليس السياق كذلك في الآية الأولى، وإنما هي في سياق الشدة على الكافرين فقد قال فيها :"واقتلوهم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ والفتنة أَشَدُّ مِنَ القتل" "البقرة :١٩١" . وهذه شدة ظاهرة فناسب ذكر "أشد" فيها بخلاف الآية الثانية.
ومن ذلك قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام في سورة هود:
"وياقوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله " ... "هود :٢٩".

ووردت في غير هذا الموضع كلمة "أجر" بدل كلمة "مال" . فقد جاء في سورة يونس على لسان نوح عليه السلام:
"فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله " ... "يونس :٧٢".
وجاء على لسانه أيضاً في سورة الشعراء:
"وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين" "الشعراء :١٠٩".
وكذا وردت كلمة "أجر" بدل كلمة "مال" على لسان غيره من الأنبياء - انظر :"سورة هود ٥١ وسورة الشعراء ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠ وسورة سبأ ٤٧".
وسبب ذلك أنه في الموضع الذي وردت فيه كلمة "مال" وقعت بعدها كلمة "خزائن"" ولفظ المال بالخزائن أليق ."فقد جاء على لسان نوح عليه السلام في هذا الموضع قوله :"وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ الله " ... "هود :٣١" فناسب ذلك المال ههنا بخلاف المواضع الأخرى.
ومن ذلك قوله تعالى :"وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعام لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ" "النحل :٦٦".
وقوله :"وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعام لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ" "المؤمنون :٢١".
فقد قال في آية النحل :"نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ" "النحل :٦٦" وقال في آية المؤمنون :"نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا" "المؤمنون :٢١".
وسبب ذلك أن الكلام في آية النحل على إسقاء اللبن من بطون الأنعام .واللبن لا يخرج من جميع الأنعام بل يخرج من قسم من الإناث .وأما في آية "المؤمنون" فالكلام على منافع الأنعام من لبن وغيره، فقد قال بعد قوله :"نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا" "المؤمنون :٢١" : "وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ" "المؤمنون :٢١".
وهذه المنافع تعم جميع الأنعام ذكورها وإناثها صغارها وكبارها .فجاء بضمير القِلَّة وهو ضمير الذكور للأنعام التي يُستخلص منها اللبن، وهي أقل من عموم الأنعام، وجاء بضمير الكثرة وهو ضمير الإناث لعموم الأنعام .فلما كانت الأنعام في الآية الثانية أكثر جاء بالضمير الدال على الكثرة .وهذا جارٍ على وفق قاعدة التعبير في العربية التي تفيد أن المؤنث يُؤتى به للدلالة على الكثرة بخلاف الذكور، وذلك في مواطن عدة كالضمير وأسماء الإشارة وغيرها، وذلك نحو قوله تعالى :"وَقَالَ نِسْوَةٌ" "يوسف :٣٠" بتذكير الفعل "قال" ، وقوله :"قَالَتِ الأعراب آمَنَّا" "لحجرات :١٤" بتأنيث الفعل، فإن التذكير يدل على أن النسوة قلة بخلاف التأنيث، وهذه قاعدة معروفة لا نريد أن نطيل في شرحها وبيانها.
جاء في "درة التنزيل" في هاتين الآيتين" :أن الأنعام في سورة النحل وإن أطلق لفظ جمعها فإن المراد به بعضها، ألا ترى أن الدَّرَّ لا يكون لجميعها وأن اللبن لبعض إناثها فكأنه قال :"وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي

بُطَونِهِ" "النحل :٦٦" . ولهذا ذهبَ من ذهب إلى آنه رد إلى النعم لأنه يؤدي ما تؤديه الأنعام من المعنى .والمراد والله أعلم ما ذكرنا بالدلالة التي بينا.
وليس كذلك ذكرها في سورة المؤمنين لأنه قال :"نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فيِهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفلك تُحْمَلُونَ" "المؤمنون :٢١-٢٢" فأخبر عن النِّعم التي في أصناف النَّعَمِ إناثها وذكورها فلم يحتمل أن يراد بها البعض كما كان في الأول ذلك."
ومن ذلك قوله تعالى :"وَلِلَّهِ جُنُودُ السماوات والأرض وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً" "الفتح :٤".
وقوله :"وَلِلَّهِ جُنُودُ السماوات والأرض وَكَانَ الله عَزِيزاً حَكِيماً" "الفتح :٧".
فقد قال في الآية الأولى :"وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً" "الفتح :٤" وقال في الآية الثانية :"عَزِيزاً حَكِيماً" "الفتح :٧" . قيل :وسبب ذلك أن الكلام الأول متصل بإنزال السكينة وازدياد المؤمنين .إيماناً فقد قال قبلها :"هُوَ الذي أَنزَلَ السكينة فِي قُلُوبِ المؤمنين ليزدادوا إيمانا مَّعَ إيمانهم وَلِلَّهِ جُنُودُ السماوات والأرض " ... "الفتح :٤" فهذا موضع عِلْمٍ وحكمة فقال :"عَلِيماً حَكِيماً" "الفتح :٤".
وأما الآية الثانية فهي في موضع عذاب وعقوبات فقد جاءت بعد
قوله :"وَيُعَذِّبَ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظآنين بالله ظَنَّ السوء عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء وَغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيراً * وَلِلَّهِ جُنُودُ السماوات والأرض "..."الفتح :٦-٧" فهذا موضع عِزَّةٍ وغَلَبة وحكم فقال :"عَزِيزاً حَكِيماً" "الفتح :٧".
وشبيه بهذا قوله تعالى :"فَأنزَلَ السكينة عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَان الله عَزِيزاً حَكِيماً" "الفتح :١٨-١٩".
فهذا في مقام النصر وأخذ الأموال والغنائم فكان الموضع موضع عز وغلبة وحكم فقال :"عَزِيزاً حَكِيماً" "الفتح :١٩".
ومن ذلك قوله تعالى:
"أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" "الروم :٣٧".
وقوله :"أَوَلَمْ يعلموا أَنَّ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" "الزمر :٥٢".
فقد قال في آية الروم :"أَوَلَمْ يَرَوْاْ" "الروم :٣٧" وفي آية الزمر "أَوَلَمْ يعلموا" "الزمر :٥٢" وذلك أن ألفاظ الرؤية والنظر في سورة الروم أكثر مما في سورة الزمر، وألفاظ العلم في الزمر أكثر مما في الروم، فقد وردت ألفاظ الرؤية والنظر في الروم سبع مرات .وفي الزمر ست مرات .ووردت ألفاظ العلم في الزمر إحدى عشرة مرة وفي الروم عشر مرات .فاستحقت الروم لفظ الرؤية والزمر لفظ العلم.

ثم انظر إلى طريقة أخرى في التعبير فقد جاء بفاقدي البصر في سورة الروم فقال :"وَمَآ أَنتَ بِهَادِ العمي عَن ضَلَالَتِهِمْ " ... "الروم :٥٣" وجاء بفاقدي العلم في آية الزمر فقال :"قُلْ أَفَغَيْرَ الله تأمروني أَعْبُدُ أَيُّهَا الجاهلون" "الزمر :٦٤".

ومن ذلك قوله تعالى:

"وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور فَفَزِعَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ" "النمل :٨٧".

وقوله :"وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ" "الزمر :٦٨".

فقد قال في النمل :"فَفَزِعَ" "النمل :٨٧" وفي الزمر "فَصَعِقَ" "الزمر :٦٨" ، وإنما قال ذلك في الزمر لمناسبة ما بعده وهو قوله :"فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ" "الزمر :٦٨" فإن ذلك في مقابل الصعقة، في حين ختم آية النمل بقوله :"وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ" "النمل :٨٧" ، وهو المناسب للفزع إذ معنى داخرين :صاغرون، فناسب كل لفظ مكانه الذي وضع فيه.

ثم انظر كيف قال بعد آية النمل :"مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ" "النمل :٨٩" فامنهم من الفزع الذي يصيب الخلائق يوم القيامة.

ثم انظر مرة أخرى كيف ناسب ختام السورة أولها وما ورد فيها من فزع في قصة موسى وذلك قوله تعالى :"فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ولى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ياموسى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ المرسلون" "النمل :١٠".

وكيف ناسب ذكر الصعقة في الزمر قوله تعالى :"إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ" "الزمر :٣٠" وقوله :"الله يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا والتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ التي قضى عَلَيْهَا الموت وَيُرْسِلُ الأخرى إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى " ... "الزمر :٤٢".

جاء في "البرهان" للكرماني أن سورة النمل خصت بقوله :"فَفَزِعَ" "النمل :٨٧"" موافقة لقوله :"وَهُمْ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ" "النمل :٨٩" . وخصت الزمر بقوله :"فَصَعِقَ" "الزمر :٦٨" ، موافقة لقوله :"وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ" "الزمر :٣٠" لأن معناه :مات."

ومن ذلك قوله تعالى:

"ياأيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأرحام مَا نَشَآءُ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لتبلغوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأرض هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ" "الحج :٥".

وقوله :"وَمِنْ آيَاتِهِ اليل والنهار والشمس والقمر لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ واسجدوا لِلَّهِ الذي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ استكبروا فالذين عِندَ

رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بالليل والنهَار وَهُمْ لَا يَسْئَمُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأرض خَاشِعَةً فَإِذَا أنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ إِنَّ الذي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الموتى إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" "فصلت :٣٧-٣٩".
فقد قال في آية الحج :"هَامِدَةً" "الحج :٥" وفي آية
فصلت :"خَاشِعَةً" "فصلت :٣٩"" وعند التأمل السريع في هذين السياقين يتبين وجه التناسق في "هَامِدَةً" "الحج :٥" و "خَاشِعَةً" "فصلت :٣٩".
إن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج فمما يتسق معه تصوير الأرض بأنها "هامدة" ثم تهتز وتربوا وتُنبت من كل زوج بهيج.
وإن الجو في السياق الثاني هو جو عبادة وخشوع يتسق معه تصوير الأرض بأنها خاشعة فإذا أنزلَ عليها الماءُ اهتزت وربت .ثم لا يزيد على الاهتزام والإرباء هنا الإنبات والإخراج كما زاد هناك، لأنه لا محلَّ لهما في جو العبادة والسجود."
ومن ذكل قوله تعالى:
"كَيْفَ يَهْدِي الله قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وشهدوا أَنَّ الرسول حَقٌّ " ... "آل عمران :٨٦".
وقوله :"وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الكفر وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ " ... "التوبة :٧٤".
فقد عبر في آية آل عمران بالإيمان وفي آية التوبة بالإسلام، وذلك لاختلاف حال من عني بهما" وقد ذكر المفسرون أن آية آل عمران نزلت في الحارث بن سويد الأنصاري، وكان قد أسلم ثم ارتد ولحق بالكفار ثم ندم، فأرسل إلى قومه ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل له من توبة؟ فسألوا فنزلت الآية فكتبوا بها إليه فأسلم وحسن إسلامه .فكانت حاله حال إيمان ولم يكن في إسلامه أولاً ممن عرف بنفاق، ولا أنَّه أبطن خلاف ما ظهر منه من إسلامه، فكانت حاله حال إيمان وتصديق ولم يظهر خلافه وذلك هو الإيمان .فناسب وصفة بالإيمان وهو التصديق بالقلب.
أما آية التوبة فنزلت في الجُلَاس حين قال في غزوة تبوك :لئن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شَرٌّ من الحُمر .فنُمي ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستدعاه فحلف ما قال .وكان منافقاً معروف النفاق يتظاهر بالإسلام ويبطن خلافه .فأنزل الله في قضيته :"يَحْلِفُونَ بالله مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الكفر وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ" "التوبة :٧٤" فقيل هنا :"بعد إسلامهم" مناسبة للحال."
ومن ذلك قوله تعالى:
"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأولين * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" "الحجر :١٠-١١".
وقوله :"وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأولين * وَمَا يَأْتِيهِم مِّنْ نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" "الزخرف :٦-٧".

فقال في آية الحجر :"من رسول" وقال في آية الزخرف :"من نبي" وذلك أنه" :لما قام تقدم في آية الزخرف لفظ "كم" الخبرية وهي للتكثير ناسب ذلك من يوحي إليه من نبي مرسل أو نبي غير مرسل .فورد هنا ما يعم الصنفين عليهم السلام.
أما آية الحجر فلم يرد فيها ولا قبلها ما يطلب التكثير مع ما تضمنت من قصد تأنيسه عليه السلام وتسليته، فخصت بالتعيين باسم الرسالة تسلية له عن قولهم :"إنك لمجنون" وبما جرى للرسل قبله عليه السلام من مثل ذلك .ومن البيّن أن موقع "رسول" هنا أمكن في تسليته عليه السلام .فجاء كل على ما يجب من المناسبة."
ومن ذلك قوله تعالى:
"الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ " ... "غافر :٧-٨".
وقوله :"والملائكة يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأرض أَلَا إِنَّ الله هُوَ الغفور الرحيم" "الشورى :٥".
فقال في "غافر" "وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ" "غافر :٧" وقال في الشورى :"وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأرض" "الشورى :٥" . وذلك لأسباب عدة منها:
١ -أن آية غافر ذكر جماعة مخصوصة من الملائكة وهم حَمَلَةُ العرش ومن حوله، وآية الشورى ذكرت عموم الملائكة .فناسب أن تستغفر خاصة الملائكة للخاصة من الناس وهم المؤمنون، وأن تستغفر عامة الملائكة لعموم أهل الأرض.
٢ -ثم لما ذكر في غافر صفة الإيمان في هؤلاء الملائكة فقال "ويؤمنون به" ناسب أن يذكر من اتصف بهذه الصفة من أهل الأرض.
٣ -ثم إنّ قوله :"فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَكَ" "غافر :٧" يفيد التخصيص ولا يفيد العموم، فناسب ذلك أن يخصوا المؤمنين بالذكر لا أن يذكروا عموم أهل الأرض، وأغلبهم لا تنطبق عليه هذه الأوصاف.
٤ -ثم إنهم لما سألوا ربهم أن يقيهم عذاب الجحيم وأن يدخلهم جنات عدن، ومعلوم أن ذلك لا يكون إلا للمؤمنين، ناسب ذلك المؤمنين وإلا فليس من المناسب أن تسأل الجنة لكافر.
وأما آية الشورى فلم يرد فيها مثل ذلك، بل ذكر فيها عموم الملائكة فناسب أن يذكر عموم أهل الأرض، ولم يذكر صفة أخرى تُقَيِّدُ هذا العموم.
ثم إنه لما ختم الآية بقوله :"أَلَا إِنَّ الله هُوَ الغفور الرحيم" "الشورى :٥" ناسب ذكر هاتين الصفتين وقَصْرهما وتعريفهما وتأكيدهما ذكر العموم.

فانظر فخامة هذا التعبير وجلاله.
ومنه قوله تعالى:
"لَقَدْ مَنَّ الله عَلَى المؤمنين إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ " ... "آل عمران :١٦٤".
وقوله :"لَقَدْ مَنَّ الله عَلَى المؤمنين إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ " ... "الجمعة :٢".
فقيل في الأولى :"من أنفسهم" وفي الثانية :"منهم" وذلك" أن قولك :"فلان من أنفس القوم" أوقع في القرب والخصوص من قولك "فلان منهم" . فإن هذا قد يراد للنوعية فلا يختص لتقريب المنزلة والشرف إلا بقرينة .أما "من أنفسهم" فأخصُّ فلا يفتقر إلى قرينه .ولذلك حيث ورد قصد التعريف بعظم النعمة به صلى الله عليه وسلم وجليل إشفاقه وحرصه على نجاتهم ورأفته ورحمته بهم قال تعالى :"لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ " ... "التوبة :١٢٨" وقال تعالى فيمن كان على الندّ من حال المؤمنين المستجيبين :"وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ" "النحل :١١٣" فتأمل موقع قوله هنا :"منهم" لما قصد أنه إنعام عليم لم يوفقوا لمعرفة قدره ولا للاستجابة المثمرة للنجاة فقيل هنا :"منهم"...
ولما كان لفظ الأميين يتناول قريشاً وغيرهم من العرب ممن ليس من أهل الكتاب قيل :"منهم" فناسبت هذه الآية بما فيها من الشياع الذي مهدناه عموم الأميين من العرب ممن أسلم وممن لم يسلم .ولما قال في آية آل عمران :"لَقَدْ مَنَّ الله عَلَى المؤمنين" "آل عمران :١٦٤" فَخَصَّ مَنْ أسلمَ ناسب ذلك قوله :"من أنفسهم" بخصوصه كما تقدم .ولم يكن العكس ليناسب."
ومن هذا الباب قوله تعالى:
"يُحَرِّفُونَ الكلم عَن مَّوَاضِعِهِ " ... "المائدة :١٣".
وقوله :"يُحَرِّفُونَ الكلم مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ " ... "المائدة :٤١".
فقد قال في الآية الأولى :"عن مواضعه" وفي الثانية :"من بعد مواضعة" وذلك أن الكلام في الآية الأولى على أوائل اليهود الذين حرفوا التوراة، وفي الثانية على اليهود الذين كانوا في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم والذين حرفوها بعد أن وضعها الله مواضعها وعرفوها وعملوا بها زماناً .فقد قال في الآية الأولى :"وَلَقَدْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ بني إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثني عَشَرَ نَقِيباً * ... فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكلم عَن مَّوَاضِعِهِ " ... "المائدة :١٢-١٣".
وقال في الآية الثانية :"وَمِنَ الذين هَادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الكلم مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ " ... "المائدة :٤١" فجاء في

الثانية بكلمة "بعد" لأنها" قد تكون لما تأخر عن زمانه بأزمنة كثيرة وبزمن واحد و "عن" لما جاوز الشيء إلى غيره ملاصقاً زمنه لزمنه."
وجاء في الاولى بـ "عن" لأن الزمن ملاصق، فوضع كل لفظ في المكان الذي هو أليق به.
ومن بديع ذلك وطريقه قوله تعالى:
"فَقَدْ كَذَّبُواْ بالحق لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ" "الأنعام :٥".
وقوله :"فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" "الشعراء :٦".
فقد ذكر "سوف" في آية الأنعام فقال :"فسوف يأتيهم أنباء " ... وذكر السين في آية الشعراء فقال :"فسيأتيهم".
وذكر "الحق" في آية الأنعام فقال :"فقد كَذَّبوا بالحق" ، ولم يذكره في آية الشعراء .ولكلٍّ من ذلك سببٌ يدعو إليه.
أما ذكر "الحق" في آية الأنعام فإنه تردّد في هذه السورة اثنتي عشر مرة ولم ترد هذه اللفظة في سورة الشعراء فناسب ذكرها في آية الأنعام دون آية الشعراء إذ هو المناسب للجو التعبيري في هذه السورة.
وأما ذكر "سوف" في الأنعام فيفيد تأخير العقوبات إلى زمن أبعد مما في الشعراء وذلك أن "سوف" أبعد في الاستقبال من السين .ولوضع كل من سوف والسين موضعها عدة أسباب منها:
١ -أن المَعنِيين في سورة الشعراء هم قوم الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة يدلك على ذلك قوله تعالى :"لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ" "الشعراء :٣-٤".
وأما ما ورد في سورة الأنعام فلعموم الكافرين "ثْمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ" "الأنعام :١" فناسب ذلك تعجيل الوعيد لمن هم أقرب إليه من الكفار الذين حاربوا الرسول وكذبوه قبل الأباعد الذين لم تبلغهم الدعوة بعد.
علاوة على ما في السورة من تسلية للرسول فقد قال له :لعلك تقتل نفسك لعدم إيمانهم فَهَوِّنْ عليك الأمر، فناسب كل ذلك تعجيل التهديد والوعيد وليس الأمر كذلك في سورة الأنعام.
٢ -ذكر في سورة الشعراء الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم وعقوباتهم في الدنيا فناسب ذلك مجيء السين إشعاراً بتعجيل العقوبة لهؤلاء القوم كما عجل للأقوام البائدة بخلاف ما في الأنعام إذ ليس فيها شيء من ذلك.
٣ -ثم إن سورة الأنعام مبنية على تأخير الوعيد والعقوبات بخلاف سورة الشعراء:
أ -فقد أمر الرسول في الأنعام أن يقول إنه ليس عنده ما يستعجلون به من العذاب "قُلْ إِنِّي على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ" "الأنعام :٥٧".

"قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأمر بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ والله أَعْلَمُ بالظالمين" "الأنعام :٥٨" . فناسب عدم الاستعجال ذكر "سوف" هنا.
ب -ورد في الأنعام قوله :"قُلْ ياقوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عاقبة الدار" "الأنعام :١٣٥" فذكر "سوف" ولم يذكر السين وهو الملائم للجو العام للسورة.
ج -ثم انظر كيف قال في موطن آخر في سورة الأنعام :"كَتَبَ على نَفْسِهِ الرحمة لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يَوْمِ القيامة لاَ رَيْبَ فِيهِ" "الأنعام :١٢" فقد ذكر أنه كتب على نفسه الرحمة، وهذا ينافي تعجيل العقوبة، ثم قال :"ليجمعنكم إلى يوم القيامة" . وهذا يفيد تأخير العقوبة إلى يوم القيامة.
فناسب ذلك كله وضع "سوف" دون السين في الأنعام.
د -قال في ختام سورة الأنعام :"إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ" "الأنعام :١٦٥" فلم يؤكد سرعة العقاب كما أكد المغفرة والرحمة، فقد أكدهما بإنّ واللام، وأكد سرعة العقاب بإنّ وحدها، كما أنه لم يؤكدها في سورة الأعراف مثلاً فقد قال هناك :"إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ" "الأعراف :١٦٧" فأكد سرعة العقاب بإنّ واللام، وذلك لما كان المواطن في الأعراف تعجيل العقوبات في الدنيا أكد سرعة العقاب ولما لم يكن الأمر كذلك في الأنعام لم يؤكد سرعته وهذا ينافي تعجيل العقوبة.
هـ -ثم انظر كيف قال تعالى في مكان آخر من سورة الأنعام :"قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض ثُمَّ انظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين" "الأنعام :١١" فقد جاء بـ "ثم" الدالة على التراخي والبعد بخلاف قوله تعالى في سورة أخرى :"قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المجرمين" "النمل :٦٩" فقد جاء فيها بالفاء الدالة على التعقيب.

ووضع "ثم" في آية الأنعام هذه علاوة على أنه من المناسب للجو العام للسورة يقتضيها السياق أيضاً من عدة نواح، بخلاف سياق آيات النمل الذي يقتضي الفاء .فقد ختمت آية الأنعام بقوله تعالى :"ثُمَّ انظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين" "الأنعام :١١" وختمت آية النمل بقوله :"فانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المجرمين" "النمل :٦٩" ، والمُكَذِّبُ قد تُعطى له مهلة أطول من مهلة المجرم فإن المجرم ينبغي أن يُؤخذَ بجرمه على وجه التعقيب، ولذا جاء في "المكذبين" بثم ومع المجرمين بالفاء .فاقتضى ختام كل آية الحرف الذي اختير لها.
هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن التكذيب والسخرية في النمل أكبر مما في الأنعام فقد جاءت آية النمل بعد قوله تعالى :"وَقَالَ الذين كفروا أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَآؤُنَآ أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هاذا نَحْنُ وَآبَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين" "النمل :٦٧-٦٨".
ثم جاء بالآية :"قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فانظروا " ... "النمل :٦٩".
ثم صبَّرَ الرسول بعدها بقوله :"وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ" "النمل :٧٠" فاقتضى كل ذلك التعجيل بالفاء لا الإمهال.
ثم انظر من جهة أخرى إلى قوله تعالى بعد آية النمل :"قُلْ عسى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الذي تَسْتَعْجِلُونَ" "النمل :٧٢" بخلاف قوله تعالى في الأنعام :"مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ" "الأنعام :٥٧" . فناسب كل ذلك ذكر "ثم" في آية الأنعام وذكر الفاء في آية النمل .لقد تبين من كل ذلك أن سورة الأنعام مبنية على تأخير العقوبات والوعيد، فناسب ذلك ذكر "سوف" فيها بخلاف آية الشعراء.
فانظر هداك الله أي تعبير هذا؟
ومن هذا الباب الاختلاف في التعريف والتنكير وذلك نحو قوله تعالى :"وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ الحق" "البقرة :٦١".
وقوله ... " :وَيَقْتُلُونَ الأنبيآء بِغَيْرِ حَقٍّ " ... "آل عمران :١١٢".
فَعرَّفَ "الحق" في الأولى ونَكَّرهُ في الثانية، وذلك أن كلمة "الحق" المعرّفة في آية البقرة تدل على أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير الحق الذي يدعو إلى القتل، والحق الذي يدعو إلى القتل معروف معلوم.
وأما النكرة فمعناها أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق أصلاً لا حَقَّ يدعو إلى قتل ولا غيره .أي :ليس هناك وجه من وجوه الحق الذي يدعو إلى إيذاء الأنبياء فضلاً عن قتلهم .فكلمة "حق" هنا نكرة عامة، وكلمة "الحق" معرّفة معلومة .والقصد من التنكير الزيادة في ذمهم وتبشيع فعلهم أكثر مما في التعريف، وذلك لأن التنكير معناه أنهم قتلوا الأنبياء بغير سبب أصلاً لا سبب يدعو إلى القتل ولا غيره .فمقام التشنيع والذم هنا أكبر منه ثَمَّ وكلاهما شنيع وذميم.
فجاء بالتنكير في مقام الزيادة في ذمهم وإليك سياق كل من الآيتين:

قال تعالى ... " :وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ الله ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ الحق ذلك بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ" "البقرة :٦١" . فعرّف "الحق" فيها.
وقال :"ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة أَيْنَ مَا ثقفوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ الله وَحَبْلٍ مِّنَ الناس وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ الله وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المسكنة ذلك بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ الأنبيآء بِغَيْرِ حَقٍّ ذلك بِمَا عَصَوْاْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ" "آل عمران :١١٢" فَنَكَّرَ "الحق".
ومن الواضح أن موطن الذم والتشنيع عليهم والعيب على فعلهم في آية آل عمران أكبر منه في آية البقرة يدل على ذلك أمور منها:
أنه في سورة البقرة جمع "الذلة" و "المسكنة" وأما في آي آل عمران فقد أكد وكرر وعمم فقال :"ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة أَيْنَ مَا ثقفوا" "آل عمران :١١٢" فجعلها عامة بقوله :"أينما ثقفوا" ثم قال :"وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المسكنة" "آل عمران :١١٢" فأعاد الفعل وحرف الجر للزيادة في التوكيد فإن قولك :"أنهاك عن الكبر وأنهاك عن الرياء" آكد مِنْ قولك "أنهاك عن الكبر والرياء".
ثم إنه ذكر الجمع في آية البقرة بصورة القلة فقال :"ويقتلون النبيين" وذكره في آية آل عمران بصورة الكثرة فقال :"ويقتلون الأنبياء" أي :يقتلون العدد الكثير من الأنبياء بغير حق.
فالتشنيع عليهم والعيب على فعلهم وذمهم في سورة آل عمران أشد ومن هنا يتبين أن التعريف في آية البقرة أليق والتنكير في آية آل عمران أليق.
ومن ذلك قوله تعالى:
"والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ في أَنْفُسِهِنَّ بالمعروف " ... "البقرة :٢٣٤" فعرّف "المعروف".
وقال في أخرى:
"والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعاً إِلَى الحول غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ في أَنْفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ " ... "البقرة :٢٤٠" . فنكَّرَهُ.
وذكر أن المقصود بـ "المعروف" ههنا الزواج خاصة، وأما غير المعرّف فيراد به ما لمي يُستنكر فِعْلُه من خروج أو تزيّن ونحوه.
جاء في "درة التنزيل"" : للسائل أن يسأل فيقول :ما الفائدة التي أوجبت اختصاص المكان الأول بالتعريف بالباء فقال :"بالمعروف" والمكان الثاني بالتنكير ولفظة "من".
ولجواب عن ذلك أن يقال :إنَّ الأول تعلق بقوله :"والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ في أَنْفُسِهِنَّ بالمعروف " ... "البقرة :٢٣٤" . أي :لا جناح

عليكم في آن يفعلن في آنفَسهم بآمر الله، وهو ما آباحه لهن من التزوج بعد انقضاء العدة، فالمعروف ههنا أمر الله المشهور، وهو فعله وشرعه الذي بعث عليه عباده.
والثاني :المراد به فلاح جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من جملة الأفعال التي لهن أن يفعلن من تزوج أو قعود .فالمعروف ههنا فعل من أفعالهن يُعرف في الدين جوازه وهوبعض ما لهن أن يفعلنه .ولهذا المعنى خُصَّ
بلفظ "من" ونُكِّرَ، فجاء "المعروف" في الأول مُعَرَّفَ اللفظ لما أشرت إليه، وهو أن يفعلن في أنفسهن بالوجه المعروف المشهور الذي أباح الشرع من ذلك، وهو الوجه الذي دل الله عليه وأبانه، فعرف إذ كان معرفة مقصوداً نحوه وكذلك خُصَّ بالباء وهي للإلصاق.
والثاني كان وجهاً من الوجوه التي لهن أن ياتينه فأُخرجَ مخرجَ النكرة لذلك."
ومما يدل على ذلك أيضاً أمور منها أن الآية الأولى ذكر فيها قوله :"يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ
وَعَشْراً" "البقرة :٢٣٤" فقوله :"يتربصن" معناه :يُصَبِّرن أنفسهن هذه المدة ليتسنى لهن الزواج، ثم ذكر العدة التي يحق لهن التزوج بعدها، ثم جاء بالباء الدالة على الإلصاق، والزواج إلصاق كما قال تعالى :"هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ " ... "البقرة :١٨٧".
وليس الأمر كذلك في الآية الأخرى، فإنه ليس هناك ذكر للتربص ولا للعدة التي يحق لهن التزوج بعدها.
ومن ناحية أخرى أنه عَرَّفَ "المعروف" المقصود به الزواج لأن الزواج شيء واحد معروف، ونَكَّرَ الثاني لأنه لم يقصد به فعل معين .بل كل ما كان مباحاً لهن في الشرع فنكره لذلك.
ومثل هذا استعماله للفظي "الكذب" و "كذب" بالتعريف
والتنكير، فاستعمل "الكذب" بالتعريف لما هو خاص بأمر
معين .و "كذباً" بالتنكير لما هو عام.
قال تعالى:
"كُلُّ الطعام كَانَ حِلاًّ لبني إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ على نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التوراة قُلْ فَأْتُواْ بالتوراة فاتلوها إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنِ افترى عَلَى الله الكذب مِن بَعْدِ ذَلِكَ فأولائك هُمُ الظالمون" "آل عمران :٩٣-٩٤".
فجاء بالكذب ههنا مُعَرَّفاً لأنه مخصص بهذه المسألة أي :مسألة الطعام .ومثله قوله تعالى:
"قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الغني لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض إِنْ عِندَكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بهاذآ أَتقُولُونَ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ" "يونس :٦٨-٦٩".
فعرف الكذب لأنه مخصص بمسألة معينة وهي زعمهم اتخاذ الله ولداً سبحانه .ونحوه قوله تعالى:

"مَا جَعَلَ الله مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ ولاكن الذين كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ على الله الكذب وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ" "المائدة :١٠٣".
فاستعمال الكذب معرفاً لأنه مخصص بمسألة الأنعام.
في حين قال :"وهاذا كتاب أنزلناه مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ القرى وَمَنْ حَوْلَهَا والذين يُؤْمِنُونَ بالأخرة يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنَزلَ الله" "الأنعام :٩٢-٩٣".
فالكذب ههنا عام ولم يخصص بمسألة معينة.
ونحوه قوله تعالى :"قُل لَّوْ شَآءَ الله مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ المجرمون" "يونس :١٦-١٧".
وقوله :"أَمْ يَقُولُونَ افترى عَلَى الله كَذِباً فَإِن يَشَإِ الله يَخْتِمْ على قَلْبِكَ وَيَمْحُ الله الباطل " ... "الشورى :٢٤".
وقوله :"إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افترى على الله كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ" "المؤمنون :٣٨".
فأنت ترى أنه استعمال المعرف لأمر مخصص، في حين استعمل المنكّر لما هو عام.
ومن هذا الباب قوله تعالى:
" ... فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظالمين" "المؤمنون :٤١" . بتعريف "القوم".
وقوله ... " :فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ" "المؤمنون :٤٤" . بتنكر "قوم".
وذلك لأن الأولى في قوم معينين وهم قوم صالح فعرّفهم بدليل قوله تعالى :"فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة بالحق " ... "المؤمنون :٤١".
وأما الثانية فلم تكن في قوم معينين بدليل قوله تعالى :"ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ" "المؤمنون :٤٢" وقوله :"ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ" "المؤمنون :٤٤".
فخصهم بالنكرة.
ومنه قوله تعالى :"وَإِماَّ يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" "الأعراف :٢٠٠".
وقوله :"وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله إِنَّهُ هُوَ السميع العليم" "فصلت :٣٦".
فقد وردت الصفتان في الأعراف منكّرتين "سميع عليم" ووردتا في "فصلت" معرّفتين وزيد قبلهما ضمير الفصل.
وذلك أن ورد قبل آية الأعراف وصف آلهتهم بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تتحرك ولا تقدر على شيء مما يدل على أنها ليس فيها شيء من الحياة قال تعالى :"أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلآ

أَنْفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الهدى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتون * إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فادعوهم فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادعوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ" "الأعراف :١٩١-١٩٥".
فوصف الله نفسه بالسمع والعلم في مقابل آلهتهم التي لا تمسع ولا تعي .وأما آية فصلت فقد تقدم قبلها قوله :"ولاكن ظَنَنتُمْ أَنَّ الله لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ" "فصلت :٢٢".
فأثبتوا لله سبحانه قليلَ العلم ونفوا عنه كثيره، فاقتضى ذلك أن يبين لهم أنه هو المختص بالعلم الكامل والسمع الكامل، فجاء بالصفتين معرّفتين للدلالة على الكمال في الوصف، وجاء بضمير الفصل للدلالة على قصر هاتين الصفتين عليه سبحانه وبيان أن ما عداه لا يعلم ولا يسمع إذا ما قيس بعلمه وسمعه .ولو جاء بهما نكرتين لم يفيدا هذا المعنى، إذ كل مَنْ عنده سمع وعلم يصح أن يوصف بأنه سميع عليم.
جاء في "ملاك التأويل"" : إن سورة الأعراف تقدم فيها قبل الآية وصف آلهتهم المنحوتة من الحجارة والخشب التي وُبِّخُوا بعبادتها في قوله في موضع آخر :"أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ" "الصافات :٩٥" فوصف هنا بأنها لا تخلق شيئاً ولا يستطيعون لهم نصراً "وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الهدى لَا يَسْمَعُواْ وتراهم يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ" "الأعراف :١٩٨" فنفي عنهم القدرة والسمع والبصر وآلة البطش بقوله :"أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ" "الأعراف :١٩٥".
ولم يتقدم هنا ما يوهم أدنى شيء يلحقها بشبه الأحياء فضلاً عما فوق ذلك، فوردت الصفتان بقوله :"سميع عليم" مَوْرداً لم يتقدمه ما يوهم صلاحية شيء من ذلك لغيره تعالى مما عبدوه من دونه مما قصد هنا، ولا ذكر دعوى شيء من ذلك من مُدّعٍ، فيستدعي ذلك التهم مفهوماً بنفيه فجاء على ما يجب.
أما آية السجدة فتقدم قبلها قوله تعالى :"ولاكن ظَنَنتُمْ أَنَّ الله لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ" "فصلت :٢٢" وقوله :"وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ" "فصلت :٢٥" وقوله تعالى :"أَرِنَا الذين أَضَلَّانَا مِنَ الجن والإنس" "فصلت :٢٩" فحصل من هذا أن مُضِلّهم إنما كان من عالم الإنس والجن، وكلا الصنفين موصوف بالمسع والبصر ممن ينسب إليه علم، بخلاف المتقدم ذكره في الأعراف.
فلما تقدم في سورة السجدة ما يظهر منه الغناء ويمكن أن يسمع ويبصر ويعلم، ناسبه التعريف في الصفة ليعطي بالمفهوم نفي ذلك من غير الموصوف بهما تعالى .ثم أكد ذلك بضمير الفصل المتقضي التخصيص ليَقوى المفهوم المسمى عند كثير من الأصوليين بـ "دليل الخطاب" ، فصار الكلام في قوة أن لو قيل :الله السميع العليم لا غير."

ومنه الاختلاف في التعريف، فقد يُعَرِّف اللفظةَ مرة بأل ومرة بالإضافة وذلك نحو قوله تعالى:
"الله يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ" "البقرة :١٥".
وقوله :"وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغي ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ" "الأعراف :٢٠٢".
فقد عرف "الطغيان" بالإضافة وعن "الغيّ" بأل، وذلك أنه أسند المد في آية البقرة إلى الله تعالى فقال :"وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ" "البقرة :١٥" فالله إنما يمدهم في طغيانهم هم، ولا يمدهم في طغيان جديد لم يفعلوه.
في حين أسند المد في آية الأعراف إلى الشياطين فذكر أنهم يمدونهم في غيٍّ جديد لا في غيهم وحده، فهم يضيفون غيّاً إلى غيهم.
جاء في "الكشاف"" : فإن قلت :أي نكتة في إضافته إليهم؟
قلت :فيها أن الطغيان والتمادي في الضلالة مما اقترفته أنفسهم واجترحته أيديهم وأن الله بريء منه..
ومصداق ذلك أنه حين أسند المد إلى الشياطين أطلق الغي ولم يقيده بالإضافة في قوله :"وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغي" "الأعراف :٢٠٢".
ومن ذلك الاختلاف في استعمال حروف العطف.
فهو يستعمل حروف العطف في غاية الدقة والجمال، فمن المعلوم أن الواو تأتي لمطلق الجمع، وأن الفاء تفيد الترتيب والتعقيب، و "ثم" تفيد الترتيب والتراخي.
ومعنى الترتيب أن المذكور أولاً هو الذي حدث أولاً والمذكور بعده هو الذي حدث بعده .ومعنى التعقيب أنه حصل بعده، بلا مهلة، فإذا قلت :"جاء محمد فخالد" كان معناه أن محمداً حضر قبل خالد وأن خالداً حضر بعده بلا مهلة.
ومعنى التراخي أن بينهما مهلة فقولك :"حضر محمد ثم خالد" يفيد أن حضور محمد قبل حضور خالد وأن بينهما مهلة وليس كالفاء .ومهلة كل شيء بحسبه فإذا قلت :"تزوج أحمد فولد له" كان معناه أنه لم يكن بين الزواج والولادة إلا مدة الحمل أما إذا قلت :"تزوج أحمد ثم ولده له" كان معنى ذلك أن الحمل تراخى عن الزواج.
وأما الواو فكما ذكرنا لمطلق الجمع، أي :ليست للتريب وإنما هي لمجرد الاشتراك في الحدث، فإذا قلت :"حضر أحمد وخالد" كان من الممكن أن يكون حضر أحمد قبل خالد أو خالد قبل أحمد أو حضرا معاً .وقد يكون بينهما مهلة أو لا يكون بينهم مهلة .وليس معنى ذلك أنها لا تأتي للتريب البتة، بل قد تأتي للترتيب وغيره، فهي ليست نصاً في الترتيب ولا في غيره.
وقد استعمل القرآن ذلك ألطف استعمال وأدقه.
فمن ذلك قوله تعالى :"ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ
أَنشَرَهُ" "عبس :٢١-٢٢" فجاء في "أقبره" بالفاء، لأن دفن الميت يكون بعد موته مباشرة وجاء بعده بـ "ثم" لأن النشور يتأخر عن الدفن.

ومن ذلك قوله تعالى :"كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنْتُمْ أمواتا فأحياكم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ" "البقرة :٢٨".
فجاء بالإحياء الأول بالفاء، وما بعده بثم ذلك" لأن الإحياء الأول قد تعقب الموت بغير تراخي وأما الموت فقد تراخى عن الإحياء .والإحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت."
وشبيه بذاك قوله تعالى :"الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * والذي أَطْمَعُ أن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدين" "الشعراء :٧٨-٨٢".
"فقد عطف في الآية الأولى بالفاء لتعقب بلا مهلة الهداية للخلق ... وكان العطف في الآية الرابعة بـ "ثم" لتراخي الإحياء عن الإماتة."
وأما الفاء في قوله :"فهو يَشفينِ" فهي الرابطة للجواب وليست عاطفة .ونحو ذلك قوله تعالى :"وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ" "الروم :٢٠".
وقوله :"وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السمآء والأرض بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأرض إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ" "الروم :٢٥".
"قال ههنا :"إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ" "الروم :٢٥" وقال في خقل الإنسان أولاً :"ثُمَّ إِذَآ أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ" "الروم :٢٠" فنقول :هناك يكون خلق وتقدير وتدريج وتراخ حتى يصير التراب قابلاً للحياة فينفخ فيه روحه فإذا هو بشر، وأما في الإعادة لا يكون تدريج وتراخ بل يكون نداء وخروج فلم يقل ههنا :ثم."
وبعد هذه المقدمة في معاني حروف العطف، نعود إلى التشابه والاختلاف فيها .فمن ذلك قوله تعالى:
"أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ القرون يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النهى" "طه :١٢٨".
وقوله :"أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ القرون يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ" "السجدة :٢٦".
فقال في آية "طه" : "أفلم" بالفاء، وقال في آية السجدة :"أولم" بالواو لأنه ذكر في سورة طه العقوبات في الدنيا علاوة على عقوبة الآخرة فقال :"وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى" "طه :١٢٤".
وقال :"وكذلك نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَدُّ وأبقى" "طه :١٢٧" فذكر المعيشة الضنك في الدنيا ثم قال :"ونحشره يوم القيامة أعمى" . وقال :"وكذلك نجزي من أسرف " ... والمقصود به في الدنيا، ثم قال بعده :"ولعذاب الآخرة أشد وأبقى" بخلاف ما في سورة السجدة فإنه أَخَّرَ الأمرَ إلى يوم القيامة، فقد قال قبل هذه الآية :"إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ" "السجدة :٢٥" . فجاء بالفاء في "طه" لأنها تفيد التعقيب وجاء الواو في السجدة.

ومن الاختلاف في هاتين الآيتين في غير العطف قوله تعالى في السجدة :"من قبلهم من القرون" وفي طه :"قبلهم من القرون" بدون "من" وذلك أنه ذكر في سورة السجدة هلاك ووفاة من هم في زمانه فقال :"وقالوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلَقَآءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت الذي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ" "السجدة :١٠-١١".
فبدأ بهلاك من هو أقرب إليه فجاء بـ "من" الدالة على ابتداء الغاية، ولم يرد مثل ذلك في "طه" فإنه ذكر قوم موسى وأحوالهم، وهم قبل الرسول بمدة طويلة وليسوا من قبله.
ثم انظر كيف ختم آية السجدة بقوله :"أفلا يسمعون" وذلك لأنهم يسمعون بماحصل للأقرب إليهم، فإنّ خاتمة الأقرب مما يؤخذ عن طريق السماع بخلاف الأقدمين ..وهذه إشارات تهديك إلى خاتمة آية "طه" لتنظر جلالة هذا الكلام وارتفاعه.
ومن ذلك قوله تعالى:
"وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا " ... "هود :٥٨".
وقوله :"وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا " ... "هود :٩٤".
فجاء في هاتين القصتين بالواو في حين قال:
"فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا " ... "هود :٦٦".
وقال في قصة لوط :"فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ". ... "هود :٨٢".
بالفاء وسبب ذلك أن" العذاب في قصة هود وشعيب تأخر عن وقت الوعيد .فإن في قصة هود :"فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ " ... "هود :٥٧".
وفي قصة شعيب :"سَوْفَ تَعْلَمُونَ" "هود :٩٣" والتخويف قارنه التسويف فجاء بالواو المهملة.
وفي قصة صالح ولوط وقع العذاب عقيب الوعيد، فإن في قصة صالح :"تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ" "هود :٦٥" وفي قصة لوط :"أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ" "هود :٨١" . فجاء بالفاء للتعجيل والتعقيب."
ومن ذلك قوله تعالى:
"وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآيات رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيءَاذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إلى الهدى فَلَنْ يهتدوا إِذاً أَبَداً" "الكهف :٥٧".
وقوله :"وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ المجرمين مُنتَقِمُونَ" "السجدة :٢٢".
قال في آية "الكهف" : "فَأَعْرَضَ عَنْهَا" "الكهف :٥٧" وقال في آية السجدة :"ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ" "السجدة :٢٢" وذلك أن وقوع الإعراض في آية الكهف أسرع منه في آية السجدة، إذ هو واقع في عقب التذكير، يدل على ذلك

قوله تعالى في آية الكهف :"وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ" "الكهف :٥٧" وقوله :"إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيءَاذَانِهِمْ وَقْراً" "الكهف :٥٧" وهذا الوصف مما يسرع في إعراضهم ثم قال فيما بعد :"وَإِن تَدْعُهُمْ إلى الهدى فَلَنْ يهتدوا إِذاً أَبَداً" "الكهف :٥٧" فذكر صَمَمهم وبُعْدَهم عن الهدى.
وليس الأمر كذلك في آية السجدة، فناسب ذلك ذكر الفاء في آية الكهف لدلالتها على الترتيب والتعقيب و "ثم" في آية السجدة لدلالتها على التراخي.
من ناحية، ومن ناحية ثانية أن الفاء قد تدل على السبب فجاء بالفاء للدلالة على أن التذكير كأنه كان سبباً لإعراضهم وزيادة رجسهم كما قال تعالى :"وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ" "التوبة :١٢٥".
فأنت ترى أن آية الكهف تقتضي الفاء من أكثر من جهة بخلاف آية السجدة.
ومن ذلك قوله تعالى:
"وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا" "الأعراف :٨٢".
وقوله :"فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا" "النمل :٥٦".
وهاتان الآيتان في قوم لوط، فقد جاء في آية الأعراف بالواو فقال :"وما كان جواب قومه" ، وجاء في آية النمل بالفاء فقال :"فما كان جواب قومه" مما يدل على أن الجواب كان أسرع منه في آية الأعراف.
وسياق كل من الآيتين يقتضي ما ذكر.
فقد قال في الأعراف :"وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن العالمين * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال شَهْوَةً مِّن دُونِ النسآء بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ" "الأعراف :٨٠-٨٢".
وقال في سورة النمل :"وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفاحشة وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال شَهْوَةً مِّن دُونِ النسآء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ" "النمل :٥٤-٥٦".
فأنت ترى أن مقام الإنكار والتقريع في سورة النمل أشد منه في سورة الأعراف، يدل على ذلك أمور منها:
١ -قوله تعالى في الأعراف :"إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال" "الأعراف :٨١" وفي النمل :"أإنكم" بإخال همزة الاستفهام الدالة على الإنكار والتوبيخ.
٢ -قوله في الأعراف :"بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ" "الأعراف :٨١" وفي النمل :"بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ" "النمل :٥٥" والوصف بالجهل فيه زيادة تقريع، لأن نسبة الإنسان إلى الإسراف أهون من نسبته إلى الجهل، فإنك إذا قلت لشخص :"أنت مسرف في هذا الأمر" كان أهون عليه من قولك :"أنت جاهل".
ولذلك بادروا بالرد عليه بسرعة ولم يتريثوا لأنه أغاظهم في الكلام أكثر مما في الأعراف فجاء بالفاء.

ومما يدل على شدة غيظهم ذكر اسمه صراحة في النمل "أخرجوا آلَ لَوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ" "النمل :٥٦" بخلاف ما في الأعراف فقد جاؤوا بالضمير :"أَخْرِجُوهُمْ" "الأعراف :٨٢".
وقد تقول :وهل هناك تناقض بين القولين والقصة واحدة؟
والجواب :لا، وذلك لأن الواو لا تناقض الفاء، فإن الواو لمطلق الجمع كما ذكرنا، فقد يكون ما بعدها واقعاً في عقب ما قبلها وقد يكون متأخراً عنه وقد يكون متقدماً عليه .وأما الفاء فتفيد الترتيب فهي تفيد أحد معاني الواو .فذكر معنى الترتيب والتعقيب في النمل لأن الموطن يقتضيه، وأطلق ذلك في الأعراف لأن الموطن لا يقتضي التعقيب .وهذا من أعجب الكلام وأدقه.
ويمكن أن يقال أيضاً :إن النصيحة تكررت من لوط في أزمنة مختلفة وبأساليب مختلفة، فيمكن أنه قال بعضها بصيغة أشد من الأخرى، وذلك أنه كلما تكررت الدعوة وتكررت النصيحة كان ذلك مدعاة إلى المبالغة في القول والنصيحة .وكل ذلك جائز والله أعلم.
ومن ذلك التشابه والاختلاف في حروف النفي وذلك نحو قوله تعالى :"وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ والله عَلِيمٌ بالظالمين" "الجمعة :٧".
وقوله :"وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ والله عَلِيمٌ بالظالمين" "البقرة :٩٥".
فنفى التمني في الآية الأولى بـ "لا" فقال :"وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ" "الجمعة :٧" ونفاه في الثانية بـ "لن" فقال :"وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ" "البقرة :٩٥" وسياق كل من الآيتين يوضح ذلك.
قال تعالى :"قُلْ ياأيها الذين هادوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ الناس فَتَمَنَّوُاْ الموت إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ والله عَلِيمٌ بالظالمين" "الجمعة :٦-٧".
وقال في البقرة :"قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدار الآخرة عِندَ الله خَالِصَةً مِّن دُونِ الناس فَتَمَنَّوُاْ الموت إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ والله عَلِيمٌ بالظالمين" "البقرة :٩٤-٩٥".
وأنت ترى الفرق وضاحاً بين السياقين، فإن الكلام في الآية الثانية على الآخرة "قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدار الآخرة " ... "البقرة :٩٤" والدار الآخرة استقبال فنفى بـ "لن" إذ هو حرف خاص بالاستقبال.
وأما الكلام في الآية الأولى فهو عام لا يختص بزمن دون زمن :"إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ الناس" "الجمعة :٦" فها أمر مطلق فنفى بـ "لا" وهو حرف يفيد الإطلاق والعموم.
ومن ناحية أخرى أنه لما كان الزمن في آية الجمعة عاماً مطلقاً غير مقيد بزمن نفاه بـ "لا" التي آخرها حرف إطلاق وهو الألف، ولما كان الزمن في الآية الثانية للاستقبال وهو زمن مقيد نفاه بـ "لن" التي آخرها حرف مقيد وهو النون الساكنة، وهو تناظر فني جميل.

وقد مر في باب التوكيد في التشابه والاختلاف في حروف النفي نحو قوله تعالى :"مَا هِيَ إِلاّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا" "الجاثية :٢٤" وقوله :"إِنْ هِيَ إِلاّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ" "المؤمنون :٣٧".
وقوله :"وَمَآ أَنَاْ إِلاّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ" "الأحقاف :٩" وقوله :"إِنْ أَنَا إِلاّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ" "الشعراء :١١٥" وغيره ما يغني عن إعادة ذكره.
ومن ذلك استعمال حروف الجر فقد استعملها استعمالاً لطيفاً بديعاً .فقد يعدل من حرف إلى آخر، أو يستعمل حرفاً مرة ثم يستعمل حرفاً آخر في موضع يبدو شبيهاً بالأول، وغير ذلك من الفنون التعبيرية لسبب يدعو إلى وضع كل حرف الموضع الذي وضعه.
فمن ذلك قوله تعالى في وصف المؤمنين:
"مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائم" "المائدة :٥٤" فعدّى "أذلّة" جمع ذليل بـ "على" والأصل أن يعدى باللام لانه يقال :"هو ذليل له" ولا يقال :"ذليل عليه" وقد عدل عن التعدية باللام إلى التعدية بـ "على" لأن المعنى يقتضي ذاك، إذ لو عداه باللام لكان ذماً لا مدحاً .فقولك :"وهو ذليل له" يفيد الذم، وهو ههنا في مقام المدح، فجاء بـ "على" للإشعار بالذلة المستعلية وللدلالة على خفض الجناح كما قال تعالى :"واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ" "الحجر :٨٨" أي :هم يوطئون أكنافهم ويتواضعون مع علو جانبهم وارتفاع مكانتهم، فجاء بـ "على" للإشعار بالعلو بخلاف ما لو قال "أذلّة للمؤمنين".
جاء في "الكشاف"" : فإن قلت :هلا قيل :أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين؟
قلت :فيه وجهان:
أحدهما :أن يُضَمِّنَ الذلَّ معنى الحُنُوِّ والعطف كأنه قيل :عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع.
والثاني :أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم."
ومن ذلك قوله تعالى:
"وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ" "سبأ :٢٤" فاستعمل مع الهداية حرف الاستعلاء "على" ومع الضلال "في" وذلك لأن من كان على الهدى كأنه مستعلٍ على الحق متمكن منه متثبت مما هو فيه، بخلاف من كان في الضلالة إذ هو كأنه ساقط فيها .والساقط في الشيء غير متمكن من نفسه، ألا ترى أن الواقف على الطريق ليس كالساقط في اللجة؟ فالأول متمكن من نفسه بخلاف الآخر، ولذا جاء مع الهدى بحرف الاستعلاء ومع الضلال بفي قال تعالى :"أولائك على هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ" "البقرة :٥" وقال :"إِنَّكَ عَلَى الحق المبين" "النمل :٧٩" فاستعمل للهدى "على" في حين قال :"فَذَرْهُمْ فِي

غَمْرَتِهِمْ حتى حِينٍ" "المؤمنون :٥٤" وقال :"فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ
يَتَرَدَّدُونَ" "التوبة :٤٥" وقال :"وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ" "الأعراف :١٨٦" وقال :"قُلْ مَن كَانَ فِي الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ
الرحمان مَدّاً" "مريم :٧٥" أي :ساقطاً فيها.
جاء في "الكشاف" في قوله تعالى :"وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ
مُّبِينٍ" "سبأ :٢٤"" : فإن قلت :كيف خولف بين حرفي الجر الداخلين على
الحق والضلال؟ قلت :لأن صاحب الحق كأنه مستعلٍ على فرس جواد يركضه
حيث يشاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه."
وجاء في التفسير القيم في قوله تعالى :"أولائك على هُدًى مِّن
رَّبِّهِمْ" "البقرة :٥"" : قيل :في أداة "على" سر لطيف وهو الإشعار بكون
السالك على هذا الصراط على هدى .وهو حق .كما قال في حق
المؤمنين :"أولائك على هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ" "البقرة :٥" وقال لرسوله صلى الله
عليه وسلم :"فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّكَ عَلَى الحق المبين" "النمل :٧٩" والله عز
وجل هو الحق، وصراطه حق ودينه حق .فمن استقام على صراطه فهو على
الحق والهدى .فكان في أداة "على" على هذا المعنى ما ليس في
أداة "إلى" فتأمله فإنه سر بديع.
فإن قلت :فما الفائدة في ذكر "على" في ذلك أيضاً؟ وكيف يكون المؤمن
مستعلياً على الحق وعلى الهدى؟
قلت :لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى مع ثباته عليه واستقامته إليه
فكان الإتيان بأداة "على" ما يدل على علوه وثبوته واستقامته .وهذا بخلاف
الضلال والريب فإنه يؤتى فيه بأداة "في" الدال على انغماس صاحبه
وانقماعه وتدسسه فيه كقوله تعالى :"فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ
يَتَرَدَّدُونَ" "التوبة :٤٥" وقوله :"والذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي
الظلمات" "الأنعام :٣٩" وقوله :"فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حتى
حِينٍ" "المؤمنون :٥٤" وقوله :"وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ" "هود :١١٠".
وتأمل قوله تعالى :"وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ
مُّبِينٍ" "سبأ :٢٤" فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي
الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلاً هاوية بسالكها في أسفل السافلين."
ومن طريف استعمال حرف الجر قوله تعالى :"وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الذين إِذَا
اكتالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ
يُخْسِرُونَ" "المطففين :١-٣".
قيل :إنّ "على" هنا بمعنى "من" . وقيل :بل هو متضمن معنى التسلط على
الناس والتحكم، أي :تسلطوا عليهم بالاكتيال.
والظاهر أنه هو الصواب لأن هناك فرقاً بين قولك :"اكتال منه" و "اكتال
عليه" . فـ "اكتال منه" لا يفيد أنه ظلمه حقه وهضمه ماله بخلاف "اكتال
عليه" ، فإن فيه معنى التسلط والاستعلاء وهذا من المطففين .والمطففون

كما بَيَّنهم القرآن إذا أخذوا من الناس أخذوا أكثر من حقهم، وإذا أعطوهم أعطوهم أقل من حقهم، ففيه إذن معنى التحكم والجور والظلم، وهو أبلغ من "من" وليست بمعنى "من" ولا تفيد "من" هذا المعنى.
ثم انظر إلى التعبير اللطيف الآخر بعده وهو قوله :"وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ" "المطففين :٣" ولم يقل :"كالوا لهم" أو "وزنوا لهم" وكلاهما جائز، ولكن في حذف اللام معنى لا يؤديه ذكره، قالوا :وذلك أن اللام تفيد الاستحقاق وهم لم يعطوهم حقهم، فحذف اللام الدالة على الاستحقاق إشارة إلى أنهم منعوهم حقوقهم.
ومن لطيف حذف حرف الجر قوله تعالى:
"وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ" "النساء :١٢٧".
فمن المعلوم أنه لا يجوز حذف حرف الجر إلا إذا أمن اللبس وتعين المقصود، فلا يقال :"رغبت زيداً" لأنه لا يدرى المقصود أهو "رغبت في زيد" أم "رغبت عنه" أم "رغبت إليه" ولكنه هنا حذف حرف الجر مع أنه لم يتعين أهو "في" أم "عن" وذلك لأنه يراد معنى الحرفين معاً .فالحكم واحد في الرغبة فيهن أو عنهن .وهذا في يتامى النساء إذ يحتمل أن يرغب فيهن لجمالهن أو يرغب عهن لدمامتهن، والحكم واحد في الحالتين فلو قال :"في" لظن أنه يراد في حالة الرغبة هذه فقط دون الأخرى .ولو قيل :"عن" لظن أنه يراد في حالة العزوف فقط، فلما حذف عرف أن المقصود جميع أنواع الرغبة عنهن أو فيهن فأطلق لإطلاق الرغبة، وهذا تعبير عظيم جليل جاء في "الكشاف" في هذه الآية" :يحتمل في "أن تَنكِحُوهُنَّ" "النساء :١٢٧" لجمالهن وعن "أن تَنكِحُوهُنَّ" "النساء :١٢٧" لدمامتهن."
وما جاء في التشابه والاختلاف في حروف الجر قوله تعالى:
"قولوا آمَنَّا بالله وَمَآ أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أنزِلَ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط وَمَآ أُوتِيَ موسى وعيسى وَمَا أُوتِيَ النبيون مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" "البقرة :١٣٦".
وقوله :"قُلْ آمَنَّا بالله وَمَآ أنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ على إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط وَمَا أُوتِيَ موسى وعيسى والنبيون مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" "آل عمران :٨٤".
فقال في آية البقرة :"وما أنزل إلينا" وقال في آل عمران :"وما أنزل علينا".
جاء في "درة التنزيل"" : للسائل أن يسأل عن موضعين من هاتين الآيتين :أحدهما قوله :"أنزل إلينا" في الأولى و "علينا" في الثانية.
والموضع الثاني :تكرار "أوتي" في الأولى وتركها في الثانية...
وشرح ذلك أن "على" موضوعة لكون الشيء فوق الشيء ومجيئه من علو.
و "إلى" المنتهى ... فقوله تعالى "قولوا آمَنَّا بالله" "البقرة :١٣٦" اختيرت فيها "إلى" لأنها مصدرة بخطاب المسلمين فوجب أن يختار

له "إلى" ... فالمؤمنون لم ينزل الوحي في الحقيقة عليهم من السماء، وإنما أنزل على الأنبياء ثم انتهى من عندهم إليهم .فلما كان "قولوا" خطاباً لغير الأنبياء وكان لأممهم كان اختيار "إلى" أولى من اختيار "على".
ولما كانت سورة آل عمران" قد صدرت الآية بما هو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وهو قوله :"قُلْ آمَنَّا بالله وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا" "آل عمران :٨٤" كانت "على" أحقَّ بهذا المكان لأن الوحي أنزل عليه...
وما الموضع الثاني الذي أعيد فيه لفظه "أوتي" من سورة البقرة ولم يعد فيها بإزائها من سورة آل عمران، فالجواب عنه أن يقال :إنما اختص هناك لأن العشر التي فيها مصدرة بقوله :"وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النبيين لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ" "آل عمران :٨١" فقدم ذكر إتياء الكتاب، واكتفى به عن التكرير في الموضع الذي كرر فيه من سورة البقرة على سبيل التوكيد."
ونقول تعليقاً على تعليله تكرار لفظ "أوتي" في البقرة دون آل عمران.
إنّ تكرار لفظ "أوتي" في البقرة يقتضيه التعبير لأكثر من سبب.
من ذلك :أن الآية في سورة البقرة جاءت في سياق ذكر عدد من الأنبياء وأخبارهم مثل إبراهيم وإسماعيل ويعقوب وبنيه وغيرهم من الأنبياء، فلما جرى ذكر الأنبياء السابقين ناسب ذلك تكرار الإيتاء لهم .بخلاف آل عمران فإنها ليست في مثل هذا السياق.
ومنها :إن هذه الآية وردت في البقرة بعد قوله تعالى :"وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نصارى تَهْتَدُواْ" "البقرة :١٣٥" فلما جرى ذكر هاتين الملتين ناسب ذلك تخصيص نبييهما بالإيتاء، فأفرد ذكر إيتاء موسى وعيسى عن إيتاء الأنبياء الآخرين، ثم جاء بعدهما ذكر الإيتاء للأنبياء الآخرين.
ومن ناحية أخرى إن الآية في آل عمران وردت بعد ذكر أخذ الميثاق من النبيين على الإيمان بسيدنا محمد ونصره إن هم أدكوره قال تعالى :"وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النبيين لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ على ذلكم إِصْرِي قالوا أَقْرَرْنَا قَالَ فاشهدوا وَأَنَاْ مَعَكُمْ مِّنَ الشاهدين" "آل عمران :٨١".
كما وردت في سياق التأكيد على الإسلام والإيمان به فقد قال قبلها :"أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ" "آل عمران :٨٣".
وقال بعدها :"وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخرة مِنَ الخاسرين" "آل عمران :٨٥" فناسب ذلك عدم تكرار الإيتاء للأنبياء فيها، وذلك لأن السياق فيما أوتي سيدنا محمد لا فيما أوتي الأنبياء الآخرون.
فأنت ترى أنه لما كان السياق في البقرة في ذكر الأنبياء ذكر الإيتاء لهم، ولما كان السياق في آل عمران في الإيمان بمحمد ودينه وأخذ الميثاق من الأنبياء على الإيمان به ناسب عدم تكرار الإيتاء للأنبياء.

هذا ومن ناحية أخرى إن الجو التعبيري للبقرة يقتضي تكرر الإيتاء فيها دون آل عمران، وذلك أن مشتقات الإيتاء من نحو آتى وآتينا وأوتي وغيرها وردت في سورة البقرة أكثر مما في آل عمران، فقد وردت في البقرة في أربعة وثلاثين موضعاً، ووردت في آل عمران في تسعة عشر موضعاً، فاقتضى الجو التعبيري في البقرة تكرار لفظ الإيتاء فيها علاوة على ما ذكرنا بخلاف آل عمران .وقد رأينا في مواضع عدة كيف يراعي القرآن الكريم الجو التعبيري لذكر لفظ في موضع دون آخر.
وأظنك في غِنى عن بيان جلالة هذا التعبير وقدره.
ومن ذلك قوله تعالى :"كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى" "الرعد :٢، الزمر :٥".
وقوله :"كُلٌّ يجري إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى" "لقمان :٢٩".
فقد جاء في آية الرعد باللام "لأجل وجاء في آية لقمان بـ "إلى" "إلى أجل مسمى" ، والفرق بينهما أن ما ورد باللام يفيد التعليل بمعنى :كُلٌّ يجري لبلوغ الأجل أي كل يجري لهذه الغاية كما تقول :كلهم يجري لوصول الهدف وبلوغه .وأما ما جاء بـ "إلى" فهو يفيد الانتهاء.
جاء في "درة التنزيل"" : للسائل أن يسأل عن اختصاص ما في سورة لقمان بقوله :"كُلٌّ يجري إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى" "لقمان :٢٩" وما سواه إنما هو "يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى" "الرعد :٢، الزمر :٥".
والجواب أن يقال :إنَّ معنى قوله :"يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى" "الرعد :٢، الزمر :٥" يجري لبلوغ أجل مسمى .وقوله :"يجري إلى أَجَلٍ" "لقمان :٢٩" معناه :لا يزال جارياً حتى ينتهي إلى آخر وقتِ جَريهِ المسمى له.
وإنما خص ما في سورة لقمان بـ "إلى" التي للانتهاء واللام تؤدي نحو معناها لأنها تدل على أن جريها لبلوغ الأجل المسمى، لأن الآيات التي تكتنفها آيات منبهة على النهاية والحشر والإعادة .فقبلها :"مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ" "لقمان :٢٨" وبعدها :"ياأيها الناس اتقوا رَبَّكُمْ واخشوا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ" "لقمان :٣٣" فكان المعنى :كل يجري إلى ذلك الوقت، وهو الوقت الذي تكرر فيه الشمس وتنكدر فيه النجوم كما أخبر الله تعالى.
وسائر المواضع التي ذكرت فيها اللام إنما هي في الإخبار عن ابتداء الخلق هوقوله:
"خَلَقَ السماوات والأرض بالحق يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار وَيُكَوِّرُ النهار عَلَى الليل وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ألا هُوَ العزيز الغفار * خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا" "الزمر :٥-٦".
فالآيات التي تكتنفها في ذكر ابتداء خلق السموات والأرض وابتداء جري الكواكب وهي إذ ذاك تجري لبلوغ الغاية، وكذلك قوله في سورة الملائكة إنما هو ذكر النعيم التي بدأ بها في البر والبحر إذ يقول :"وَمَا يَسْتَوِي البحران" إلى

قوله :"وَلَعَلَّكَمْ تَشْكَرُونَ * يُولِجُ الليل فِي النهار وَيُولِجُ النهار فِي الليل وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ لَهُ الملك والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ" "فاطر :١٢-١٣" فاختص ما عند ذِكْرِ النهاية بحرفها - واختص ما عند الابتداء بالحرف الدال على العلة التي يقع الفعل من أجلها."

ومن لطيف ذلك قوله تعالى:

"إِنَّ الأبرار يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً" "الإنسان :٥-٦".

فقال أولاً :"يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ" "الإنسان :٥" بـ "من" وقال بعدها :"عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا" "الإنسان :٦" بالباء .وقد ذهب قسم من النحاة إلى أن الباء ههنا تفيد التبعيض بمعنى "من" أي :يشرب منها .وقيل :بل ضَمَّنَ شرب معنى "روي" أي :يرتوي بها وهو أولى.

وفيها معنى آخر :وذلك أن قوله :"يَشْرَبُ بِهَا" "الإنسان :٦" يدل على أنهم نازلون بالعين يشربون منها من قولك :"نزلت بالمكان" فهو يدل على القرب والشرب، فالتمتع حاصل بلذتي النظر والشراب بخلاف الأول.

جاء في "البرهان" أن" العين ههنا إشارة إلى المكان الذي ينبع منه الماء لا إلى الماء نفسه، نحو :"نزلت بعين" فصار كقوله :مكاناً يشرب به."

قالوا :وذلك أنه ذكر صنفين من السعداء:

الصنف الأول :هم الأبرار.

والصنف الآخلا هم الذي سماهم "عِبَادُ الله" "الإنسان :٦" وهم أعلى مرتبة ممن قبلهم وذلك أن القرآن يستعمل كلمة "عبد" على معنيين:

المعنى الأول :العبودية القسرية وهي التي يشترك فيها كل الخلق كافرهم ومؤمنهم وذلك نحو قوله تعالى :"إِن كُلُّ مَن فِي السماوات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمان عَبْداً * لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً" "مريم :٩٣-٩٤" وهذه العبودية ليس فيها فضل لأحد على أحد.

والمعنى الثاني :العبودية الاختيارية وهي أن يجعل الشخص نفسه عبداً خالصاً لله موطّناً نفسه على عبادته متحرياً مرضاته ساعياً في طاعته واضعاً نفسه ووقته في خدمة مولاه شأن المولى مع سيده في أقل تقدير .ويتفاضل الناس بمقدار هذه العبودية، فكلما كان الشخص أكمل في عبوديته هذه وأتم كان أقرب إلى سيده .وتطلق هذه الصفة أعني صفة العبودية على أعلى الخلق وهم الأنبياء في مقام التشريف قال تعالى :"وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ الله يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً" "الجن :١٩" وقال :"سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا" "الإسراء :١" وقال :"ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً" "الإسراء :٣".

من هنا يتبين أن مرتبة الذين سماهم "عِبَادُ الله" "الإنسان :٦" أعلى من الأبرار .وقد فرق بين النعيمين كما فرق بين الصنفين .فقد قال في

الأبرار :"إِنَّ الأبرار يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً" "الإنسان :٥" وقال في الآخرين :"عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّه يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً" "الإنسان :٦" . وأنت ترى الفرق واضحاً بين النعيمين .فقد قال في الأبرار:
١ -إنهم يشربون من كأس.
٢ -وذكر أن هذه الكأس ليس خالصة بل ممتزجة "كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً" "الإنسان :٥".
واما الصنف الآخر فهم لا يشربون من كأس يؤتى بها بل يشربون خالصة من العين وهي مرتبة أعلى .ثم قال :"يَشْرَبُ بِهَا" "الإنسان :٦" ولم يقل "يشرب منها" أي :يرتوون بها، هذا علاوة على التمتع بلذبة النظر وهم نازلون بالعين.
وهذا التعبير نظير قوله تعالى :"كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأبرار لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ المقربون * إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المتنافسون * وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا المقربون" "المطففين :١٨-٢٨".
فذكر الصنفين من السعداء :صنف الأبرار وصنف السابقين المقربين وهم أعلى الخلق .فانظر كيف قال في نعيم الأبرار :"يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ... وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ" "المطففين :٢٥-٢٧" أي :إنهم يُسقون من رحيق ممزوج بالتسنيم، والتسنيم أعلى شرب في الجنة وهو يُمزج لهم بحسب أعمالهم .في حين قال :"عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا المقربون" "المطففين :٢٨" أي :إن المقربين يشربون من عين التسنيم خالصة، فإنهم كما أخلصوا أنفسهم وأعمالهم لله أخلص لهم الشراب، والجزاء من جنس العمل .وهم لا يشربون منها بل يشربون بها .فهذا - كما ترى - نظير ما مر في سورة الإنسان.
ويجرنا هذا التعبير إلى التشابه والاختلاف في التعبير عن الجزاء، إذ هو مرتبط بما نحن فيه ارتباطاً وثيقاً .فهو يختار الألفاظ اخياراً دقيقاً عجيباً في التعبير عن كل صنف، فمن ذلك ما جاء في سورة الرحمن في وصف نوعين من الجنان قال:
"وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الجنتين دَانٍ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطرف لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَآءُ الإحسان إِلاَّ الإحسان * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" "الرحمن :٤٦-٦١".
ثم قال:
"وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَآمَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ

وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" "الرحمن :٦٢-٧٧".

فأنت ترى أنه ذكر نوعين من الجنان بعضهما أعلى من بعض، فذكر الجنان العليا أولاً ثم قال :"ومن دونهما جنتان" أي :أقل منزلة منهما .وإليك طرفاً من التفريق بين الصنفين:

١ -قال وصف الجنتين العُلْيين :إنهما "ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ" "الرحمن :٤٨" في حين قال في الأخريين :"مُدْهَآمَّتَانِ" "الرحمن :٦٤" أي :مائلتان للسواد من شدة الخضرة .والوصف الأول أعلى فإن الأفنان تطلق على ضروب عدة من النعم لا يفيدها قوله :"مُدْهَآمَّتَانِ" "الرحمن :٦٤".

٢ -وقال في العُلْيين :"فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ" "الرحمن :٥٠" وقال في الأخريين :"فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ" "الرحمن :٦٦" . وماء الجري أكثر من ماء النضخ .وقيل في الجري معان أخرى من صفات النعم لا يفيدها قوله نضاختان.

٣ -وقال في العُلْيين :"فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ" "الرحمن :٥٢" وقال في الأخريين :"فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ" "الرحمن :٦٨" . فانظر أين فاكهة الثانيتين من الأوليين؟ فقد ذكر أن في العليين .من كل فاكهة زوجين على سبيل الاستغراق والعموم، ولم يجعل الوصف كذلك في الأخريين.

٤ -وقال في العُلْيين :"مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ" "الرحمن :٥٤" . وقال في الأخريين :"مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ" "الرحمن :٧٦".

فقد ذكر بطائن الأولى فقال :إنها من استبرق ولم يذكر ظهائرها لِعُلُوِّها وللإشارة إلى أن الوصف لا يرقى إليها .قال في "الكشاف"" : وإذا كانت البطائن من إستبرق فما ظنك بالظهائر؟."

في حين ذكر الأخرى فقال :هي رفرف خضر وعبقري حسان .وانظر أين هذا من ذاك؟

٥ -وقال في العُلْيين :"فيهن قاصرت الطرف" في حين قال في الأخريين :"حور مقصورات في الخيام".

فانظر هداك الله وصف "القاصرات" بصيغة اسم الفاعل ووصف "المقصورات" بصيغة اسم المفعول ووزان بين الوصفين يتبين الفضل بين الصنفين.

٦ -وقال في صوف قاصرات الطرف :"كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان" "الرحمن :٥٨" ولم يقل مثل ذلك في المقصورات، وهذا الوصف مدعاة إلى التشويق لإحسان العمل و "هَلْ جَزَآءُ الإحسان إِلاَّ الإحسان" "الرحمن :٦٠" ؟

وانظر إلى دقيقة أخرى عجيبة في وصف هاتين الجنتين ذكرها السلف الصالح رضوان الله عليهم، وهي أن قوله تعالى :"فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" "الرحمن :٦١" تكرر في كل جنة ثماني مرات بعدد أبواب الجنة .وتكرر في جهنم بعد قوله تعالى :"سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثقلان" "الرحمن :٣١" سبع مرات بعدد أبواب النار فإن أبواب الجنة ثمانية كما أخبر به الصادق المصدوق، وإن أبواب النار سبعة كما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز :"لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ" "الحجر :٤٤". فانظر هداك الله مقام هذا الكلام ورفعته وعزته.

ونظير هذا التفريق في الجزاء ما جاء في سورة الواقعة في التفريق بين نعيم السابقين المقربين وهم أعلى الخلق ونعيم أصحاب اليمين.

قال تعالى في السابقين:

"والسابقون السابقون * أولائك المقربون * فِي جَنَّاتِ النعيم * ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين * على سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ *كَأَمْثَالِ اللؤلؤ المكنون * جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً * إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً" "الواقعة :١٠-٢٦".

وقال في أصحاب اليمين:

"وَأَصْحَابُ اليمين مَآ أَصْحَابُ اليمين * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً * لأَصْحَابِ اليمين" "الواقعة :٢٧-٣٨".

فانظر كيف فرق بين النعيمين:

١ -ذكر أن السابقين على سُرُرٍ موضونة وهي المشبكة بالذهب، متكئين عليها متقابلين، ولم يذكر مثل ذلك في أصحاب اليمين بل قال :"وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ" "الواقعة :٣٤" وأنت ترى الفرق واضحاً بين الحالتين .وقيل :إنَّ المراد بالفرش ههنا النساء.

٢ -وذكر أن السابقين يطوف عليه ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين .ولم يذكر نحو ذلك في أصحاب اليمين .بل قال :"وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ" "الواقعة :٣١" والفرق ظاهر.

٣ -وذكر نعيم السابقين فقال :"وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ" "الواقعة :٢٠-٢١" في حين قال في أصحاب اليمين :"فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ" "الواقعة :٢٨-٢٩" إلى أن قال :"وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ" "الواقعة :٣٢-٣٣" . فأين السدر المخضود والطلح المنضود من قوله :"وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ" "الواقعة :٢٠-٢١" ؟

٤ -وذكر أزواج السابقين من الحور العين فقال :"وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللؤلؤ المكنون" "الواقعة :٢٢-٢٣" ولم يصرح بمثل ذلك لأصحاب اليمين بل قال :"إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً * لأَصْحَابِ اليمين" "الواقعة :٣٥-٣٨" . وهذا نظير وصفهن في آيات الرحمن :"كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان" "الرحمن :٥٨".
ويقال ههنا ما قيل ثَمَّ.
ونكتفي بهذا القدر لبيان التشابه والاختلاف وإن كان يحتمل المزيد من الكلام والأمثلة.
لقد تبين مما مر أن القرآن يختار الألفاظ اختياراً دقيقاً، وبضعها وضعاً فيناً عجيباً .وأن التشابه والاختلاف في قسم من التعبيرات إنما يقتضيه المعنى والمقام .وأنه لم يترك وجهاً من وجوه الاقتضاء إلا راعاه، ليس في سياق الآية وحدها ولا في جو السورة وحدها، بل في عموم القرآن ."فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُواْ صَادِقِينَ" "الطور :٣٤".

فواصل الآي

من المعلوم أن الآيات القرآنية الكريمة تنتهي بفواصل منسجمة موسيقياً بعضها مع بعض
مثل :"تعلمون، تؤمنون، تتقون" ومثل "خبيراً، كبيراً، عليماً، حكيماً".
ومن الملاحظ أن القرآن الكريم يعنى بهذا الانسجام عناية واضحة لما لذلك من تأثير كبير على السمع ووقع مؤثر في النفس .فقد ترى أنه مرة يقدم كلمة ومرة يؤخرها انسجاماً مع فواصل الآيات، فمثلاً يقول مرة :"قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ العالمين * رَبِّ موسى وَهَارُونَ" "الشعراء :٤٧-٤٨" بتقديم موسى على هارون، فيجعل لكمة "هارون" نهاية الفاصلة انسجاماً مع الفواصل السابقة واللاحقة، ومرة يقول :"قالوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى" "طه :٧٠" بتقديم هارون وجعل "موسى" نهاية الفاصلة لأن الألف فيها هي التي تناسب فواصل الآي في سوة طه.
وقد ترى أنه يحذف شيئاً من الكلم لتنسجم مع فواصل الآي، إذ لو أبقى المحذوف لم ينسجم، وذلك نحو قوله تعالى :"قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ" "الشعراء :٧٢-٧٣" إذ الأصل :"أو يضرونكم" مقابل :"ينفعونكم" ولكنه حذف المفعول به من "يضرونكم" ، إذ لو أبقاه لم تنسجم فاصلة الآية مع بقية الآليات.
وقد يزيد شيئاً في الكلمة للغرض نفسه وذلك نحو قوله تعالى :"رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا" "الأحزاب :٦٧" فقد مَدَّ فتحة "السبيل" لتنسجم الفاصلة مع فواصل الآية المتقدمة والمتأخرة.
وقد نرى أنه يبدل كلمة بكلمة أخرى مع أن الآيتين متشابهتان، ذلك لأن فواصل الآي في كل من الموطنين مختلفة، فيجعل في نهاية كل آية ما ينسجم موسيقياً مع أخواتها وذلك نحو قوله تعالى :"وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ" "إبراهيم :٣٤" وقوله :"وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ الله لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ" "النحل :١٨" فأنت ترى أن الآيتين متشابهتان إلا في خواتم الآي، فإن فاصلة آية إبراهيم وهو قوله :"كفار" منسجمة مع فواصل الآيات قبلها وبعدها "الأنهار، النهار، كفار، الأصنام".
وفاصلةآية النحل :"رحيم" منسجمة مع فواصل الآيات قبلها وبعدها :"تشكرون، تهتدون، تذكّر ون".
وقد ترى أنه يضع كلمة في مكان ويضع غيرها في مكان آخر يبدو شبيهاً بالموضع الأول تجنباً للتكرار، وذلك نحو قوله تعالى :"وَمَن يُشْرِكْ بالله فَقَدِ افترى إِثْماً عَظِيماً" "النساء :٤٨" وقوله في مكان آخر من السورة نفسها :"وَمَن يُشْرِكْ بالله فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً" "النساء :١١٦" . فأنت ترى

أنه غاير بين الفاصلتين تجنباً للتكرار .ونحو ذلك مما يبدو فيه مراعاة الانسجام الموسيقي واضحاً.
غير أن الذي نريد أن نؤكده هنا أن القرآن الكريم راعى في كل ذلك أيضاً ما يقتضيه التعبير والمعنى، ولم يفعل ذلك للانسجام الموسيقي وحده، فإنه لو لم يكن الجانب الموسيقي مراعىً في ذلك لاقتضاه الكلام من جهة أخرى .فهو لم يختم آية الشعراء بكلمة "هرون" وآية طه بكلمة "موسى" مراعاة للانسجام الموسيقي وحده، بل اقتضاه الكلام من جهة أخرى .فهو قد راعى الانسجام الموسيقي وما يقتضيه الكلام، فلم يَجُرْ موطن على آخر وهذا غاية الإعجاز ونهاية الحسن في الكلام.
وقد تظن أن في كلامنا هذا غلواً ومبالغة دفعنا إليهما إحساس ديني وتقديس نُكِنّه للقرآن الكريم وليس نابعاً من روح علمية ولا من نفس بريئة من العصبية والهوى .ولا نريد أن ندفع من أنفسنا هذه التهمة أو نقرها وإنما ندع ذلك للبحث يدفعه أن يقره .غير أننا نود أن نذكر هنا أن كثيراً من علماء السلف ذكروا ذلك، فقد قال الآلوسي رحمه الله ردّاً على القاضي البيضاوي قوله في قوله تعالى :"إِنَّ الله بالناس لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ" "البقرة :١٤٣"" : ولعله قدم "الرؤوف" وهو أبلغ محافظة على الفواصل" ."وقول القاضي بَيَّضَ الله تعالى غُرّة أحواله :لعل تقديم "الرؤوف" مع أنه أبلغ محافظة على الفواصل ليس بشيء، لأن فواصل القرآن لا يلاحظ فيها الحرف الأخير كالسجع، فالمراعاة حاصلة على كل حل، ولأن "الرأفة" حيث وردت في القرآن قُدِّمَتْ ولو في غير الفواصل، كما في قوله تعالى :"رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها" "الحديد :٢٧" في وسط الآية."
صحيح أن قسماً من الذين بحثوا في أسرار التعبير القرآني لم يوفقوا في اكتناه أسرار التأليف، بحيث تدرك أن تعليلاتهم متكلفة وتأويلاتهم بعيدة، وربما أدركت أيضاً أنه لو كان الكلام على غير هذه الصورة لأَوَّلُوه وعَلَّلوه تعليلاً آخر .ولكن هناك قسم آخر تمكن من أن يضع يده على أنفس الجواهر في التأليف وأن يستكنه أدق أسرار التعبير من غير تكلف ولا غموض.
وأحسب أنه من الأولى أن نضرب أمثلة نوضح بها هذا الادعاء وأن لا نطيل في الكلام وتقرير الأحكام.
فمن ذلك ما ذكرناه آنفاً وهوقوله تعالى:
"قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ" "الشعراء :٧٢-٧٣".
فقد ذكر مفعول النفع ولم يذكر مفعول الضر .وقد تظن أنه إنما فعل ذلك لفواصل الآي، ولا شك أنّه لو ذكر المفعول به لم تنسجم الفاصلة مع فواصل الآي، ولكن الحذف اقتضاه المعنى أيضاً فقد ذكر مفعول النفع
فقال :"ينفعونكم" لأنهم يريدون النفع لأنفسهم .وأطلق الضر لسببين:
الأول :أن الإنسان لا يريد الضرر لنفسه وإنما يريده لعدوه.
والآخر :أن الإنسان يخشى من يستطعي أن يلحق به الضرر.

فأنت ترى أن النفع موطن تخصيص والضَرَّ موضع إطلاق، فخص النفع وأطلق الضر .والمعنى أن هذه الآلهة لا تتمكن من الإضرار بعدوكم، كما أنها لا تستطيع أن تضركم فلماذا تعبدونها؟ ولو ذكر المفعول به فقال :"أو يضرونكم" لما أفاد هذين المعنيين :فانظر كيف أن الإطلاق في الضر اقتضاه المعنى علاوة على الفاصلة؟
ومثل ذلك قوله تعالى:
"وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هدى" "طه :٧٩".
ولم يقل :"وما هداهم" وذلك أنه أخرج الفعلَ مخرج العموم، أي :إن فرعون لم يتصف بصفة الهداية البتة .ولو قال :"وما هداهم" لكان عدم الهداية مقيداً بقومه إذ يحتمل أنه هَدى غيرهم لكنه قال :"وما هدى" أي :ما هَدى أحداً. فهو قد أضل قومه ولم يهد أحداً لا من قومه ولا غيرهم.
ومن ذلك قوله تعالى:
"وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ" "إبراهيم :٣٤".
وقوله :"وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَآ إِنَّ الله لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ" "النحل :١٨".
فقد تظن أنه ختم آية إبراهيم بقوله :"كفار" مراعاة لفواصل الآي في هذه السورة، وختم آية النحل بـ "رحيم" مراعاة لفواصل الآي فيها.
ولا شك أن خاتمة كل من الآيتين تنسجم موسيقياً مع الآيات فيهما، ولكن السياق أيضاً يقتضي الفاصلة التي فصلت فيها كل آية من الآيتين، ذلك أن الآية في سورة إبراهيم في سياق وصف الإنسان وذكر صفاته فختم الآية بصفة الإنسان، وأ ن الآية في سورة النحل في سياق صفات الله تعالى فذكر صفاته .فقد قال في سورة إبراهيم :"أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين بَدَّلُواْ نِعْمَتَ الله كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ البوار * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ القرار * وَجَعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار * قُل لِّعِبَادِيَ الذين آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصلاة وَيُنْفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ" "إبراهيم :٢٨-٣١".
فاقتضى ذلك ختم الآية بصفة الإنسان.
وقال في سورة النحل :"والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إلى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأنفس إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وعلى الله قَصْدُ السبيل وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ * هُوَ الذي أَنْزَلَ مِنَ السماء مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع والزيتون والنخيل والأعناب وَمِن كُلِّ الثمرات إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأرض مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الذي سَخَّرَ البحر لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً

تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الفلك مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" "النحل :٥-١٥".
فأنت ترى أن الكلام على صفات الله ونعمه على الإنسان فختمه بصفته .جاء في "معترك الأقران" أنه" إنما خص سورة إبراهيم بوصف المنعَم عليه وسورة النحل بصوف المنعِم، لأنه في سورة إبراهيم في مساق وصف الإنسان وفي سورة النحل في مساق صفات الله وإثبات ألوهيته."
وقال في "البرهان"" : ما الحكمة في تخصيص آية النحل بوصف المنعِم وآية إبراهيم بوصف المنعَم عليه؟
والجواب :أن سياق الآية في سورة إبراهيم في صوف الإنسان وما جُبِلَ عليه، فناسب ذكر ذلك عقيب أوصافه.
وأما آية النحل فسيقت في وصف الله تعالى وإثبات ألوهتيه وتحقيق صفاته، فناسب ذلك وصفه سبحانه."
ومن ذلك قوله تعالى:
"فَأُلْقِيَ السحرة سُجَّداً قالوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى" "طه :٧٠".
وقوله :"فَأُلْقِيَ السحرة سَاجِدِينَ * قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ العالمين * رَبِّ موسى وَهَارُونَ" "الشعراء :٤٦-٤٨".
قدم في "طه" ذكر هرون وفي "الشعراء" ذكر موسى .وقد تظن أن ذلك ما يقتضيه أواخر الآي .ونقول :صحيح أن أواخر الآي في سورة "طه" تقتضي أن يكون "موسى" في آخر الآية، وفي "الشعراء" تقتضي أن تكون كلمة "هرون" هي الفاصلة، ولكن هناك ملحظ آخر يقتضي تقديمَ ما قدم وتأخيرَ ما أخر، ولو لم تكن أواخر الآي كذلك .وانظر إلى الفرق بين القصتين في السورتين.
١ -إن ذكر "هرون" تكرر في سورة "طه" كثيراً وقد جعله الله شريكاً لموسى في تبليغ رسالته، في حين لم يرد في سورة الشعراء إلا قليلاً .من ذلك قوله في سورة طه:
أ -"واجعل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشدد بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ في أَمْرِي" "طه :٢٩-٣٢".
ب -"اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي" "طه :٤٢" . فقد أمر كلاً من موسى وهرون بالذهاب بآياته ولم يخص موسى بذاك.
ج -وكرر ذلك فقال :"اذهبآ إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى" "طه :٤٣-٤٤".
د -وكان الجواب صادراً منهما معاً :"قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يطغى" "طه :٤٥".
هـ -وقد طمأنهما ربهما معاً فقال :"قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وأرى" "طه :٤٦".

و وأمرهما معاً فقال :"فَأْتِيَاهُ فقولا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ" "طه :٤٧".
ز -وكان خطاب فرعون لهما معاً :"قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا ياموسى" "طه :٤٩" . ولم يقل له :فمن ربك؟
ح -ونسبهما كليهما إلى السحر فقال :"إِنْ هاذانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ المثلى" "طه :٦٣".
ط -وقد ورد تخليف موسى لهرون في قومه فنصح لهم في غيبته .قال تعالى :"وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ ياقوم إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرحمان فاتبعوني وأطيعوا أَمْرِي" "طه :٩٠".
ي -ولقد عاتب موسى أخاه هرون بشدة :"قَالَ ياهرون مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضلوا * أَلاَّ تَتَّبِعَنِ" "طه :٩٢-٩٣".
في حين لم يرد هرون ف سورة الشعراء إلا قليلاً وهو قوله:
أ -"فَأَرْسِلْ إلى هَارُونَ" "الشعراء :١٣".
ب -"فاذهبا بِآيَاتِنَآ إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ" "الشعراء :١٥".
وفيما كن الخطاب في آيات طه موجهاً إلى موسى وهرون معاً، كان موجهاً إلى موسى وحده في الشعراء :"قَالَ لَئِنِ اتخذت إلاها غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين" "الشعراء :٢٩".
وقد نسب موسى وحده إلى السحر ولم ينسب معه هرون كما جاء في طه فقال :"إِنَّ هاذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ" "الشعراء :٣٤-٣٥".
ولم يرد ذكر لهرون بعد هذا.
فأنت ترى أن القصة في طه مبنية على التثنية وأنها في الشعراء مبنية على الإفراد؟
٢ -هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إنه ذكر في آيات طه خوفَ موسى "فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً موسى" "طه :٦٧" ولم يذكر حالة الخوف هذه في الشعراء.
فأنت ترى أنه ذكرت جوانب الكمال والقوة في موسى في الشعراء، ولم ت ذكر حالة الضعف البشري الذي اعتراه .فاقتضى كل ذلك المغايرة في التعبير بين القصتين، وأظنك في غنى عن أن أقول لك :لو قيل لك :قدّم وأخر بين الاسمين حسبما يقتضيه السياق لقدّمت هرون على موسى في طه، وموسى على هرون في الشعراء.
وعلاوة على ذلك هناك طريقة أخرى، وهي أن سورة "طه" تبدأ بالحرفين :الطاء والهاء .وسورة الشعراء تبدأ بـ "طسم" . فكلتا السورتين تبدأ بالطاء غير أن الحرف الأخير من "طه" هو الهاء، وهو أول حروف هرون وليس فيها حرف من حروف موسى .والحرف الأخير من "طسم" هو الميم وهو أول حرفٍ من حروف "موسى" وليس فيها حرف من حروف هرون .أفلا يزيد

حسناً على حسن تقديم هرون على موسى في طه وتقديم موسى على هرون في الشعراء.
وقد ترى ذلك إغراقاً في التعليل، وربما كان ذاك، إلا أن العجيب أن كل سورة تبدأ بالطاء ترد فيه قصة موسى في أوائلها مفصلة قبل سائر القصص، مثل :"طه، وطس، وطسم في القصص، وطسم في الشعراء" وليس في المواطن الأخرى مما يبدأ بالحروف المقطعة مثل ذلك .فالقاسم المشترك فيما يبدأ بالحروف "ط" قصة موسى مفصلة في أوائل السورة .والملاحظة الأخرى أن ما يبدأ بـ "طسم" تكون قصة موسى فيها أطول مما يبدأ بـ "طس" فكأن زيادة الميم إشعار بزيادة القصة فانظر يا رعاك الله أي سر من أسرار التعبير هذا؟
ومن بديع الفاصلة قوله تعالى:
"فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ الله قُضِيَ بالحق وَخَسِرَ هُنَالِكَ المبطلون" "غافر :٧٨".
وقوله :"وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافرون" "غافر :٨٥".
فقد ختم الآية الأولى بقوله :"المبطلون" وختم الآية الثانية بقوله :"الكافرون" وذلك لأن كل كلمة مناسبة للسياق الذي وردت فيه .فالأولى وردت في سياق الحق، ونقيضُ الحقِّ الباطل .والثانية في سياق الإيمان، ونقيض الإيمان الكفر .قال تعالى في الآية الأولى :"فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ الله قُضِيَ بالحق وَخَسِرَ هُنَالِكَ المبطلون" "غافر :٧٨" . وقال في الآية الثانية :"فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قالوا آمَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ الله التي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافرون" "غافر :٨٤-٨٥" ؟
جاء في "البرهان" للكرماني في اختيار هاتين الفاصلتين أن" الأول متصل بقوله :"قُضِيَ بالحق" "غافر :٧٨" ونقيض الحق الباطل .والثاني متصل بإيمان غير مُجْدٍ ونقيضُ الإيمان الكفر."
ومن ذلك قوله تعالى:
"أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ القرون يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ المآء إِلَى الأرض الجرز فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ" "السجدة :٢٦-٢٧".
"فانظر إلى قوله في صدر الآية التي الموعظة فيها سمعية :"أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ" "السجدة :٢٦" ولم يقل :"أَوَلَمْ يَرَوْاْ" "السجدة :٢٧" . وقال بعد ذكر الموعظة :"أَفَلَا يَسْمَعُونَ" "السجدة :٢٦" لأنه تقدم ذكر الكتاب وهو مسموع، او أخبار القرون وهو مما يُسمع.
وكيف قال في صدر الآية التي موعظتها مَرْئية :"أَوَلَمْ يَرَوْاْ" "السجدة :٢٧" وقال بعدها :"أَفَلَا يُبْصِرُونَ" "السجدة :٢٧" لأن سوق الماء إلى الأرض الجرز مرئي."
ومن ذلك قوله تعالى:

"قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إلاه غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إلاه غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أفلَا تُبْصِرُونَ" "القصص :٧١-٧٢".
فانظر كيف ختم آية الليل بقوله :"أَفَلَا تَسْمَعُونَ" "القصص :٧١" لأن الليل يصلح فيه السمع وختم آية النهار بقوله :"أفلَا تُبْصِرُونَ" "القصص :٧٢" لأنه صلح للإبصار؟
جاء في "البرهان" في هاتين الآيتين :فاقتضت البلاغة أن يقول :"أَفَلَا تَسْمَعُونَ" "القصص :٧١" لمناسبة ما بين السماع والظرف الليلي الذي يصلح للاستماع ولا يصلح للإبصار.
وكذلك قال في الآية التي تليها :"قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إلاه غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلَا تُبْصِرُونَ" "القصص :٧٢" ... فاقتضت البلاغة أن يقول :"أفلَا تُبْصِرُونَ" "القصص :٧٢" إذ الظرف مضيء صالح للإبصار .وهذا من دقيق المناسبة المعنوية."
ومن ذلك قوله تعالى:
"وَإِماَّ يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" "الأعراف :٢٠٠".
وقوله أيضاً :"وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله إِنَّهُ هُوَ السميع العليم" "فصلت :٣٦".
في حين قال :"إِنَّ الذين يُجَادِلُونَ في آيَاتِ الله بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فاستعذ بالله إِنَّهُ هُوَ السميع البصير" "غافر :٥٦".
فانظر كيف جاء بالاستعاذة من الشيطان الذي نعلمه ولا نراه بقوله :"إِنَّهُ هُوَ السميع العليم" "فصلت :٣٦" وجاء فيمن يرى ويبصر من شياطين الإنس بقوله :"إِنَّهُ هُوَ السميع البصير" "غافر :٥٦" فانظر دقة هذا التعبير وجماله.
جاء في "التفسير القيم"" : وتأمل حكمة القرآن كيف جاء بالاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده ولا نراه بلفظ :"السميع العليم" "فصلت :٣٦" في الأعراف وحم السجدة .وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسون ويُرون بالإبصار بلفظ :"السميع البصير" "غافر :٥٦" في سورة حم المؤمن ... لأن أفعالَ هؤلاء معاينةٌ بالبصر .وأما نزغ الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها في القلب يتعلق بها العلم، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها .وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يُرَى بالبصر ويُدْرَكُ بالرؤية والله أعلم."
ومن ذلك قوله تعالى :"وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وعلىءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَآ على أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" "يوسف :٦".

وَقوله :"وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هاذه الأنعام خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ على أزواجنا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ" "الأنعام :١٣٩".
فقدم العلم على الحكمة في سورة "يوسف" ، وقدم الحكمة على العلم في "الأنعام" ، وذلك لأنه في سورة يوسف تقدم قوله :"وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحاديث" "يوسف :٦" وهذا موطن علم فقدم العلم لذلك، وفي الأنعام موطن تشريع فقدم الحكم لذلك.
جاء في "البرهان"" : وأما تقديم الحكيم على العليم في سورة الأنعام فلأنه مقام تشريع الأحكام .وأما في أول سورة يوسف فقدم العليم على الحكيم لقوله في آخرها :وعلمتني من تأويل الأحاديث."
ومن الطريف أن نذكر هنا أنه حيث اجتمع الاسمان :"العليم والحكيم" في سورة الأنعام قُدِّمَ الحكيمُ على العليم وحيث اجتمعا في سورة يوسف قدم العليم على الحكيم وذلك لأن مواطن يوسف كلها مواطن علم أولاً فقدم "العليم" ومواطن الأنعام مواطن حكمة أو حُكم فقدم "الحكيم" ، مما يدل على أن كل كلمة إنما وضعت مقصودةً قصداً.
فانظر أي تنسيق وأي دقة في هذا الكلام العزيز؟
ومنه قوله تعالى:
"وَلَقَدِ استهزئ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ" "الرعد :٣٢".
وقوله :"وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ موسى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ" "الحج :٤٢-٤٤".
فقال في آية الرعد :"فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ" "الرعد :٣٢" وقال في آية الحج :"فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ" "الحج :٤٤" وذلك أنه ذكر في آية الرعد المستهزئين وذكر في آية الحج المكذِّبين .والمستهزئون أعظم جرماً من المكذبين، لأنهم يجمعون السخرية إلى الكذب فكان الوعيد لهم أشد .إذ رُبَّ نكير لا يصحبه عقاب، فجعل كل وعيد بإزاء جرمه الذي يناسبه.
جاء في "ملاك التأويل"" : للسائل أن يسأل عن وجه تعقيب الأولى بقوله :"فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ" "الرعد :٣٢" والثانية بقوله :"فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ" مع تساوي الآيتين في مقصود الوعيد بمكذِّبي الرسل عليهم السلام.
والجواب والله أعلم، أن العقاب أشد موقعاً من النكير، لأن الإنكار قد يقع على ما لا عقاب فيه بالفعل وعلى ما فيه العقاب بالفعل، أما مسمى العقاب فإنما يُراد به في الغالب أخذ بعذاب مناسب لحال لمجرم إثر معصيته وعقيب جريمته .وقد تقدم في آية الرعد قوله تعالى :"وَلَقَدِ استهزئ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ" "الرعد :٣٢" والاستهزاء أمرٌ مرتكب زائد على التكذيب من التهاون، والاستخفاف بجريمة مرتكبة أشنع جريمة فناسبها الإفصاح بالعقاب.

أما آية الحج فإن الوعيد فيها للمذكورين بالتكذيب، ولم يذكر منهم استهزاء قال تعالى :"وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ " ... "الحج :٤٢" فلم يخبر عن هؤلاء بغير التكذيب ..فناسب النظم تعقيب كل آية بما يناسب مرتكب من تقدم فيها، ولم يكن عكس الوارد ليناسب."
ومنه قوله تعالى على لسان موسى للرجل الصالح عندما خرق السفينة :"أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً" "الكهف :٧١".
وقوله له عندما قتل الغلام :"أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً" "الكهف :٧٤".
فوصف خرق السفينة بأنه شيءٌ إِمْر، ووصف قتل الغلام بأنه شيء نُكْر .وذلك أن خرق السفينة دون قتل الغلام شناعة فإنه إنما خرق السفينة لتبقى لمالكيها .وهذا لا يبلغ مبلغ قتل الغلام بغير سبب ظاهر .والإمر دون النكر، فوضع التعبير في كل موضع بما يناسب كل فعل .وعن قتادة :النكر أشد من الإمر .فجاء كل على ما يلائم، ولم يكن ليحسن مجيء أحد الوصفين في موضع الآخر.
ومنه قوله تعالى:
"وَيَتُوبُ الله على مَن يَشَآءُ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ" "التوبة :١٥".
وقوله :"ثُمَّ يَتُوبُ الله مِن بَعْدِ ذلك على مَن يَشَآءُ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ" "التوبة :٢٧".
فقد قال في الأولى :"عَلِيمٌ حَكِيمٌ" "التوبة :١٥" وفي الثانية :"غَفُورٌ رَّحِيمٌ" "التوبة :٢٧".
"ووجه ذلك - ولله أعلم - أن الآية الأولى أعقب بها ما تقدمها متصلاً بها من الآي في كفار مكة وفعلهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في التضييق والإخراج ... فأمر تعالى بقتالهم ووعد بتعذيبهم وخزيهم والنصر عليهم وشفاء صدور من آمن ... قال تعالى :"قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ" "التوبة :١٤".
ثم قال :"وَيَتُوبُ الله على مَن يَشَآءُ" "التوبة :١٥" ... أي :من أسلم منهم بعدما صدر من اجتهاده في الأذية والصد عن سبيل الله ثم قال :"والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ" "التوبة :١٥" أي :بما في القتال أو طيّ ما جرى من ذلك كله بتقديره السابق أولاً ... وما في ذلك من الحكمة...
وأما الآية الثانية فسببها والله أعلم ما جرى يوم حنين من تولِّي الناس مُدْبرين حين ابتلوا بإعجابهم بكثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً ولم يثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم أحد، إذ لم يبرح عليه السلام من مكانه فلم يثبت معه إلا القليل ... فختمت هذه الآية بقوله :"والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ" "التوبة :٢٧" تأنسياً لمن فَرَّ من المسلمين في ذلك اليوم، وبشارة لهم بتوبة الله عليهم، وأن ما وقع منهم من الفرار مغفور لهم رحمة من الله، فجاء كلٌّ من هذا الباب على ما يناسب ويلائم ولا يلائم خلافه."

ومن ذلك قوله تعالى:
"لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخرة هُمُ الأخسرون" "هود :٢٢".
وقوله :"لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخرة هُمُ الخاسرون" "النحل :١٠٩".
وسر هذا الاختلاف في آية هود فيمن صدوا عن سبيل الله وصدوا غيرهم وضوعف لهم العذاب، وآية النحل فيمن صدّ هو ولم يصدّ غيره، فكان الأولون أخسر من الآخرين فجيء لهم باسم التفضيل.
قال تعالى في "هود" : "الذين يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ * أولائك لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأرض وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّن دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ * أولائك الذين خسروا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخرة هُمُ الأخسرون" "هود :١٩-٢٢".
وقال في "النحل" : "ذلك بِأَنَّهُمُ استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وَأَنَّ الله لَا يَهْدِي القوم الكافرين * أولائك الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وأولائك هُمُ الغافلون * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخرة هُمُ الخاسرون" "النحل :١٠٧-١٠٩".
جاء في "البرهان" للكرماني أن قوله في هود :"هُمُ الأخسرون" "هود :٢٢"" لأن هؤلاء صدروا عن سبيل الله وصدوا غيرهم فَضَلُّوا وأضلوا الأخسرون يُضاعَفُ لهم العذاب، وفي النحل صدوا فهم الأخسرون."
ومن ذلك قوله تعالى :"واستعينوا بالصبر والصلاوة وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين" "البقرة :٤٥".
وقوله :"يَآأَيُّهَا الذين آمَنُواْ استعينوا بالصبر والصلاة إِنَّ الله مَعَ الصابرين" "البقرة :١٥٣".
فقد أعاد الضمير في الآية الأولى على الصلاة وختم الآية بالكلام عليها .وختم الكلام في الآية الثانية على الصبر، وذلك أن الكلام في الآية الأولى على الصلاة فقد تقدم ذكر الصلاة والمطالبة بها .قال تعالى :"وَأَقِيمُواْ الصلاوة وَآتُواْ الزكاوة واركعوا مَعَ الراكعين" "البقرة :٤٣" بخلاف قوله تعالى :"يَآأَيُّهَا الذين آمَنُواْ استعينوا بالصبر والصلاة إِنَّ الله مَعَ الصابرين" "البقرة :١٥٣" فقد ختم الآية بالكلام على الصبر وذلك لأن الكلام عليه والسياق يقتضيه، فقد قال تعالى بعد هذه الآية :"وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ الله أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الخوف والجوع وَنَقْصٍ مِّنَ الأموال والأنفس والثمرات وَبَشِّرِ الصابرين * الذين إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" "البقرة :١٥٤-١٥٦".
فلما كان السياق في الموطن الأول عن الصلاة، أعاد الضمير عليها وختم الآية بها .ولما كان السياق في الموطن الثاني عن الصبر، ختم الآية بالكلام على الصابرين.

ومن ذلك قوله تعالى :"إِنَّ الله لَا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بالله فَقَدِ افترى إِثْماً عَظِيماً" "النساء :٤٨".
وقوله مرة أخرى في السورة نفسها :"إِنَّ اللهِ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلك لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بالله فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً" "النساء :١١٦".
فقد ختم الآية الأولى بقوله :"فَقَدِ افترى إِثْماً عَظِيماً" "النساء :٤٨" وختم الآية الثانية بقوله :"فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً" "النساء :١١٦" . وسبب هذا الاختلاف أن الآية الأولى في سياق الكلام على افتراءات اليهود وكذبهم، فقد قال قبل هذه الآية :"مِّنَ الذين هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الكلم عَن مَّوَاضِعِهِ" "النساء :٤٦" وقال بعدها :"انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وكفى بِهِ إِثْماً مُّبِيناً" "النساء :٥٠" فناسب ذلك قوله :"فَقَدِ افترى إِثْماً عَظِيماً" "النساء :٤٨".
وأما الآية الأخرى فهي في المشركين من غير أهل الكتاب، وهم لم يفتروا على الله لأنهم ليسوا أصحاب كتاب أصلاً وإنما هم ضالون، فناسب ذلك قوله :"فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً" "النساء :١١٦" ثم انظر كيف قال بعدها على لسان الشيطان :"وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ" "النساء :١١٩".
فالكلام في سياق الضلال والإضلال فناسب ذلك هدة الخاتمة.
جاء في كتاب "من بلاغة القرآن" في سر هذا الاختلاف بين الآيتين" :ونستطيع أن نلمس سر هذا الاختلاف في أن الآية الأولى وردت في حديث عن اليهود الذين افتروا على الله الكذب، مما ناسب أن تختم الآية بالافتراء الذي اعتاده اليهود وهم أهل الكتاب .أما الآية الثانية فقد وردت في حديث عن المشركين، وهم في إشراكهم لا يفترون ولكنهم ضالون ضلالاً بعيداً."
ومن ذلك قوله تعالى:
"كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموت إِن تَرَكَ خَيْراً الوصية لِلْوَالِدَيْنِ والأقربين بالمعروف حَقّاً عَلَى المتقين * فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الذين يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ * فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ" "البقرة :١٨٠-١٨٢".
ختم الآية الأولى بالسمع والعلم لما قال قبل :"فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ" "البقرة :١٨١" وختم الآية الثانية بالمغفرة والرحمة لما قال قبلها :"فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ" "البقرة :١٨٢" وهذا نظير قوله تعالى:
"إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمَ الخنزير وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ" "البقرة :١٧٣".
فقد ختم الآية بقوله :"إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ" "البقرة :١٧٣" لما قال قبلها :"فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ" "البقرة :١٨٢" . جاء في "البرهان" للكراماني" :قوله في آية الوصية :"إِنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ" "البقرة :١٨١" ، خصّ السمع والعلم بالذكر لما في الآية من قوله :"بَعْدَ مَا سَمِعَهُ" "البقرة :١٨١" ليكون مطابقاً .وقال في

الآية الأخرى بعدها :"إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ" "البقرة :١٨٢" لقوله :قبله :"فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ" "البقرة :١٨٢" فهو مطابق معنى."
ومن ذلك قوله تعالى:
"ذلك أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غافلون" "الأنعام :١٣١".
وقوله :"وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ" "هود :١١٧".
فقد ختم آية الأنعام بقوله :"وَأَهْلُهَا غافلون" "الأنعام :١٣١" وختم آية هود بقوله :"وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ" "هود :١١٧" ذلك لأن سياق الكلام في ذكر الرسل والإنذار والتبليغ .قال تعالى:
"يامعشر الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هاذا قَالُواْ شَهِدْنَا على أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا وَشَهِدُواْ على أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ * ذلك أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غافلون" "الأنعام :١٣٠-١٣١".
فأنت ترى أن سياق الكلام في ذكر الرسل والإنذار والتبليغ وتبيان أن الله لم يُهلك أقواماً غافلين لم يُنذروا ولم يُكَلَّفُوا، فإن من لم ينذر فهو غافل .قال تعالى :"لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ" "يس :٦" وما كان الله ليهلك مثل هؤلاء الأقوام، ولذا ختمها بقوله :"وَأَهْلُهَا غافلون" "الأنعام :١٣١".
وأما آية هود فهي في الكلام على الإصلاح والنهي عن الفساد في الأرض ولذا ختمها بالإصلاح قال تعالى :"فَلَوْلَا كَانَ مِنَ القرون مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفساد فِي الأرض إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ واتبع الذين ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ" "هود :١١٦-١١٧".
فناسب ختام كل آية السياق الذي هي فيه.
جاء في "درة التنزيل" في هاتين الآيتين" :للسائل أن يسأل فيقول :لم قال في الأولى :"غافلون" "الأنعام :١٣١" وفي الثانية :"مُصْلِحُونَ" "هود :١١٧" ؟
والجواب :إن ذلك إشارة إلى ما تقدم من العقاب في قوله :"قَالَ النار مثواكم خالدين فِيهَآ" "الأنعام :١٢٨" وبعد :"يامعشر الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ
هاذا" "الأنعام :١٣٠" . يعني :العقاب في يوم القيامة، لأنه لم يكن ربك ليفعله من قبل أن يحتج عليهم برسل يهدونهم وينذرونهم ما وراءهم من
محذورهم، ولا يتركونهم في غفلة من أمورهم .فاقتضى هذا المكان أن يقال لهم :لم يؤخذوا وهم غافلون بل كانوا مُنَبَّهين بالإعذار والإنذار على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام.
وأما الموضع الثاني الذي ذكر فيه "وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ" "هود :١١٧" فللبناء على ما تقدم وهو قوله تعالى :"فَلَوْلَا كَانَ مِنَ القرون مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفساد فِي الأرض إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ واتبع الذين ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ" "هود :١١٦" فدل على أن القوم كانوا مفسدين حتى

نهاهم أولو بقيةَ ينهون عن الفساد في الأرض .وكان نقيض الفساد في الأرض الصلاح فقال :لم يكن الله ليهلكهم وهم مصلحون .فاقتضى ما تقدم في كل آية ما اتبعت من الغافلين والمصلحين."
ومن ذلك قوله تعالى:
"وَلَا تَمَسُّوهَا بسواء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" "الأعراف :٧٣".
وقوله :"وَلَا تَمَسُّوهَا بسواء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ" "هود :٦٤".
وقوله :"وَلَا تَمَسُّوهَا بسواء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ" "الشعراء :١٥٦".
ففي آية الأعراف وصف العذاب بالإيلام، وفي هود بالقرب، وفي الشعراء وصف اليوم بالعظمة، وذلك أنه في الأعراف ذكر قوم صالح وكثرة تحديهم واستهزائهم وعُتُوِّهِم ولم يذكر مثل ذلك في السور الأخرى .قال تعالى :"قَالَ الذين استكبروا إِنَّا بالذي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُواْ الناقة وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائتنا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ المرسلين" "الأعراف :٧٦-٧٧".
فقد ذكر عنهم أنهم:
١ -أعلنوا كفرهم "إنا بالذي آمنتم به كافرون".
٢ -وأنهم عَتَوْا عن أمر ربهم.
٣ -وأنهم تحدوه وقالوا :ائتنا بما تَعِدُنا إنْ كنت من المرسلين.
وليس الأمر كذلك في المكانين الآخرين .فقد قال في هود :"قَالُواْ ياصالح قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هاذا أَتَنْهَانَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ" "هود :٦٢".
فليس فيه مثل ذلك التحدي ولم يذكر أنهم عتوا عن أمر ربهم حتى أنهم لم يصرحوا بكفرهم، بل ذكروا أنهم في شك "وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ" "هود :٦٢" . فأنت ترى أن السياق في كل من الموطنين يختلف عن الآخر.
وكذلك ما جاء في سورة الشعراء فإنه لم يذكر تحديهم ولا عتوهم واستكبارهم، فاستحقوا أن يذكر لهم العذاب الأليم في سورة الأعراف.
وأما في سورة هود فقد وصف العذاب بالقرب لما ذكر قبله :"تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ" "هود :٦٥".
وأما في الشعراء فقد وصف اليوم لما ذكر قبلها :"لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ" "الشعراء :١٥٥" جاء في "البرهان" للكرماني في سر اختلاف هذه الآيات أنه في سورة الأعراف" بالغ في الوعظ فبالغ في الوعيد فقال :عذاب أليم.
وفي هود لما اتصل بقوله :"تمتعوا في داركم ثلاثة أيام" وصفه بالقرب فقال :"عَذَابٌ قَرِيبٌ" "هود :٦٤".
وزاد في الشعراء ذكر اليوم لأن قبله :"لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ" "الشعراء :١٥٥" والتقدير :لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم، فختم الآية بذكر اليوم فقال :عذاب يوم عظيم."

لقد تبين مما مر أن القرآن الكريم لا يعني بالفاصلة على حساب المعنى ولا على حساب مقتضى الحال والسياق، بل هو يحسب لكل ذلك حسابه، فهو يختار الفاصلة مراعىً فيها المعنى والسياق والجرس ومراعىً فيها خواتم الآي وجو السورة ومراعىً فيها كل الأمور التعبيرية والفنية الأخرى، بل مراعىً فيها إلى جانب ذلك كله عموم التعبير القرآني وفواصله، بحيث تدرك أنه اختار هذه الفاصلة في هذه السورة لسبب ما، واختار غيرها أو شبيهاً بها في سورة أخرى لسبب دعا إليه .وجمع بين كل ذلك ونَسَّقه بطريقة فنية في غاية الروعة والجمال حتى كأنك تحس أنها جاءت بصورة طبيعية غير مقصودة، مع أنها في أعلى درجات الفن والصياغة والجمال .فما أجله من كلام وما أعظمه من تعبير.

السمة التعبيرية للسياق

السمة التعبيرية للسياق
قد تكون للسياق الذي ترد فيه الآية سمة تعبيرية خاصة، فتتردد فيه ألفاظ معينة بحسب تلك السمة.
وقد يكون للسورة كلها جو خاص وسمة خاصة فتطبع ألفاظها بتلك السمة.
وهذا واضح وكثير في القرآن الكريم، إذ كثيراً ما نرى تعبيرين يتشابهان إلا في لفظ واحد. وإذا ما دققنا النظر وجدنا أن كل لفظة اختيرت بحسب السمة التعبيرية لهذا السياق أو ذاك. فمن ذلك قوله تعالى:" فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ... (34) " النحل
وقوله:" وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ... (33) الجاثية
في حين قال:" وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ... (48) " الزمر
وقال:" فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ...(51) " الزمر
فاختار لفظ (العمل) في النحل والجاثية ولفظ (الكسب) في الزمر. قيل: وسبب اختيار لفظ (العمل) في النحل والجاثية هو وقوع الآيتين بين ألفاظ العمل، وسبب اختيار لفظ (الكسب) في الزمر هو وقوع الآيتين بين ألفاظ الكسب فقد جاء في النحل قوله تعالى: " مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) النحل
وقوله: " وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (111) " النحل
وجاء في الجاثية قوله " الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) " وقوله: " إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29) "وقوله: " فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .."
في حين وقع لفظ (الكسب) في الزمر بين ألفاظ الكسب، وذلك نحو قوله تعالى:" ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (24) "الزمر وقوله " سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا "
فخصت كل سورة بما اقتضاه سياقها (1) .
هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن سورة الزمر هي أكثر سورة تردد فيها لفظ (الكسب) من بين هذه السور الثلاث، فقد ترددت فيها هذه اللفظة خمس مرات(٢) في حين لم ترد هذه اللفظة في سورة النحل البتة، وأما في سورة الجاثية فقد وردت ثلاث مرات(3) . فوضع كل لفظة في الموطن الذي يقتضيها.
ومن ذلك قوله تعالى:" فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) " طه
وقوله :" فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ... (8) "النمل
فقال في (طه): (أتاها) وفي (النمل): (جاءها). قيل: وسبب ذلك أنه كثر « لفظ الإتيان في طه نحو: فأتياه (47)، فلنأتينك (٥٨)، ثم أتى (٦٠)، ثم ائتوا(٦٤) ،حيث

آتى(69)
ولفظ (جاء) في النمل أكثر نحو: فلما جاءتهم(١٣)، وجئتك (٢٢)، فلما جاء سليمان(٣٦)"(٤).
ولإيضاح ذلك نذكر أن ألفاظ (الإتيان) في طه أكثر منها في النمل، وأن ألفاظ المجيء في النمل أكثر منها في طه، فقد وردت ألفاظ الإتيان في طه

---

(١) انظر البرهان للكرماني ٢٧٣-٢٧٤، ٤١٦، درة التنزيل ٤٠٨-٤٠٩، ملاك التأويل ٦٠١/٢-٦٠٢.
(٢) انظر الآيات ٢٤، ٤٨، ٥٠، ٥١ (مرتين).
(٣)انظر الآيات ١٠، ١٤، ٢.
(٤) البرهان للكرماني ٣١٢-٣١٣.

خمس عشرة مرة وفي النمل ثلاث عشرة مرة. ووردت ألفاظ المجيء في طه أربع مرات وفي النمل ثماني مرات. فاختير لفظ المجيء في النمل والإتيان في طه، ووضع كل لفظ في الموضع الذي يقتضيه.
ومن ذلك قوله تعالى :" إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (173) "
وقوله :" فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145) الأنعام
فاختار في سورة البقرة لفظ (الله) وفي الأنعام لفظ (الرب). ومن أسباب هذا الاختيار والله أعلم أن لفظ (الله) تردد في البقرة أكثر مما في الأنعام، وأن لفظ (الرب) تردد في الأنعام أكثر مما في البقرة. فقد ورد لفظ (الله) في البقرة (٢٨٢) مائتين واثنتين وثمانين مرة، وفي الأنعام (٨٧) سبعاً وثمانين مرة. ووردت كلمة (رب) في البقرة (٤٧) سبعاً وأربعين مرة، وفي الأنعام (٥٣) ثلاثاً وخمسين مرة. فناسب أن يضع كلمة (الله) في البقرة و كلمة (رب) في الأنعام.
وعلاوة على هذا يقتضي السياق وضع كل لفظة في المكان الذي وضعت فيه، فإن آية البقرة في سياق العبادة، ولفظ (الله) أولى أن يوضع في هذا السياق لأنه من الألوهية، والألوهية هي العبادة قال تعالى :" وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (172) " البقرة ويدل على ذلك أنه لما قال في سورة النحل: " وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114) " النحل قال بعدها: " فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (115) " النحل
وأما سياق آية الأنعام ففي الأطعمة ولفظ (الرب) ألصق بهذا السياق، لأن الرب من التربية والتنشئة(1) .

---

(١) انظر البرهان للكرماني ١٠٣، درة التنزيل ٤٢-٤٣.

ومن ذلك قوله تعالى:" وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (61) " غافر

وقوله:" وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (60) " يونس
فأظهر الناس في آية المؤمن وأضمرهم في آية يونس، وذلك أن السياق الذي وردت فيه آية المؤمن تكرر فيه لفظ الناس، بخلاف السياق في سورة يونس إذ بني على الإضمار. جاء في (درة التنزيل) في هاتين الآيتين: «للسائل أن يسأل فيقول: كيف أظهر الناس في موضع الإضمار في سورة المؤمن، وقد أضمر في موضع الإظهار في سورة يونس؟ وهل كان جائزاً وقوع هذا موقع ذاك؟...
فأما قوله في سورة المؤمن: " وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ " . فإنه محمول على الآيات التي قبله وهي قوله: " لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57) " غافر
وقال بعده: " إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (59) " غافر. ثم جاء: " إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (61) غافر
فأظهر ذكر الناس كما أظهر في الآيتين قبلها للمشاكلة والملاءمة وليس كذلك الأمر في سورة يونس عليه السلام، لأن الكلام هناك بني على الإضمار في الآية المتقدمة. ألا ترى أنه قال تعالى مخبراً عمن يدخل من الظالمين النار: " ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (52) " يونس . فانقضى هذا الكلام واستؤنف خبر عن القوم الذين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم وقال: " وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53) " يونس فأضمر ذكره في قوله: " وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ " . ثم قال بعده" أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (55) " يونس .فأضمر ما أضاف إليه (أكثر). ثم انتهى إلى قوله بعده: " إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (60) " يونس فاقتضى ما بني عليه الكلام في هذه الآية أن يكون ما بعد الشرط بلفظ الإضمار كما كان ما تقدمه »(1) .
وقد تكون كثرة اللفظ وغلبته مطلقة في السورة كلها لا في السياق الذي تقع فيه الآية وحده. فمن ذلك قوله تعالى:" الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ... (53) " طه
وقوله :" الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10) " الزخرف
فقد ذكر (جعل) في الزخرف و (سلك) في طه، ولعل من بين أسباب هذا الاختيار أن فعل الجعل ورد في الزخرف أكثر مما في طه، فقد ورد في الزخرف اثنتي عشرة مرة وورد في طه ثلاث مرات(2) . فاختار الجعل في الزخرف والسلوك في طه، والله أعلم.
ونحو هذا قوله تعالى :" وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) " الكهف

وقوله:" وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى (50) فصلت
فقد قال في (الكهف) : (رددت) وقال في (فصلت) : (رجعت) ، ولو رجعنا إلى استعمال هذين اللفظين ومشتقاتهما في كل من السورتين لوجدنا أن لفظ (الرد) ورد في الكهف ثلاث مرات(3) ولم يرد في فصلت إلا مرة واحدة(4)، وأما الرجع

---

(١) درة التنزيل ٤١٢-٤١٣.
(٢) انظر الآيات٢٩، ٥٣، ٥٨.
(٣) انظر الآيات ٦٤،٣٦، ٨٧.
(٤) انظر الآية ٤٧.

فلم يرذ في الكهف وقد ورد في فصلت مرتين(١). فوضع كل فعل في مكانه الذي هو أليق به.
ومن بديع ذلك قوله تعالى:" إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (17) " الحج
وقوله: " إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (25) السجدة
فقد قال في آية الحج، (الله) وقال في آية السجدة، (ربك) ولو نظرنا في استعمال هاتين اللفظتين في كل من هاتين السورتين لرأينا أنه وضع كل لفظة بحسب كثرة ورودها في كل سورة. هذا علاوة على اختيار كل لفظة بحسب ما يقتضيه المقام من ناحية المعنى أيضاً . فقد وردت لفظة (الله) في سورة الحج خمساً وسبعين مرة في حين لم ترد هذه اللفظة في السجدة إلا مرة واحدة(2).
وقد وردت كلمة (رب) في السجدة عشر مرات، ووردت في سورة الحج ثماني مرات، فوضع كل لفظة في السورة التي كثر استعمالها فيها .
هذا علاوة على ما في الآيتين من أمور فنية أخرى. فإنه لما ذكر الاختلاف في آية السجدة (فيما كانوا فيه يختلفون) أكد الفصل ب (هو) لأن الأصل في الفصل أن يكون عند الاختلاف. ولما لم يذكر الاختلاف في سورة الحج لم يؤكده.
ونحو هذا قوله تعالى :" قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ... (36) " سبأ .
وقوله :" قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ .... (39) " سبأ

---

(١) انظر الآيتين ٢١، ٥٠.
(٢) انظر الآية ٤.

في حين قال:" الله يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ .... (62) "العنكبوت
فاختار كلمة (ربي) في سورة سبأ، وكلمة (الله) في العنكبوت، وذلك أن لفظ (الرب) ورد في سبأ أكثر مما في العنكبوت، ولفظ (الله) ورد في العنكبوت أكثر مما في سبأ. فقد ورد لفظ (الرب) في سبأ أربع عشرة مرة، وورد في العنكبوت خمس مرات. وورد لفظ (الله) في العنكبوت إثنتين وأربعين مرة، في حين لم يرد في سبأ إلا ثماني مرات، فانظر هذا الاختيار العجيب في استعمال الكلمات.
ونحو ذلك قوله تعالى :" ...خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ... (1) " النساء
وقوله:" هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ .... (189) الأعراف
وقوله:" خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ .. (6) الزمر
في حين قال:" وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ... (98) " الأنعام
فأنت ترى أنه قال في الأنعام وحدها: " أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ " ولم يقل مثل ذلك في سائر سور القرآن، في حين قال: (خلقكم) في المواطن الأخرى، ذلك أن الفعل (أنشأ) ورد في الأنعام في أربعة مواطن(١) ولم يرد في السور الثلاث الأخرى أصلاً، فاستعمله للتناسب اللفظي في هذه السورة دون غيرها.
ومن لطيف هذا النوع وبديعه قوله تعالى :" فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) " هود

---

(١) انظر الآيات ٦، ٩٨، ١٣٣، ١٤١.

وقوله:" ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (195) " الأعراف
فقد قدم الفاء وأخر(ثم) في آية هود، وقدم (ثم) وأخرالفاء في آية الأعراف.
ومن الطريف أنه حيث اجتمعت ثم والفاء في سورة الأعراف، قدمت (ثم) على الفاء وفي هود بالعكس. وهذا أغرب شيء وأعجبه. قال تعالى في الأعراف :" وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ... (11) " الأعراف
وقال :" ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ ... فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً .... (95) الأعراف
وقال: ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ... (103) " الأعراف
وقال :" ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (195) " الأعراف
وقد يكون مفتتح السورة دالاً على تردد قسم من الألفاظ في السورة، وذلك يبدو جلياً فيما يبدأ بالأحرف المقطعة نحو: ألم وحم وطس ونحوها، فكثيراً ما تتردد الألفاظ التي تلي هذه الأحرف على نمط معين في السورة أو يكثر استعمالها فيها. فمن ذلك تردد لفظ (الكتاب) و (القرآن) وغيرهما من الألفاظ.

فنرى أن لفظي الكتاب والقرآن مثلاً يترددان في السورة على نحو معين، وذلك أن كل سورة يلي الأحرف المقطعة فيها ذكر (الكتاب) وحده ولم يذكر معه (القرآن) تتردد فيها هذه اللفظة أكثر من لفظ (القرآن) وربما لم ترد فيها لفظة (القرآن). وكل سورة يلي فيها الأحرف المقطعة ذكر (القرآن) وحده تتردد فيها لفظة (القرآن) أكثر من لفظ (الكتاب) وربما لم ترد فيها لفظة (الكتاب) ولا مشتقات الكتابة. وكل سورة اجتمع فيها ذكرهما تردد ذكرهما بصورة متقاربة، بحيث لا يزيد أحدهما على الآخر بأكثر من لفظ واحد.
وإليك إيضاح ذلك :
ففي سورة البقرة مثلاً قال تعالى :" الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) " البقرة
فقد ذكر الكتاب وحده بعد (الم) فنلاحظ أنه تردد لفظ الكتاب ومشتقات الكتابة في هذه السورة سبعاً وأربعين مرة، في حين لم يرد لفظ القرآن أو أي مشتق من مشتقات القراءة إلا مرة واحدة، وهو قوله تعالى: " شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ... (185) البقرة
وفي سورة آل عمران قال تعالى :" الم (1) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (2) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ... (3) " آل عمران
فقد ذكر (الكتاب) وحده، فنلاحظ أنه تردد لفظ الكتابة ومشتقاتها في هذه السورة ثلاثاً وثلاثين مرة ولم يرد فيها لفظ القرآن.
وهذا النهج لم يختلف في أية سورة من السور التي تبدأ بالأحرف المقطعة. يظهر ذلك في الأعراف ويونس وهود والرعد وإبراهيم والشعراء والقصص ولقمان والسجدة وغيرها.
وقد يلي الأحرف المقطعة ذكر القرآن وحده، فيتردد هذا اللفظ أكثر من الكتاب، بل ربما لم يرد فيها لفظ الكتاب ولا أي لفظ من مشتقات الكتابة، ذلك نحو قوله تعالى :" طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) " طه فقد ورد ذكر القرآن ولم يرد لفظ الكتاب بعد هذين الحرفين، فنلاحظ أنه تردد لفظ القرآن في هذه السورة ثلاث مرات وورد لفظ الكتاب فيها مرة واحدة.
ونحوها قوله تعالى: " ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) " ق فقد ورد فيها ذكر القرآن مرتين وورد فيها لفظ الكتاب مرة واحدة. ولم يحصل مرة أن زاد لفظ

القرآن على لفظ لكتابة أو العكس في هذا النوع إلا سورة (ص) فإن ذكر القرآن والكتاب تساويا فيها فقد ورد كل منهما مرة واحدة.
وقد يجتمع لفظا الكتاب والقرآن معاً فيترددان بمقدار متقارب وذلك نحو قوله تعالى في سورة الحجر: " الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1) الحجر. فقد اجتمعا في الافتتاح، وقد ذكر الكتاب في السورة مرتين والقرآن ثلاث مرات.
وقوله في سورة النمل: " طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1) " النمل فقد ذكر القرآن في السورة أربع مرات والكتاب خمس مرات .

وهذا من عجائب التعبير ودقيقه.
ولا يقتصر الأمر في مفتتح السور هذه على ذكر الكتاب والقرآن وترددهما على نحو معين، بل هو أوسع من ذلك وأعجب، فقد تتردد الألفاظ التي ترد في الافتتاح كثيراً في أثناء السورة، وقد تبنى عليها السورة كلها أحياناً .
وإليك مثلاً يوضح ذلك : خذ مثلاً مفتتح سورة البقرة وهو قوله تعالى :" الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) البقرة
ومفتتح سورة لقمان وهو قوله :" الم (1) تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3) " لقمان
١- فقد أشار في آية البقرة إلى الكتاب ثم نفى عنه الريب.
وأشار في لقمان إلى آيات الكتاب وليس إلى الكتاب.
وانظر بعد ذلك كيف قال في البقرة: " وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) " البقرة. فأراد أن يجتث الريب من الكتاب إن كان موجوداً.
وكيف قال في لقمان" وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آَيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ... (7) " لقمان فذكر آيات الكتاب وليس الكتاب وانظر إلى ارتباط كل آية بالمفتتح.
وقد تقول: ألم يذكر الكتاب في هذه السورة والآيات في سورة البقرة؟
فنقول: بلى ذكر الكتاب والآيات في كلتا السورتين، ولكن ذكرت الآيات في لقمان أكثر من الكتاب، وذكر الكتاب في البقرة أكثر من الآيات. فإن لفظ (الكتاب) لم يرد في لقمان إلا مرتين، وورد لفظ الآيات خمس مرات. وأن لفظ (الكتاب) ومشتقات الكتابة ورد في البقرة سبعاً وأربعين مرة، وأن الآية ومشتقاتها وردت فيها إحدى وعشرين مرة.
٢- قال في لقمان: " هدى ورحمة " فزاد الرحمة على الهدى بخلاف البقرة، وانظر بعد ذلك مظاهر الرحمة التي عددها ربنا في السورة من مثل قوله تعالى: " وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ...(10) " لقمانوقوله: " أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (20) " لقمان. فانظر كيف جمع الهدى والرحمة في هذه الآية؟
إلى غير ذلك من الآيات في السورة.
٣- وصف الكتاب في لقمان ب (الحكيم)، وهذا الوصف قد يكون بمعنى اسم الفاعل أي: المحكم بكسر الكاف، وقد يكون بمعنى اسم المفعول أي:
المحكم بفتح الكاف. وهو ههنا بمعنى اسم المفعول أي: (المحكم) كما قال تعالى : " كتاب أحكمت آياته " وتأتي هذه اللفظة وصفاً لله بمعنى المحكم، فلما كان الكتاب حكيماً بمعنى محكم كان الله حكيماً بمعنى محكم، فانظر أنه لما قال في وصف الكتاب: " الكتاب الحكيم " قال في وصف لله: " وهو العزيز الحكيم " لقمان

ثم انظر كيف ذكر الحكمة بقوله: " وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ " لقمان
٤- قال في البقرة: " هدى للمتقين" البقرة . فانظر كيف قال فيما بعد: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) " البقرة وقال: " فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ... (24) " البقرة وقال: " وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41) " البقرة وقد تكرر لفظ التقوى ومشتقاتها ستاً وثلاثين مرة في هذه السورة.
وقال في سورة لقمان: " هدى ورحمة للمحسنين " فانظر كيف قال فيما بعد: " وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ... (22) " لقمان . فذكر الإحسان .
5- قال في مفتتح البقرة: " وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) " البقرة. وختمها بقوله: " آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ " البقرة
فانظر كيف ذكر الإيمان بما أنزل إليه وما أنزل من قبله في بدء السورة، وختمها بذاك فقال: " آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ " وذكر الإيمان بالرسل قبله فقال: " لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ " .
وقال في أول السورة: " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) " وختمها بقوله :" فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (286) " .
وقال في بدء لقمان " الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) لقمان فأكد اللإيقان بالآخرة.
فأنت ترى أنه قال في البقرة: " وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ " وقال في لقمان " وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) "فأكد الضمير الأول (هم) بالضمير الثاني. فلما أكد الإيمان باليوم الآخر في البدء قال في خاتمتها: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ ..(33) "لقمان فحذرهم من اليوم الآخر.
ولا نريد أن نطيل فهذا فيه كلام كثير.
وقد تطبع السورة كلها بطابع الافتتاح وليس السياق الذي تقع فيه الآية فحسب، ومن هذا النوع من السور سورة مريم. فهي تبدأ بقوله تعالى:" كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) " مريم
فأنت ترى أنها تبدأ بالرحمة، ولا تقتصر الرحمة على السياق الذي وقعت فيه الآية، بل إن السورة كلها تفيض بالرحمة، وألفاظ الرحمة تشيع فيها من أولها إلى آخرها. فقد قالت مريم لرسول ربها الذي تمثل لها بشراً سوياً: " قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18) " مريم فقد استعاذت بالرحمن ليرحمها ويقيها السوء ولم تقل: " أعوذ بالله " كما فعل موسى حين قال لقومه: " قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) " البقرة وذلك أن السياق في البقرة سياق عقوبة ومسخ وتنكيل ولاتناسب الرحمة ذاك. قال تعالى : "

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66) " البقرة هذا علاوة على أن لفظ (الرحمن) تكرر في مريم ست عشرة مرة، ولفظ (الله) تكرر في البقرة مائتين واثنتين وثمانين مرة، ولم يرد لفظ (الرحمن) في البقرة. إلا مرة واحدة وهو قوله تعالى: " وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163) " البقرة فوضع كل كلمة في مكانها اللائق بها.
ونعود إلى جو الرحمة في سورة مريم.
فقد قال الله في عيسى" وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ... (21) مريم
وقالت مريم: " إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا .. (26)" مريم
وقال إبراهيم لأبيه: " إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) " مريم
ثم قال له في عبارة كلها رحمة: " يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ ... (45) " مريم ولم يقل: (عذاب من الله). ثم انظر كيف لما ذكر المس ناسب ذلك ذكر الرحمة، بخلاف قوله تعالى: " قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (47) " الأنعام وأنت ترى الفرق واضحاً بين التعبيرين والمقامين، فلا يحسن وضع (الرحمن) في آية الأنعام كما هو بين. وهذا نظير ما ذكرناه في قوله تعالى: " أعوذ بالرحمن " " و " أعوذ بالله " . وذكر رحمته لإسحاق ويعقوب فقال: " وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)" مريم ورحمته لموسى فقال: " وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53) " مريم وقال في وصف من أنعم عليهم من خلقه: " وإذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا" مريم وذكر جنته التي وعدها عباده المتقين فقال: " جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب " مريم ثم ذكر أنه ليحضرن العتاة حول جهنم فقال: " ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا " مريم وهدد من كان في الضلالة وتوعده قائلاً: " من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا " مريم وذكر الذي كفر وزعم أنه سيؤتى مالاً وولداً فقال فيه: " أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا " مريم وذكر المتقين فقال: " يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85) " مريم وذكر من يظن فيهم أنهم يملكون الشفاعة فقال: " لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87) " مريم ثم ذكر من زعم أن اله اتخذ ولداً فقال : " وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) مريم ورد عليهم بقوله: " لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا 9)
كَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) " مريم ثم قال في خاتمة السورة: " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96) " مريم وهكذا ابتدأ السورة بالرحمة وتنتهي بالرحمة، ويشيع جوها كله بالرحمة،

وتستأثر باسم الرحمن، فلا تدانيها في ذلك سورة من السور.فانظر كيف طبعت السورة بالطابع الذي ورد